سلسلة شبهات وردود

(2) شبهة التشكيك في العدالة الإلهية (الشر الإلهي)

اللغز الذي حير البشرية!!

حال البشرية في الآخرة

بين رحمة الله وغضبه

تأليف

أ. د. محمد أبو زيد أبو زيد

حال البشرية في الآخرة بين رحمة الله وغضبه

تأليف أ. د. محمد أبو زيد أبو زيد

يحاول هذا الكتاب حل لغز طالما أرقني، وبعد البحث تبين أنه حير البشرية إذ عز ديانتها السماوية!! فأتباع كل الديانات يؤمنون بإله تحبب إلى عباده بكونه إلها رحيما حكيما عدلا، الا أن الجميع اصطدم بنصوص مقدسة، وتراث ديني هائل، ظاهره أنه لن ينجو من غضب الله في الآخرة إلا ندرة قليلة من البشرية!! إذ تبتلعهم جهنم في دركاتها، وتعذبهم إلى ما لا نهاية، ليدوم تعذيبهم بدوام الله سبحانه!!

ومما زاد من أثر الصدمة دفاع كثير من العلماء قديما وحديثا عن هذا الفهم الغريب! فحتك ليل الشبهة، واستحكمت حلقاتها، واتخذت من تشويه صورة الرحمن هدفا لها، فسرعان ما شرع الغزاة بتصويب سهام شبهاتهم إلى قلوب لما يتمكن الإيمان فيها.

فوجبت المواجهة لتبديد ليل هذه الشبهة وتعريتها، فجاء هذا الكتاب ليكون درعا تتحطم على صلابته تلك السهام، وليسبر أغوار تلك النصوص، فيؤلف بينها وبين ما عرفناه من كمال صفات الله سبحانه، وليستدل على هذه النصوص فهما، بعد انضمام ما شرد منها إلى كليات الدين وأصوله، وليضيف إلى التراث الإسلامي فائدة يندر أن تجدها في غيره.

حال البشرية في الآخرة

بين رحمة الله وغضبه

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف الدكتور محمد أبو زيد أبو زيد

الطبعة الثانية

منقحة ومزيدة

١٤٤١هـ - ٢٠١٩م

رقم الـ ISBN من اتحاد الناشرين السوريين:

978-9933-0-0691-4

تاريخ: ٢٠١٩/١٠/٢٤م

الكتاب: حال البشرية في الآخرة بين رحمة الله وغضبه

تأليف: أ.د. محمد أبو زيد

يطلب الكتاب من:

أ.د. محمد أبو زيد أبو زيد

prof.abuzaid@gmail.com

مطبعة الدار الشامية

دمشق - سورية

هاتف: ٠٠٩٦٣ ١١٢٢١٢٢٨٠

Email:Darshamia@hotmail.com

الدار الشامية للطباعة الفنية

ISBN 978-9933-0-0691-4

9 789933 006914

سِلْسِلَةُ شُبُهات وَرُدُود

٢ ـ شُبهةُ التَّشكيكِ في العَدَالة الإلهية (الشرُّ الإلهي)

اللغز الذي حيَّر البشرية!!

حالُ البشريَّة في الآخرة
بين رحمة الله وغضبه

تأليف

أ.د. محمد أبوزيد أبوزيد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه، واتبع سنته بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فهذا الكتاب تم تأليفه على غير المعهود؛ فأكثر ما أَلِفناه في مخاطبة الناس التحذير من غضب الله، والخوض في معاصيه، ونوظف لهذا الهدف أشد ما وقعت عليه العين من النصوص، وأبلغ العبارات ردعا لتكف بأس العصاة، وتزجر تطاولهم على الآثام.

أما هذا الكتاب فقد كُتب بهدف التبشير برحمة الله وفضله، ولكل مقام مقال، ففي حديث (بعث النار) الذي يشرحه هذا الكتاب، وهو:

عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبيَّ ﷺ قال لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [سورة الحج: ١ و٢] قال: أُنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر، فقال: أتدرون أيُّ يوم ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابْعَثْ بَعْثَ النار. قال: يا ربّ، وما بعثُ النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فأنشأ المسلمون **يبكون**، فقال النبيُّ ﷺ: قاربُوا وسَدِّدوا، فإنَّه لم تكن نُبُوَّة قطُّ إلا كان بين يديها جاهِليَّة، فتؤخذ العِدَّة من الجاهلية، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مَثَلُكم ومثل الأمم إلا كَمَثَلِ الرَّقْمَة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير، ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا رُبع أهل الجنة، فكبَّروا،

ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا ثُلث أهل الجنة، فكبَّروا، ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبَّروا، قال: ولا أدري: أقال الثُّلُثين، أم لا؟[1]

في هذا الحديث افتتح الرسول ﷺ كلامه بالأسلوب المعهود من التخويف؛ إلا أنّه عندما رأى أنَّ الجرعة كانت كبيرة، وأخذت منحًى سلبيا في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، حتى قنطوا، سُرْعان ما غير أسلوبه رأسا على عقب، فبشرهم بدخول الجنة تبشيرا فاق ذلك التخويف بأشواط وأشواط، حتى شعروا بقلة من سيدخل النار، فهدأت نفوسهم، وجفت دموعهم، وعادت ابتسامتهم المشرقة. بعد توقّد الآمال والهمم بدخول جنات الله من أوسع أبوابها. مع أنّ الرسول ﷺ لم يغير مما قاله شيئا!! إنما كان قد استخدم أسلوب التخويف فحسب، ثم سُرعان ما انتقل إلى حقائق رحمة الله بخلقه.. وأما كيف حصل ذلك؟ وبغير تضارب كما أشرت، فهذا ما يشرحه هذا الكتاب كاملاً.

ولما رأينا في أيامنا الوجوه تكفهر، والبشائر تضمحل، وبدأ البعض يظنون بالله الظنونا، وآخرون يستغلون جهل المسلمين ليرموا قلوبهم بسهام الشّبه الفاتكة. رأيتُ أن أتعرض لنفس الحديث، واضعا أصبعي على مكامن التبشير فيه، ليعلم الناس أنّ رحمة الله بخلقه أعظم مما يتخيلون، وأنّ رحمته هذه عمت البشر والأكوان، ما كان منها وما سيكون؛ لأنّها صفة لازمة لذاته سبحانه لا تنفك عنه.

ولعل من أسباب ضعف الشعور برحمة الله سبحانه عند البعض التربية السلبية التي اتخذت من التخويف من عقاب الله، وحرق البشر في ناره، أسلوبا تربويا للصغار والكبار، في البيوت ودور العلم والعبادة، فكانت جرعة زائدة

---

(١) سيأتي تخريجه في موضعه.

عن الحد، بينما كانت جرعة التربية على حب الله، وجميل صفاته أقرب إلى المنْسي، ولم نشعر بعواقب هذه التربية نظرا لمعيشتنا في وسط إسلامي، ولما بدأت العولمة، وتطورت وسائل التواصل، وتحطمت الحدود بين الثقافات، لم يصمد هذا الأسلوب عند الكثيرين، فتحولت تلك المواعظ إلى شبه وشكوك حول أصل الدين، وعدالة الإله.

والإشكال الذي نواجهه مع الشباب هو: كيف نملأ قلوبهم المرعوبة بالحب والثقة لمن خافت منه؟ كيف نجمع فيها الحب والخوف والرجاء؟ لتعلم أنّ الله يستحق أن يعبد، بل لا يمكن تخيل الحياة بغير الله الذي عرفناه وأحببناه، وبغير الإسلام الذي ملأ حبه عن قناعة أرجاء قلوبنا، وكذلك تقديرنا لجيل الصحابة الذين كانوا خير نموذج تطبيقي رائع لهذا الدين، فأضاءوا بفهمهم وعلو أخلاقهم وقوة إيمانهم مشارق الأرض ومغاربها.

وفي زمن الحوار هذا لم يعد في البشرية مقلد، فكثير من الناس يريدون أن يعرفوا ويفهموا كل صغيرة وكبيرة في الدين، أصولا وفروعا، وكل فتوى متطرفة أو غير متناسبة مع الواقع توظّف كمطعن في الدين، فتزداد بها جُعبة الشبهات سهما، دون تفريق بين الدين واجتهاد المجتهدين. وعليه فلا بد من العودة إلى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨]. ومن البصيرة في أيامنا هذه فهم ثقافتنا، وواقعنا بما فيه من فلسفات بدأ كثير من الناس يشعر بأنَّها تتفوق على الطرح الإسلامي من بعض جوانبه!!، ولتكون كلمة الله هي العليا لا بد من إعادة النظر في طريقة تلقي الدين وتبليغه، والغوص في نصوصه لمعرفة أسرار التشريع وفلسفته، التي تُشعر الناس **في أيامنا نحن** أنَّ كلمة الله هي العليا، كما كانت في زمن الرسول ﷺ وصحابته هي العليا.

إنَّ العبادة عندما ترتكز على مخزون من البصيرة النافذة، ترتقي بالمسلم من مجرد الاتباع خوفا من النار ومخالفة الناس، إلى الثقة والقناعة والرضا، ثم الحب للدين ولرب العالمين، ومن ثم الشعور بالاعتزاز بالله وتشريعه.

ليس من فراغ قول الرسول ﷺ: إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجَدِّد لها دينَها[1]. ومن المؤسف أن ينشغل كثير من الناس بهذا المُجدد: هل هو فرد أم جماعة؟ ومن كان المجدد في القرن كذا والقرن كذا؟! فما كان قصد الرسول ﷺ أن يُعلمنا حل الألغاز!! وإنَّما طلب منا تجديد الدين، نعم هكذا قال: (الدين)، ولا شك أنه لم يقصد تغيير الكتاب والسنة، وإنّما قصد تغيير فهم الكتاب والسنة، لتجدد معالمه فتقترب من أفهام الناس، ومن المؤكد أنَّ المقصود ليس نسف التراث الإسلامي، وإنَّما سبره لمعرفة الثابت من المتغير فيه، فلكل زمان ما يخصّه من أحكامه، والله كان ينسخ كلامَه وأحكامه بتغير الزمان، وبعض الأقوال في زماننا وتراثنا ليست أعزّ من ذلك!! وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[سورة إبراهيم: ٤].

إنّ تحديث التراث الإسلامي مطلب مهم لمخاطبة الناس بلسانهم، ولإثبات الجدارة الفكرية الفلسفية للدين الإسلامي، مما يُثبت له التفوق على فلسفات ونظريات هذا الزمان، إلا أنَّ هذا ينبغي أن يتم بأيدي المتخصصين المثقفين؛ لئلا ننزلق إلى تحريف الدين بدل تحديثه!! فإنّ الإصلاح الديني شيء.. وشرْعَنة الرذيلة والإلحاد شيء آخر! وانتقاد تاريخنا للعبرة شيء.. وتشويه جذورنا بهدف استئصالها شيء آخر! وعصرنة تراثنا شيء.. واستبداله

---

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة: رقم (٤٢٩١) في الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، وقال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط: إسناده صحيح، ورواه أيضا الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

بثقافة أخرى شيء آخر! وانتقاد علمائنا شيء.. وتسفيههم والانفراد بالنص الشرعي شيء آخر!

وألفت الانتباه إلى أنَّني حاولت جاهدا في هذا الكتاب أن أستعمل كلمة: (مؤمن وغير مؤمن) بدلا من (مسلم وكافر)، وإن كان الدين عند الله الإسلام على مر العصور، ولكن المشهور المتبادر إلى الذهن من كلمة مسلم هو مَن كان من أمة محمد ﷺ، ولما كان الكتاب يتحدث عن كل البشرية ومصيرها، كان لا بد من اللجوء إلى لفظ (مؤمن)، وطبعا المقصود: مؤمن موحّد من أتباع الرسل.

وكذلك لما كان العرف والموروث الثقافي يرى أنَّ الكافر مصيره النار، كان لا بد من استعمال كلمة: (غير مؤمن) بدلا منها، فقد أثبت هذا الكتاب أن أكثر الكفار لم تقم عليهم حجة الرسالة، ولذلك لا يمكن أن نعدهم من أهل النار.

محمد أبو زيد حسين أبو زيد

أستاذ دكتور في التفسير وعلوم القرآن الكريم

٢٣/ ١٠/ ١٤٤٠هـ الموافق: ٢٦/ ٦/ ٢٠١٩م

مدخل
ركائز عقدية بُني عليها هذا الكتاب

الركيزة الأولى: المؤمنون خالدون في الجنة

الركيزة الثانية: الجنة لا يدخلها كافر

الركيزة الثالثة: الكفار خالدون في النار ما بقيت

الركيزة الرابعة: أصحابُ الكبائر يَستحقّون النار،
ولا يُخَلّدون فيها إن دخلوها

الركيزة الخامسة العظيمة: رحمةُ الله غَلبت غضبه

الركيزة الأولى
المؤمنون خالدون في الجنة

خلود المؤمنين في الجنة من المعلومات البدهية عند أهل الأديان السماوية، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة هود: ٢٣].

ولا أريد أن أسترسل في هذا الموضوع؛ طالما أنَّه من البدهيات عند أهل الديانات السماوية، فالخلاف ليس في خلود المؤمنين في الجنة، وإنّما هو في مَن هو المؤمن مِن غيره؟ وسيأتي مزيد من التفصيل في هذا الموضوع.

والمقصود بالمؤمنين:

- **المؤمنون بحسب حكم الآخرة وليس في حكم الدنيا**؛ لأنَّ أحكام الدنيا على الظاهر، وأحكام الآخرة على القلوب والحقائق، فكم من منافق خدع المؤمنين بادعاء الإسلام، وأمرُه لا يخفى على الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨، ٩].
- **ويتبع النقطة السّابقة من يموت غير مؤمن في الدنيا، ويُحشر مع غير المؤمنين في الآخرة، ثم يؤمن قبل أن يدخل النار!! والمقصود هنا من لم تقم عليه حجة الرسالة لسبب من الأسباب، كحال أهل الفترات بين الرسل، ومن يقاس عليهم ممن عاصر الرسل ولم تصلهم دعوتهم كما ينبغي، وأولاد**

المشركين، وما أكثر هذا الصنف من البشر. ومن لم تقم عليه الحجة من البالغين يمتحنه الرّحمن في الآخرة؛ فإن نجح انضم إلى المؤمنين الفائزين بجنة الله سبحانه. وسندرس حالهم بمزيد من التفصيل لاحقا.

- كل من اتبع رسوله من زمن آدم إلى مبعث الرسول محمد ﷺ.
- ولما كان الرسول محمد ﷺ بُعث للعالمين؛ فكل من عَلم وأدرك بأنَّه فعلا مبعوث للعالمين، أو قامت عليه الحجة الدامغة فلم يستجب لها؛ فعندئذ لا ينفعه إيمانه القديم برسوله ما لم يؤمن بمحمد ﷺ؛ لأنَّ كل رسول كان يأمر قومه باتباع الرسل؛ إذ كلهم من عند الله سبحانه، وقد مكن سبحانه كلًّا منهم مما يُثبت به أنّه أنه مرسل من عند الله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٨١].

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٦]. فالمؤمن الحق لا يفرق بين الرسل والأنبياء؛ لأنَّ رسالتهم إنّما ثبتت بالإعجاز الذي لا يسع العاقل ردّه.

وعليه فتكذيب أيِّ رسول يُعد تكذيبا للجميع؛ فلا عذر لمن اتضحت له الحجة المقنعة فلم يستجب، أمّا إنْ لم تقم عليه الحجة الدامغة فهو معذور مهما كانت حاله. وسيأتي مزيد تفصيل لهذا إن شاء الله تعالى.

الركيزة الثانية
الجنة لا يدخلها كافر

عندما أهبط الله سبحانه آدم وزوجه إلى الأرض أخبرهم بأنَّه سيرسل لهم رسلا لهدايتهم، وبعد ذلك سيرجعون جميعا إليه سبحانه بطريقين: أحدهما إلى الجنة، والآخر إلى النار. قال تعالى:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٨، ٣٩].

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٣].

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [سورة المائدة: ١٢].

فالجنة وَعْد الله لعباده، وفضله العميم على الذين عرفوه، وانقادوا لأمره، واتبعوا رسله، ونصروهم وماتوا على ذلك، وهذه أمور بدهية لا نختلف فيها حتى مع أهل الديانات السماوية؛ لأنَّ الله لم يَخلق الخلق إلا ليعرفوه ويعبدوه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]، وقد جعل سبحانه وتعالى جنته لمن عرفه وعبده. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٠].

وقال رسول الله ﷺ: الجنة لا يدخلها إلا نفسٌ مُسْلمة[1].

وحتى نكون أكثر دقة في موضوع حساس كالذي نحن فيه، لابد من توضيح نقطتين:

النقطة الأولى: تعريف الكفر بشكل عام.

النقطة الثانية: التعريف بمقصدنا من الكافر في العنوان السابق:

النقطة الأولى: معنى الكفر لغة واصطلاحا

أولا: المعنى اللغوي للكفر

للكفر معنى واحدا هو الستر والتغطية، وإطلاقات كثيرة، وسنقف منها على ما يهمنا فيما نحن فيه، فالذي اتفقت عليه معاجم اللغة؛ أنَّ الكفر بمعنى التغطية والستر، وكل شيء غطى شيئا فقد كفره[2]. قال ابن فارس: (كَفَرَ) الكافُ والفَاءُ والرَّاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على معنًى واحِدٍ، وهو السَّتْرُ والتَّغْطِيَةُ. يُقالُ لِمَنْ غَطَّى دِرْعَهُ بِثَوْبٍ: قد كَفَرَ دِرْعَهُ. والمُكَفِّرُ: الرَّجلُ المُتَغَطِّي بسلاحه.

ويُقالُ لِلزَّارِعِ كَافِرٌ؛ لأنه يُغَطِّي الحَبَّ بِتُرَابِ الأرض، ومنه قوله اللهُ تعالى: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾[3]. أي الزّراع. وتبعا لذلك كان من أهم استعمالاته:

---

(١) رواه البخاري ١١/ ٣٣٥ و٣٣٦ في الرقاق، باب كيف الحشر، وفي الأيمان والنذور، كيف كانت يمين النبي ﷺ. ومسلم رقم (٢٢١) في الإيمان، كون هذه الأمة نصف أهل الجنة. والمقصود بالنفس المسلمة: كل من استجاب لدعوة الله قبل الإسلام وبعده؛ لأن الدين عند الله الإسلام.

(٢) راجع: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده. وجمهرة اللغة لأبي بكر الأزدي: (٢/ ٧٨٦). والزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر الأنباري: (١/ ١١٨). وتهذيب اللغة للأزهري : (١٠/ ١١٢). والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري الفارابي: (٢/ ٨٠٧). وتاج العروس للزبيدي (١٤/ ٥٠). ولسان العرب لابن منظور: مادة: (كفر).

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: مادة: (كفر). والآية في سورة الحديد: ٢٠.

١-الكفر: نقيض الإيمَانِ، سُمِّيَ كفرا لأَنَّه تَغْطِيَةُ الحق. وكذلك كُفْرَانُ النِّعْمَةِ: جُحُودُهَا وَسَتْرُهَا، وكل مُغطٍّ كافر، ولذلك سُمي الليل كافرا؛ لأَنَّه يستر الأشياء[١].

٢-الكُفر نقيض الشكر؛ لأَنَّه جحد نعمة كان ينبغي أن تشكر[٢]، فبجحده سترها.

٣-والكفر بمعنى البراءة كقول الله تعالى حِكَايَةً عن الشيطان في خَطِيئَتِهِ إذا دخَلَ النار: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٢]؛ أي تبرأْتُ[٣].

٤-والكافر في اللغة كذلك اسم لمن لا إيمان له[٤].

٥-قال ابن دُريد: (كافر): كأَنَّهُ فَاعل في معنى مفعول[٥]؛ لأَنَّه مغطى على قلبه.

نستخلص من المعاني السابقة أَنَّ الكفر ستر وغطاء قد يفعله الإنسان عمدا، وقد يكون وصفا لحاله من البراءة من الإيمان، من غير صدود منه وعناد، بمعنى البراءة من الإيمان، وعلى معنى اسم المفعول.

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس. والكليات لأبي البقاء الكفوي ٧٦٣. والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري الفارابي: (٢/ ٨٠٧). وتاج العروس للزبيدي (١٤/ ٥٠). ولسان العرب لابن منظور: مادة: (كفر).

(٢) انظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي. ولسان العرب لابن منظور. وتاج العروس للزبيدي: مادة: (كفر).

(٣) انظر لسان العرب لابن منظور. وتهذيب اللغة للأزهري : مادة: (كفر).

(٤) معجم الفروق اللغوية. والكليات لأبي البقاء الكفوي: مادة: (كفر).

(٥) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده: (٧/ ٤). ولسان العرب لابن منظور. وجمهرة اللغة لابن دريد الأزدي: مادة: (كفر).

ثانيا: معنى الكفر في المصطلح

الأصل في المعنى اللغوي أنَّه هو الشرعي؛ لأنَّ الدين قرآنا وسنة كله عربي، يفسَّر بالمشهور من لغة العرب الأُوَل؛ لأنَّه نزل عليهم، وخاطبهم بلغتهم. قال ابن العطار: واللغوي شرعي إلا ما عُلم أنَّ المراد خلافه، والكفر في اللغة: التغطية، والستر، والإزالة... فلا تخرج اللغة عن الشّرع إلا بالعلم بعدم الإرادة من الشارع[1].

ومن خلال استقراء النصوص الشرعية لم نجد فارقا بين المعنى اللغوي والاصطلاحي من حيث أصل المعنى، وما سبق من الاستعمالات العربية لمادة (كفر)، ومن أشهر ما قيل في معنى الكفر وأقسامه[2]:

١- كفر إنكار: ويتفرع عنه: تكذيب ورد الوحدانية والرسالة والبعث وغيرها.

٢- كفر جحود: ومنه جحود فرعون للخالق كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [سورة القصص: ٣٨]. وعادة ما يكون الجاحد عالما بما يجحده، ولكنه يكذب بسبب الكبر أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤]، ولذلك قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢].

٣- كفر عناد: وهو كمن وصلته دعوة الرسل ومعجزاتهم، فعرفها ومع ذلك لم يستجب، وهو قريب من كفر الجحود.

---

(١) الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد لابن العطار ٣٤٧. وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية: ٣٢/ ١٤٠.

(٢) راجع: لوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار السنية لمحمد السفاريني: (٢/ ٢٧١). ومجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٦/ ٣٣٢، ٧/ ١٤٦، ٧/ ٥٢٤. والإيمان لابن تيمية - ٢٥٣. ونزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي ٥١٦. وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: ٣٢٣، ٣٢٨، ٣٣٧، ٣٣٨. والكليات لأبي البقاء الكفوي ٧٦٤. والاعتصام للشاطبي: (١/ ٢٨٣).

٤-كفر إعراض: تُعرض عليهم دعوة الرسل فيتجاهلونها ويُعرضون عنها، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [سورة الكهف: ٥٧]. وقوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [سورة نوح: ٧].

٥- كفر نفاق: كمن يظهر الإيمان وهو كافر القلب.

٦-كفر النعمة: كقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [سورة البقرة: ١٥٢]، ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة االشعراء: ١٩].

٧-كفر جهل محض وغفلة بسبب اندثار الرسالة وضياع التوحيد، وهذا حال أهل الفترات الذين ماتوا بين الرُّسل، فلم يدركوا الأوّل ولا صفاء دينه، كما لم يدركوا من جاء بعده، قال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [سورة يس: ٦]، **ويلحق بهم من في حكمهم ممن لم تبلغه الدعوة مع وجود الرسول بسبب مانع ما، ومثل هؤلاء اختلف العلماء في حالهم، والصحيح ـ كما سنرى لاحقا ـ أنَّ الله لا يُعذب أحدا حتى تقوم عليه الحجة فيردها.**

وغير ذلك من الأقسام التي يمكن أن تنضوي تحت هذه، كما أنَّ هذه الأقسام تتداخل مع بعضها البعض من بعض الوجوه كذلك. وهي في مُجملها ـ ما عدا كفر النعمة ـ معنى الكفر فيها: نقيض الإيمان، وستر القلب وتغطيته عن الإيمان الحق، حتى كفر الجحود السابق، وهو ـ عادة ـ كفر من عرف الله، فكان الإيمان ناقصا لا انقياد فيه، فكأنه ستر قلبه عن لوازم هذا الإيمان، كشكر الله على هذه النعمة، وحبّ المُنعم، وغطاه دونها، ولم يستجب، فلم يكن في عداد المؤمنين. وهذا ما أكده ابن تيمية فقال: والكفر هو عدم الإيمان... فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر[1].

(١) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٣٩). وانظر: التوحيد للماتريدي: ٣٧٥.

وأكد في مكان آخر أنَّ من ضم التكذيب لعدم إيمانه كان أعظم كفرا، فقال: فإنّ الكفر: عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب، أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب، أو إعراض عن هذا كله حسدا أو كبرا، أو اتباعا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، وإن كان الكافر المكذب أعظم كفرا، وكذلك الجاحد المكذب حسدا، مع استيقان صدق الرسل[1].

إلا أنَّه بعد هذا التقسيم لأنواع غير المؤمنين، ينقسم الخلق بعد الرسول محمدﷺ إلى قسمين:

١- مؤمن بالرسول محمد ﷺ: نشهد له بالإسلام.

٢- كافر بالرسول محمد ﷺ: نشهد عليه بالكفر. وهؤلاء على أنواع كثيرة كما مرّ: قد يكون مكذبا أو معاندا، أو جاهلا، أو أي شيء آخر، المهم أنَّه لم يؤمن بالرسول محمد ﷺ وبما جاء به. وشهادتنا عليه بالكفر لا تعني أنَّه معذب في الآخرة، ما لم تقم عليه الحجة، وإنّما تعني: غير مؤمن. وقد يكون ناجيا عند الله، وقد يكون معذبا، ولهذا تفاصيل ستتضح لاحقا.

النقطة الثانية: المقصود بالكافر الذي لا يدخل الجنة

كلمة: (كافر) يشيع استعمالها عادة بمعنى: (غير المؤمن أو غير المسلم)، وفيمن لا يدخل الجنة، وفي أهل النار، وفي بعض مرتكبي الكبائر، وفي الكفر الأصغر، وكفر النعمة، واستعمالات أخرى، وعليه فيتوجب علينا تبيين **المقصود هنا من كلمة كافر، فأقول: إنّ المقصود هنا:**

- **الكافر حسب أحكام الآخرة وليس في الدنيا؛** لأنَّ الدنيا كما أسلفت الأحكام فيها على الظاهر، وأحكام الآخرة على القلوب والحقائق، فكم من إنسان قد كفّره بعض الناس من العلماء أو غيرهم خطأ، وهو عند الله سبحانه من

(١) مجموع الفتاوى: (١٢/ ٣٣٥).

المؤمنين. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ [سورة النساء: ٩٤]. فمثل هذا يدخل الجنة إن شاء الله تعالى.

وكم من إنسان نراه كافرا، والحق أنَّه آمن، وما منعه من إظهار إيمانه إلا إرهاب المجرمين وسلطانهم وقهرهم، وهذا حال الكثيرين من أتباع الرسل، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [سورة النحل: ١٠٦].

﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة غافر: ٢٨]. ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٨].

وقصص هؤلاء معروفة في قصص النبيين، وأمثالهم لا يحرمون من الجنة، ولعلهم أولى بها لما يعانونه.

- **والمقصود بالكافر هنا الكافر البالغ المُبَلَّغ الذي قامت عليه حجة الرسالة فلم يستجب، وليس غير المؤمن الجاهل كأهل الفترات، ولا أولاد الكفار. قال تعالى:** ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [سورة الإسراء: ١٥]، **وقد سبق آنفا، وسيأتي أنَّ غير المؤمنين البالغين الجهال من أهل الفترات ومن في حكمهم يُمتحنون في الآخرة؛ فمن خسر منهم هو من لا يدخل الجنة، وما أكثر غير المؤمنين الجهال الذين لم تقم عليهم الحجة كما سيأتي.**

ويجدر بنا هنا أن نميز بين قولين:

القول الأول: فلان كافر

والقول الثاني: فلان في النار

فالقول الأول: من أحكام الدنيا، وقد يكون كذلك في الآخرة وقد لا يكون! فالحكم على دين البشر وحالهم في الدنيا إنّما يكون حسب ظواهرهم، لذلك نشهد بإسلام من قال: لا إله إلا الله، مع أنَّه قد يكون منافقا، والعكس صحيح.

والقول الثاني: ليس لنا، ويحرم أن نقوله؛ بل هو من أحكام الآخرة عند الله سبحانه؛ لأنَّه المطلع على السرائر والعالِم بما في الصدور. قال تعالى: ﴿ **يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ** ﴾ [سورة التوبة: ٧٨]. ﴿ **يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ** ﴾ [سورة غافر: ١٩]. ﴿ **وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [سورة البقرة: ١٤، ١٥].

ولذلك مع قولنا بأنَّ فلانا مسلم، وفلانا كافر، لا نشهد لأحد بعينه بجنة أو نار ما لم يأت نص بذلك يخصه، فنقول مثلا: إنّ أبا لهب كافر، وهو في النار، لوُرود نص في ذلك. قال تعالى: ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ** ﴾ [سورة المسد: ١ - ٣].

ونشهد بالجنة لمن عُرفوا بالعشرة المبشرين بالجنة بأسمائهم؛ إذ ورد الحديث بذلك، فعن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: أبو بكر في الجنةِ، وعمرُ في الجنة، وعثمانُ في الجنةِ، وعليّ في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبيرُ في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بنُ عوف في الجنةِ، وأبو عُبَيْدَةَ بنُ الجرَّاح في الجنةِ، وسكت عن العاشر. قالوا: ومن هو العاشر؟ فقال سعيدُ بن زيد - يعني نَفْسَهُ[1].

---

(١) رواه أبو داود: رقم (٤٦٤٨) و (٤٦٤٩) في السنة، باب في الخلفاء، والترمذي رقم (٣٧٤٩) و(٣٧٥٨) في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة. وقال الأرناؤوط في تحقيقه لجامع الأصول: حديث صحيح. وسعد بن مالك هو سعد بن أبي وقاص.

وكل من ثبت فيه خطاب شرعي أنَّه في الجنة أو النار قلنا بذلك، وسكتنا عن الباقي لجهلنا بما في قلوبهم، وبأعذارهم وأحوالهم يوم القيامة.

قال ابن أبي العز الحنفي: لا نقول عن أحد معين من أهل القبلة إنه من أهل الجنة أو من أهل النار، إلا من أخبر الصادق ﷺ أنَّه من أهل الجنة، كالعشرة رضي الله عنهم... ولكنا نقف في الشخص المعين، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم؛ لأنَّ الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسنين، ونخاف على المسيئين... لأنَّا قد أُمرنا بالحكم بالظاهر، ونُهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم[1].

وقال ابن تيمية: نَقِفُ في الشَّخصِ المُعَيَّنِ؛ فلا نَشهدُ له بجَنَّةٍ ولا نارٍ إلَّا عن عِلمٍ؛ لأنّ حقيقة باطِنِهِ، وما مات عيه لا نُحِيطُ به، لكن نَرْجُو لِلْمُحْسِنِ، ونَخافُ على المُسِيءِ[2].

وقال الإمام أحمد: ولا نشهد على أهل القبلة بعمل يعمله بجنة ولا نار، نرجو للصالح ونخاف عليه، ونخاف على المسيء المذنب، ونرجو له رحمة الله[3].

وقال عبد الغني المقدسي: كل من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة شهدنا له، ولا نشهد لأحد غيرهم، بل نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء، ونكِل علم الخلق إلى خالقهم فالزم ـ رحمك الله[4]ـ.

وأما النصوص التي قالت: إنّ الكفار في النار، والمؤمنين في الجنة.

---

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: ٣٧٨.

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية: (٥/ ٢٩٥). وانظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم: (٢/ ١٠٧٨).

(٣) أصول السنة لأحمد بن حنبل: ٥٠. وانظر: الجامع لعلوم الإمام أحمد ـ العقيدة: (٤/ ٣٦٢).

(٤) الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي: ٢٠٥. وانظر: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة لحياة جبريل: (١/ ٥٧٩).

فهذه عموميات في فرز الناس في الآخرة حسب الاسم العام. فلا شك أَنَّ المؤمنين في الجنة، والكفار في النار حسب الظاهر، وهذا إجمال، وأما على وجه التفصيل فقد يكون بعضُ من شهدنا له بالإيمان في الدنيا كافرًا في النار، وبعضُ من شهدنا له بالكفر في الدنيا في الجنة؛ لأمر يخصه يعلمه الله ويخفى علينا.

- كل من أدرك رسوله وأقيمت عليه حجته، وكفر به من زمن آدم وإلى مبعث الرسول محمد ﷺ.

الركيزة الثالثة

الكفار خالدون في النار ما بقيت

عرفنا أنَّ غير المؤمنين البالغين قسمان: القسم الأعظم: وهو الذي لم تقم عليه حجة الرسالة، وبينا ـ وسيأتي المزيد ـ أنَّ هؤلاء يمتحنون يوم القيامة، فمن خسر الامتحان يُخلد في عذاب جهنم. والقسم الأقل: وهو من أقيمت عليه الحجة فلم يستجب. وهؤلاء أيضا خالدون في جهنم، ولكن:

– هناك مسألة عظيمة هابها العلماء: هل النار بنفسها خالدة لا تفنى؟ أم أنَّها تفنى بعد أن ينال الكفار حظهم من العذاب المقدّر لهم؟ وأيهما يليق برحمة الله التي غلبت غضبه؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [سورة النبأ: ٢١ – ٢٣]. والأحقاب قيل ٨٠ سنة وقيل غير ذلك، والمهم أنَّها عدد مجموع! ومهما كان هذا الجمع كبيرا لا بد من يوم ينتهي فيه. وقيل: لا نهاية لها. هذا ما سندرسه ببعض التفصيل في المحور الثاني.

ـ الكفار في النار يعذبون، ولكن ليس بنفس المستوى من العذاب جميعا، فطالما اختلفت أعمالهم وأخلاقهم وقلوبهم وممارساتهم في الدنيا، لا بد أن تختلف دركاتهم في الآخرة، وقد نبّه سبحانه على هذا الميزان الدقيق فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: ٧، ٨]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٤٠].

ولما كان المنافقون من أسوأ الكفار أخبرنا سبحانه بأنَّه جعلهم في أسفل النار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٤٥].

وأخبرنا سبحانه بأنَّ المائدة التي أنزلها على قوم عيسى عليه السلام سيعذب من يكفر بعدها عذابا هو الأشد والأقسى فقال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة المائدة: ١١٥].

كما أخبرنا سبحانه بأنَّه يعذب آخرين في أماكن ضيقة جدا فقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [سورة الفرقان: ١٣]. ثم نجد أنَّه سبحانه قد صرّح بأنَّ كلَّ من في النار له عذاب يتناسب مع حاله، وإن كان من بجانبه لا علم له بهذه الحقيقة فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٨].

وثبت التمايز في عذاب جهنم في السنة النبوية في مسألة عم الرسول ﷺ، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ وذُكر عنده عمُّه أبو طالب - فقال: لَعَلَّهُ تَنْفَعُه شَفَاعَتي يَوْمَ القِيامَةِ، يُجعل في ضَحْضَاح مِن نار، يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغلي منه أمُّ دِمَاغه[1]. والضحضاح القليل من الماء. فشبه الرسول ﷺ به القليل من النار الذي يَمسّ قدمي أبي طالب، دون باقي جسمه.

---

(١) رواه البخاري: ٧ / ١٤٩ في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قصة أبي طالب، وفي الرقاق، باب صفة الجنة والنار. ومسلم رقم (٢١٠) في الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه.

الركيزة الرابعة
أصحابُ الكبائر يَستحقّون النار ولا يُخَلّدون فيها إن دخلوها

أصحاب الذنوب الكبيرة التي توَعّد الشرع عليها بالعقوبة، استحقوا النار بما ارتكبوا من هذه الكبائر، ووقعوا تحت وعيد الله سبحانه؛ إلا أنّهم مؤمنون لا نكفرهم بكبيرتهم، فهم قد خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، يستحقون العذاب بوقوعهم تحت الوعيد، إلا أنَّه ليس بلازم، وأمرهم إليه سبحانه، إن شاء أنفذ فيهم وعيده، وعذبهم على قدر ذنبهم، ثم أخرجهم إلى الجنة، وإن شاء غفر لهم.

عن أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - قال: خرجتُ ليلة من الليالي، فإذا رسولُ الله ﷺ يمشي وحده، ليس معه إنسان، قال: فظنَنتُ أنَّه يكره أن يمشيَ معه أحد، قال: فجعلتُ أمشي في ظل القمر، فالتفتَ فرآني، فقال: مَن هذا؟ فقلت: أبو ذر، جعلني الله فِداك، قال: يا أبا ذر، تَعَالَهْ، قال: فمشيتُ معه ساعة، فقال: إن المُكْثِرينَ هم المُقِلُّون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيراً، فنفح فيه عن يمينه، وشماله، وبين يديه، ووراءه، وعمل فيه خيراً، قال: فمشَيْتُ معه ساعة، فقال لي: اجلس هاهنا، حتى أرْجِع إليك، قال: فأجْلَسَني في قَاع حوله حجارة، فقال لي: اجلس هاهنا، حتى أرجع إليك، قال: فانطلق في الحرَّة، حتى لا أراه، فَلَبِثَ عني، فأطال اللُّبثَ، ثم إني سمعتُه يقول وهو مُقبل: وإن سرق، وإن زنى؟ قال: فلما جاء لم أصْبِرْ، فقلت: يا نبيَّ الله جعلني الله فداك، مَن تُكلِّمُ في جانب الحرَّة، ما سمعتُ أحداً يرجع إليك شيئاً؟ قال: ذاك جبريل، عرض لي في جانب الحرة، فقال: بَشِّرْ أمَّتك أنَّه مَن مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل

الجنة، فقلتُ: يا جبريل، وإن سرق، وإن زنى؟ قال: نعم. قلتُ: يا رسولَ الله، وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، قال: قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر[١].

قال أبو الحسين العمراني: ومذهب أهل السنة أنَّ الموحدين لا يكفرون بفعل شيء من المعاصي الصغائر والكبائر، وإذا عملوا الكبائر وتابوا لم تضرّهم، وإن ماتوا قبل التوبة منها فأمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم عليها، وإن شاء غفرها لهم[٢].

وقال ابن أبي العز الحنفي: فالمشركُ لا ترجى له المغفرة؛ لأنَّ الله نفى عنه المغفرة، وما سواه من الذنوب في مشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه[٣]. وقيل طالما أنَّهم استوجبوا النار بذنوبهم يُعرضون عليها، ويتركون فيها بقدر ما تقتضيه ذنوبهم، ويجوز أن يُصرفوا عن طريق جهنم بالشفاعة[٤].

---

(١) رواه البخاري: ١١/ ٢٢٢ و ٢٢٣ في الرقاق، باب المكثرون هم المقلون، وباب قول النبي ﷺ: «ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً». ومسلم رقم (٩٤) في الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً لم يدخل الجنة.

(٢) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار لأبي الحسين العمراني: (٣/ ٦٦٦). وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٦/ ١٧٥).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: ٣٢٦. وانظر: اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم: (٢/ ١٧٧).

(٤) شرح المصابيح لابن الملك: ٦/ ١٨.

الركيزة الخامسة العظيمة
رحمةُ اللّهِ غَلبت غضبه

الرحمة كما عرفها الجرجاني: إرادة إيصال الخير[١]. وقيل: هي إفاضة الخير وإرادة إيصاله[٢]. وقريب من هذا تعريف ابن الجوزي لها بأنَّها: النعمة على المُحتاج[٣]. وقيل: الإحسان إلى المحروم[٤].

وقد وردت (الرحمة) في القرآن الكريم حسب اشتقاقاتها أكثر من ٣٣٢ مرة، غير ما هو قريب منها مثل: النعمة والرأفة والعفو والمغفرة[٥]. والظاهر من هذه التعاريف أنها تناولت لوازم الرحمة لا عينها، وأما الرحمة كمدلول لغوي فهي كما قال ابن فارس: (الراء والحاء والميم) أصلٌ واحد يدلّ على الرّقة والعطف والرّأفة[٦].

---

(١) التعريفات للجرجاني: ١٤٦.

(٢) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون لأحمد نكري: ٢/ ٩٥.

(٣) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي: ٣٣١.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: ٣٦٠.

(٥) كتاب: خطاب الرحمة في الخطاب القرآني- محمد زرمان: ٢٥، و١٦٦. بحوث المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام، جامعة الملك سعود.

(٦) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٢/ ٤٩٨)

مقام الرحمة الإلهية

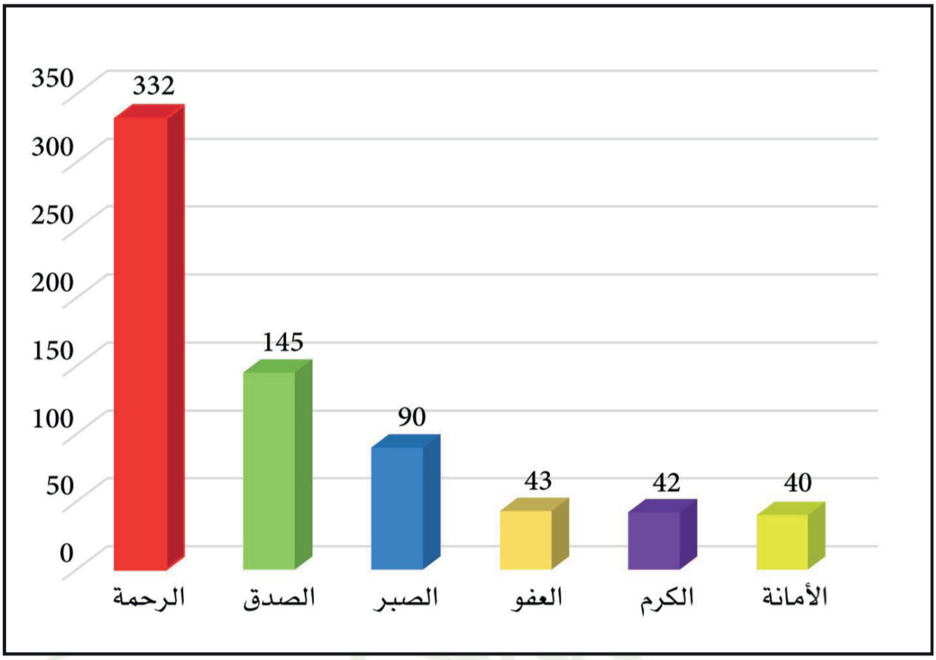

وقد ثبت أنَّ الرحمة من أعظم صفات الله سبحانه وتعالى، وهي صفة لذاته، لازمة له، وبهذه الصفة أحب الله سبحانه أن يُعرِّف به الأنبياءُ أقوامَهم، قال تعالى مخاطبا لرسوله محمد ﷺ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الحجر: ٤٩]، بل أخبر شعيب قومه أنَّ الله سبحانه يجمع بين الرحمة والود، فقد أخبرنا القرآن أنَّه قال لهم: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [سورة هود: ٩٠]. كما اقترنت الرحمة بالمغفرة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨]. قال ابن القيم: وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإنّ الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يُحبه، وكذلك قد يرحمُ من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه، ويحبه مع ذلك، فإنّه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان منه ما كان[١].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم: ٩٣.

بل جعل سبحانه اسم (الرحمن) نظيرا للفظ الجلالة: (الله) فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: ١١٠]. قال الجوهري: فعادَل به الاسم الذي لا يُشركه فيه غيره[1].

ولمركزية الرحمة في هذا الوجود وصف سبحانه بها كتابه الذي أنزله للناس رحمة فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٢]. بل افتتح كلَّ سورة في كتاب تعاليمه للناس (القرآن) بالرحمن الرحيم، مع أنَّ من يؤلف كتابا أو بحثا أو يفعل شيئا يكتفي بالبسملة في أوله فحسب، والله كررها في سور كتابه، وكأنه يقول للشّراح: فسروا كلامي للعباد من خلال افتتاحيتها الأولى: (الرحمن الرحيم)، ولا تشوّهوا صورتي بسوء فهمكم، فتصدوا الناس عن سبيلي!!

وكذلك وصف سبحانه الرسول بالرحمة فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧].

فالله هو الرحمن الرحيم، وكتابه رحمة، ورسوله رحمة، **فمن أين يأتي الشّر لدين الله حسب قول الطرف الثاني؟!!**

والجواب: يأتي من نقطتين:

١- من سوء ظن الطرف الثاني بربه، وسوء فهمه لدين الله وجهله به، مع ظنه بأنَّه على علم فيما يقول، وهذا من الجهل المركّب وهو أقبح أنواع الجهل، فالجهل البسيط: أن يجهل الإنسان شيئا وهو ملتفت إلى جهله، فيعلم أنَّه لا يعلم، كجهلنا بوجود السكان في المريخ، فإنّا نجهل ذلك، ونعلم بجهلنا، فليس لنا إلا جهل واحد.

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري الفارابي: (٥/ ١٩٢٩).

والجهل المركب: أن يجهل شيئا وهو غير ملتفت إلى أنَّه جاهل به، بل يعتقد أنَّه من أهل العلم به، فلا يعلم أنَّه لا يعلم، كأهل الاعتقادات الفاسدة الذين يحسَبون أنَّهم عالمون بالحقائق، وهم جاهلون بها في الواقع. ويسمون هذا مركبا؛ لأنَّه يتركب من جهلين: الجهل بالواقع، والجهل بهذا الجهل. وهو أقبح وأهجن القسمين[1].

وقال ابن القيم في قصيدته النونية:

وتـعَـرّ مـن ثوبين مـن يلبسهما	يلقى الـرّدى بـمـذمّة وهَــوانِ
ثـوب من الجهل المركب فوقه	ثـوبُ التعصّب بئست الثوبان
وتـحـلّ بـالإنـصـاف أفـخـر حُلة	زينت بها الأعطاف والكتفان[2]

٢ ـ من أفهام بعض من يتكلم باسم الدين، وهو لا يفهم مقاصد التشريع وأسراره وتطبيقاته، وغير عارف بواقع الناس!!.

قال القرافي: العلم وضبط الشريعة وإن كان فرض كفاية، غير أنَّه يتعين له طائفة من الناس، وهي مَن جاد حِفظُهم، ورق فهمُهم، وحسنت سيرتهم، وطابت سريرتهم، فهؤلاء هم الذين يتعين عليهم الاشتغال بالعلم، فإنّ عديم الحفظ أو قليله أو سيئ الفهم، لا يصلح لضبط الشريعة المحمدية، وكذلك من ساءت سيرته، لا يحصل به الوُثوق للعامة، فلا تحصل به مصلحة التقليد فتضيع أحوال الناس[3].

وقال ابن القيم: فإنَّ الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وأَسَاسها على الحِكَم ومَصَالِحِ الْعِبَادِ في المَعَاشِ والمَعَادِ، وهي عَدْلٌ كُلّهَا، ورحمة كلها، ومَصالِحُ كلها، وحِكْمَةٌ

(١) المنطق - محمد رضا المظفر: ١٩-٢٠.

(٢) نونية ابن القيم = الكافية الشافية: ١٧.

(٣) الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق: (١/ ١٤٦).

كلها؛ فكل مسألةٍ خرجت عن العَدْلِ إلى الجَوْرِ، وعن الرحمة إلى ضدِّها، وعن المصحلة إلى المَفسدةِ، وعن الحِكمَةِ إلى العبث؛ **فليستْ مِن الشَّرِيعَةِ وإنْ أُدْخِلَتْ فيها بالتَّأويلِ**؛ فالشَّرِيعَةُ عَدْلُ اللَّهِ بَيْنَ عِبادِهِ، ورَحْمَتُهُ بين خَلقِهِ، وظِلُّهُ في أرْضِهِ، وحِكْمَتُهُ الدَّالَّةُ عليه وعلى صِدْقِ رسولِهِ ﷺ أتَمَّ دَلالَة وأصْدَقهَا، وهي نُورُهُ الَّذي به أبْصَرَ المُبْصِرُونَ، وهُدَاهُ الذي به اهْتَدَى المُهْتدونَ، وشِفاؤهُ التَّام الذي به دَوَاءُ كلِّ عَلِيلٍ، وطرِيقُهُ المُسْتَقِيمُ الذي مَنْ اسْتقامَ عليه فقد اسْتقام(١).

وبما أنَّ الرحمة صفةٌ لذات الله، فهي لكل من خلق الله، فكل ما يتعلق بالله من قول أو فعل لا بد فيه رحمة ما، سواء ظهرت للعيان أم خفيت. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: لما قَضَى اللهُ الخَلْقَ كتب في كتابه، فهو عنده فوقَ العرش: إنَّ رَحْمَتي غلبت غَضبي(٢). **هذا الحديث يُعدّ من القواعد الكُلّية العَقديّة**، والقواعد الكلية ثابتة أعظم ثبات، فقد ثبتت بأصول عقلية قطعية لا تستجيز أن يكون الإله ظالما، أو أقل رحمة من خلقه، وكذلك "ثابتة بالاستقْرَاءِ الْكُلِّي مِن مئات الأدلَّةِ الشَّرعيَّة، وهي ثابتة لا تزول، وحاكمة غير محكوم عليها، وسائِرُ الْفُرُوعِ مُسْتَنِدَةٌ إليها، وهذه الكليات هي القائمة على حفظ الدين، وحمايته من التحريف والتبديل(٣).

وعليه فيصطبغ بهذه الكلية الدين، وتُعدّ من صفاته الأساسية، **ولا يمكن أن يُبطلها نص مفرد يتناقض معها، بل يجب أن يؤيدها، فإن ظهر خلاف ذلك فلا بُدّ أن يكون لهذا النص - إن صحّ - معنى ما، أو تأويل ما، ينضوي فيه تحت هذه الكلية.**

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم: (٣/ ١١).

(٢) رواه البخاري: ١٣/ ٣٢٥ في التوحيد، باب قول الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، وباب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. ومسلم رقم (٢٧٥١) في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

(٣) راجع: الموافقات للشاطبي: ١/ ١٨، ٢٠، ١٠٨.

بل ينضوي تحتها كل شيء في خلق الله، وليس في دينه فحسب! فقد ختم سبحانه خلق الأكوان وتقديره لها بعبارة أخذت شكل الختم الذي يوضع في نهاية الخطاب: (رحمتي غلبت غضبي)، ولم يكتف سبحانه بهذا حتى أعلمنا أنَّ هذه العبارة كتبها كتابة، وليس قولا فقط، وأنَّ هذا الكتاب المذيل بهذه العبارة تم وضعه في أعز مكان في الوجود، وهو فوق عرش الرحمن، ومن هناك تُطل على الأكوان رحمةُ الله، لتكون لها الغلبة على كل شيء، حتى على غضبه سبحانه!!

قال ابن القيم: ولهذا يَقرِن سبحانه استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرا، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [سورة الفرقان: ٥٩]، فاستوى على عرشه باسم الرحمن؛ لأنَّ العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء[١]. قال الطبري: يقول: ورحمتي عمَّت خلقي كلهم[٢]. وقال ابن كثير: آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخبارا عن حملة العرش ومن حوله أنَّهم يقولون[٣]: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [سورة غافر: ٧].

وما الرحمة التي يتراحم بها الخلق إلا جزء يسير جدا من رحمة الله سبحانه، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إن الله

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم: (١/ ٥٧).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٣/ ١٥٦).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٨١).

مائةَ رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجنِّ والإنس والبهائم والهوامِّ، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تَعْطِفُ الوَحْشُ على ولدها، وأَخَّرَ اللهُ تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عبادَهُ يومَ القيامةِ[1].

وفي صحيح مسلم: حتى هذه الرحمة الواحدة التي أنزلها سبحانه للأرض ترجع إليه يوم القيامة لتكمل المئة[2]. وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قُدِمَ على رسولِ الله ﷺ بِسَبْيٍ، فإذا امرأةٌ مِن السَّبْيِ تَسعى، قد تَحَلَّبَ ثَديُها، إذا وجدت صَبياً في السَّبي أخذَتْه، فألْزَقَتْه ببطنها فأرضعتْه، فقال رسولُ الله ﷺ: أتَرَونَ هذه المرأةَ طارِحَة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله. فقال رسولُ الله ﷺ: الله أرحَمُ بعباده من هذه المرأة بوَلَدِها[3].

وقال أبو عبد الله الحميدي[4]: ومَن نظر إلى قانون الشرع رأى أنَّ ميله إلى جانب الرحمة أكثر، وأنَّ تغليبه جانب الرجاء في الجملة أظهر، ولذلك لما قال سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [سورة غافر: ٣]، وقال: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ على جهة التخويف للمذنبين، لم يكتف بذلك حتى قال: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ ليغلب رجاء المذنب خوفه، كي لا يقع في القنوط. فحصل قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ بين صفات:

---

(١) رواه البخاري: ١٠ / ٣٦٢ في الأدب، باب جعل الله الرحمة في مائة جزء، وفي الرقاق، باب الرجاء مع الخوف. ومسلم رقم (٢٧٥٢) في التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه. واللفظ لمسلم.

(٢) عن سلمان الفارسي: رقم (٢٧٥٣) في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

(٣) رواه البخاري ١٠ / ٣٦٠ و ٣٦١ في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ومسلم رقم (٢٧٥٤) في الفضائل، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

(٤) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: (١٤/ ١٥٧): هو الإمام القدوة الأثري، المتقن الحافظ، شيخ المحدثين، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح، الأزدي، الحميدي، الأندلسي؛ الفقيه الظاهري، صاحب ابن حزم وتلميذه، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ.

إحداها: أنَّه تعالى غافر الذنب. والثانية: أنَّه قابل التوب. وما ذاك إلا للطفه سبحانه بعباده، وحنانه عليهم. والثالثة: أنَّه ذو الطول، وهي صفة الفضل والإحسان الزائدة على صفة الغفران[1].

وبهذه الرحمة أنزل الله الكتب وأرسل الرسل، ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن ضِيق الدنيا إلى سعة الآخرة، فهو الذي يُدخل المؤمنين برحمته جنته. ونادى سبحانه عباده قائلا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر: ٥٣].

أكتفي بهذا القدر من التأسيس للدخول في صلب الموضوع، وهو الرد على من طعن بالعدالة الإلهية حتى قيل: (الشر الإلهي)، والرد سيكون من خلال دراسة حديث **بعث النار** الذي فيه: مقابل كل ١ إلى الجنة ٩٩٩ إلى النار، وسأدرسه دراسةً تفصيليةً تحليلية، مقارنة مع باقي نصوص الشريعة وأصولها، وسيشتمل هذا الرد على أغلب الشبهات التي تثار حول هذه المسألة بإذن الله. وسأتناول هذا الحديث وتوابعه، وما يتعلق به من خلال ثلاثة محاور، وبالله التوفيق.

---

(١) مراتب الجزاء يوم القيامة: وهو مطبوع مع: تحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمآل لعقيل بن عطية وأبو عبد الله الحميدي: (١/ ٣٣٩).

المحور الأول
حديث (بعث النار)
وأثرُه على العدالة الإلهية

حديث بعث النار يُعد أقوى دليل عند من يطعنون في العدالة الإلهية ويصفونها بـ(الشر الإلهي). ويستدلون كذلك بآيات كريمة ساء فهمهم لها، كما ساء فهمهم للحديث الشريف، وسأقوم بدراسة الحديث دراسة تحليلية تفصيلية، لتبيين أماكن الخلل في فهم الطرف الثاني، وسطحية فهمه للحديث، فأما سوء فهمهم فتابع لسوء تصورهم عن الشريعة والدين الإسلامي بشكل عام، ومن كان هذا حاله قد يتعثر في فهم نصوص سهلة واضحة، فكيف لا يتعثر في فهم حديث حارَ العلماء قديما وحديثا في فهمه؟

وأما الآيات القرآنية التي استدلوا بها على تشويه العدالة الإلهية، فسأتعرض لها تباعا أثناء دراسة الحديث الشريف.

حدِيْث بَعْثِ النار

١. عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - أنَّ النبيَّ ﷺ قال لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [سورة الحج: ١و٢] قال: أُنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر، فقال: أتدرون أيُّ يوم ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابْعَثْ بَعْثَ النار. قال: يا ربّ، وما بعثُ النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فأنشأ المسلمون **يبكون**، فقال النبيُّ ﷺ: قاربُوا وسَدِّدوا، فإنَّه لم تكن نُبُوَّة قطُّ إلا كان بين يديها جاهِليَّة، فتؤخذ العِدَّة من الجاهلية، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مَثَلُكم ومثل الأمم إلا كَمَثَلِ الرَّقْمَة[1] في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير، ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا رُبع أهل الجنة، فكبَّروا، ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا ثُلث أهل الجنة، فكبَّروا، ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبَّروا، قال: ولا أدري: أقال الثُّلُثين، أم لا؟

وفي رواية قال: كنا مع النبيِّ ﷺ في سفر، فتفاوت أصحابه في السّير، فرفع رسولُ الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ - إلى قوله - ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فلما سمع ذلك أصحابُه حثُّوا المطيَّ[2]، وعرفوا أنَّه عند قولٍ يقوله، فقال:

---

(١) الرَّقْمَةُ هُنا: الهَنَة الناتِئة فِي ذِراع الدابة من داخِل، وهما رَقْمَتَانِ في ذراعَيها. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٥٤).

(٢) يعني الإبل وكل ما يُمتطى.

أتدرون أيّ يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يومٌ ينادي الله فيه آدم، فيناديه ربه، فيقول: يا آدم، ابعثْ بعثَ النار، فيقول: أيْ ربّ، وما بعثُ النار؟ فيقول: من كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، **فيَئِس القوم** حتى ما أبْدَوْا بضاحكة، فلما رأى رسولُ الله ﷺ الذي بأصحابه، قال: اعْمَلوا وأبْشِرُوا، فوالذي نفس محمد بيده، إنّكم لَمَع خَلِيقَتَيْن، ما كانتا مع شيء إلا كثَّرتاه - يأجوج ومأجوج، ومن مات مِن بني آدم، ومِن بني إبليس - فسُرِّي عن القوم بعضُ الذي يجدون، قال: اعملوا وأبْشِروا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشَّامة في جنب البعير، أو كالرَّقّمَةِ في ذراع الدابة(١).

٢. عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال النبيُّ ﷺ: يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لَبَّيْك وسعديك والخيرُ في يديك، فيُنادَى بصوت: إنّ الله يأمركَ أن تُخْرِجَ من ذُرِّيَّتِك بَعْثاً إلى النار، قال: يا رب، وما بَعثُ النار؟ قال: من كل ألف تسعُمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تَضَعُ الحامل حملَها، ويشيبُ الوليدُ ﴿**وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ**﴾ [سورة الحج: ٢] فشقَّ ذلك على الناس حتى **تغيَّرت وجوههم**.

زاد بعضُ الرواة: قالوا: يا رسول الله، **أيُّنا ذلك الرجل**؟ فقال رسولُ الله : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد - ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي: رقم (٣١٦٨) في التفسير، باب ومن سورة الحج، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري: ٨ / ٣٣٥ في تفسير سورة الحج، باب قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، وفي الأنبياء، =

٣. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله :... يُنفخ في الصور، فلا يسمعه أحدٌ إلا أصغى لِيْتاً[١]، ورفعَ ليتا، فأول من يسمعه: رجلٌ يَلُوطُ حوضَ[٢] إبِلِه فيصْعَق، ويُصْعَقُ الناس، قال: ثم يُنزل الله مطراً كأنَّه الطَّلّ[٣]، فينبتُ منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلُمُّوا إلى ربكم ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [سورة الصافات: ٢٤]، ثم يقال لهم: أخرجوا بعثَ النار، فيقال: مِنْ كم؟ فيقال: من كل ألف تسعَمَائة وتسعة وتسعين، قال: فذاك يومَ يجعل الولدان شيباً، وذلك ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾[٤].

٤. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ النبيَّ ﷺ قال: أولُ مَنْ يُدْعَى يوم القيامة آدمُ عليه السلام، فتراءى ذرِّيتُه، فيقال لهم: هذا أبوكم آدمُ؟ فيقول: لَبَّيْكَ وسعْدَيْكَ، فيقول: أخْرِجْ بَعْثَ جهنم من ذُرِّيتك، فيقول: يا ربِّ كم أُخرِجُ؟ فيقول: أخرج من كلِّ مائة تسعة وتسعين، فقالوا: يا رسول الله، إذا أخذَ مِنَّا من كل مائة تسعة وتسعون، **فماذا يبقى مِنَّا**؟ قال: إنَّ أمَّتي في الأمم كالشعرَةِ البيضاء في الثور الأسود[٥].

حديث (بعث النار) السابق كان ولا يزال فيه تجاذب كبير بين العلماء، لما

= باب قصة يأجوج ومأجوج، وفي الرقاق، باب قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾. ومسلم رقم (٢٢٢) في الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من ألف تسعمائة وتسعة وتسعين».

(١) اللِّيت: صفحة العنق، وإصغاؤه: إمالتُه. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير.

(٢) يلوط: يُطيّنه ويصلحه. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير.

(٣) الطل: النَّدى الذي ينزل من السماء في الصحو: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير.

(٤) أخرجه مسلم: رقم (٢٩٤٠) في الفتن، باب خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه.

(٥) البخاري: ١١ / ٣٣٦ في الرقاق، باب الحشر.

في ظاهره من معنى صادم وغير متوقع! واحد إلى الجنة و٩٩٩ إلى النار!! إذ يحاصر النفوس اليأس بعد أن شعرت بضحالة فرص النجاة، وكأنَّها أيقنت بمصيرها المرعب!! وكأنَّها تنظر إلى جهنم وهي تتميز من الغيظ، تشوي لحومهم وتقطع أشلاءهم في عذاب سرمدي يزداد سعيرا يوما بعد يوم!! وهذه الصدمة العارمة والمحبطة بسبب هذا الحديث تحصل عند كل من يقرؤه! ولعلها كانت سببا في ردّة كثير من ضعفاء الإيمان، ممن يعبد الله على حرف، ولم يُحسن الظن بربه!! ومن هذه الصدمات الكبيرة أذكر صدمتين مهمتين لأثرهما في الاستدلال على ما أريد:

١ـ الصدمة الأولى عند تبليغ الرسول ﷺ هذا الحديث لصحابته

فلو رجعنا لتلك الروايات لحزنّا من رَدة فعل الصحابة المؤلمة:

- ففي رواية عمران بن حصين – رضي الله عنه – أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابْعَثْ بَعْثَ النار، قال: يا ربّ، وما بعثُ النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، **فأنشأ المسلمون يبكون**... وفي رواية: **فيَئِس القوم حتى ما أَبْدَوْا بضاحكة**. وفي رواية أبي سعيد الخدري: **فشقَّ ذلك على الناس حتى تغيَّرت وجوههم**. زاد بعضُ الرواة: قالوا: يا رسول الله، **أيُّنا ذلك الرجل**؟. وفي رواية أبي هريرة: فقالوا: يا رسول الله، إذا أخذَ مِنَّا من كل مائة تسعة وتسعون، **فماذا يبقى مِنَّا**؟

واضح أنَّ الصحابة -رضي الله عنهم- أحبطوا، بل يئسوا! فاكفهرت الوجوه، وغابت الابتسامات، وذرفت العيون، وشعروا – رضي الله عنهم- أنَّهم إلى هلاك محتوم، على الرغم من كل ما قدموا لأنفسهم، وضحوا به لأجل هذا الدين بالغالي والنفيس!!

٢ـ الصدمة الثانية: عند تطبيق هذا الحديث في عرَصات يوم القيامة

فقد حدثنا الرسول ﷺ عن أهوال الزلزلة والمحشر وأحداثها المرعبة، ومن أحداثها هذا الحديث المرعب، فقد مر معنا في حديث بعث النار قول الرسول ﷺ: «ثم يقال لهم: أخرجوا بعثَ النار، فيقال: مِنْ كم؟ فيقال: من كل ألف تسعَمَائة وتسعة وتسعين، قال: فذاك يومَ يجعل الولدان شيباً».

وفي ذلك اليوم الذي تحدّث عنه الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [سورة الحج: ٢]. أهوال لا يطيقها البشر ولا الحجر! تشيب منها الولدان وتضع كل ذات حمل حملها، والناس تبحث عن شعرة أمل تتعلق بها، وتجوب أرجاء المحشر باحثة عن شفاعة أو سبب للنجاة، فيقرع أسماعهم في ذلك الموقف المهيب، هذا النداء المُدوّي الموجه إلى أهل المحشر، لكل من عاصر آدم وإلى قيام الساعة: من كل ١٠٠٠ واحد إلى بعث الجنة و٩٩٩ إلى بعث النار!!

بل رواية أبي سعيد السابقة تنص على أنَّ الطفل يشيب، وتضع كل ذات حمل حملها عند النداء بحديث بعث النار تحديدا: فقد جاء في الرواية:

يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يوم القيامة: يا آدمُ، فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخيْرُ في يَدَيْكَ، فينادي بصوت: إنّ الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار، قال: يارب، وَمَا بَعْثُ النَّارِ، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قال: فحينئذ تضع الحامل حملها، ويَشِيبُ الوليد، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1]. قال علي القاري: عند هذا الحكم يشيب

(١) مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين: (١٧/ ٣٨٤). وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وانظر: الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ١١١). والمسند المستخرج على صحيح مسلم لأبي نعيم (١/ ٢٨٨). وشرح السنة للبغوي (١٥/ ١٣٩).

الصغير من الحزن الكثير، والهم الكبير[1]. وقال بدر الدين العيني: فعند قول الله تعالى عز وَجل لآدَم، عليه الصلاة والسَّلام: أخرج بعث النَّار يشيب الصَّغِير من الهول والشدة[2].

ولأهمية هذا الحديث وما يلقيه ظاهره من ظلال تُخل بما عرّفنا الله به عن رحمته الواسعة التي غلبت غضبه، كان لا بد من التأمل فيه بعمق، والرجوع إلى أقوال العلماء لنرى إضاءاتهم حوله، وقد وجدت أنَّ أغلبية العلماء لم يأخذوا هذا الحديث على ظاهره، وتأوّلوه على تأويلات، بل يصعب أن تجد عالما يُعتد به يأخذ هذا الحديث على ظاهره، بمعنى أن يقول: إنّ هذا الفرز الذي فرزه آدم لبعث النار، سيدخل جهنم كما هو، وأنَّ الباقي سيدخل الجنة كما هو، وانتهى التقسيم والفرز!! ولمزيد من التأكيد على هذا المعنى، سأذكر أدلة لا مجال لردها في أنَّ هذا الحديث ليس على ظاهره، فقد تبين من مناقشة أكثر العلماء[3]

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري: (٨/ ٣٥١٧). وانظر: منحة الباري بشرح = صحيح البخاري لأبي يحيى السنيكي: (٦/ ٤٣٠). والنظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح لابن عاشور: ١٠٤.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (١٥/ ٢٣٩). وانظر: شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: (٥/ ٣٤٠).

(٣) راجع: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري للكرماني: (٢٣/ ٣٨). شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٧/ ٢٤٥). واللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح للبرماوي: (١٦/ ٤١). ومنحة الباري بشرح صحيح البخاري لأبي يحيى السنيكي (٩/ ٤٨٨). وعمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٢٣/ ١٠٩). وفتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٨٩). وانظر: شرح النووي على مسلم (٣/ ٩٧). وتحفة الأحوذي (٩/ ٨). والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للساعاتي (١٨/ ٢١٢). وفتح المنعم شرح صحيح مسلم لموسى شاهين (٢/ ٧٣). والكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم لمحمد الهرري: (٥/ ١٥٩). والبحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد الولوي: (٥/ ٥٥٣). والكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري للكوراني(١٠/ ١٩٣).

لمكونات هذا الفرز، أنَّه يستحيل أن يُكمل طريقه إلى جهنم بهذه المكونات، وهذه الكميات الهائلة!! وسيتضح هذا من خلال العرض الآتي؛ الذي يُظهر المحطات والمنعطفات التي تُغَيَّر فيها أكثر مكوناته اتجاهها، فتنعطف نحو الجنة من خلال فرز ثان وثالث ورابع للبشرية كما سيأتي، ومن أهم الأدلة على أنَّ هذا البعث ليس على ظاهره:

١- سبق في الركائز العقدية عند الحديث عن كلية: (رحمتي غلبت غضبي) أن بينت بأنَّ هذه الكلمات ثبتت بنص الحديث الشريف، وبالمعنى بكم كبير من النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، كما أنَّها ثابتة عقلا، فلا يعقل أن يغلب غضب الإله الحق رحمته! مما حوَّلها إلى ما يسمى في الأصول: (كُلّية) وعليه فلو تناقض معها حديث لا بد من تأويله على قاعدة رد المتشابه إلى المحكم. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [سورة آل عمران: ٧] وهذه قاعدة مطردة في كل الشريعة، كما أنَّها قاعدة عقلية منطقية سليمة؛ لأنَّ الحديث لا يقوى على مواجهة كلية ثبتت بكميات كبيرة من الآيات والأحاديث، بل إنّ هذه الكلية يقوم عليها الكون أجمع؛ فهي في كتاب فوق عرش الرحمن. وعليه فحديث بعث النار الذي يظهر منه للوهلة الأولى أنَّ غضب الله غلب رحمته بكثير، لابد من تأويله بشكل يتناسب مع حكمة الله، وكمال صفاته، ورحمته الثابتة في هذه الكلية.

٢- كون رحمة الله غلبت غضبه من المحكمات في الشريعة، فما تعارض معها لا بد من تأويله على قاعدة رد المتشابه إلى المحكم. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا

﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: ٧] وهذه قاعدة مطردة في كل الشريعة، كما أنَّها قاعدة عقلية منطقية سليمة.

٣-كون بعث الجنة يدخل الجنة دون أي تعديل، وبعث النار يدخل النار دون أي تعديل، دخولا أوليا ونهائيا!! فهذا لم يقل به أحد من العلماء!! ولا فَهِمه بهذه الطريقة أحد، ولم يُنقل لنا عنهم هذا الاحتمال؛! لأنَّه ثبتت أحاديث عن موحدين كثر يخرجون من النار بعد أن دخلوها، فكيف يكون ذلك لو كان الفرز في بعث النار وبعث الجنة نهائيا؟

فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ:... والذي نفسي بيده، ما من أحد منكم بأشدَّ مناشدةً لله في استيفاء الحق من المؤمنين يوم القيامة لإخوانهم الذين في النَّار فيقولون: ربَّنا كانوا يصومون معنا، ويصلُّون ويحجُّون، فيقال لهم: أخرجوا من عَرَفتم، فتحرم صورُهم على النّار، فيُخرِجون خلقاً كثيراً قد أخذت النارُ إلى نصف ساقه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربّنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربَّنا، لم نَذَرْ فيها أحداً ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربَّنا لم نَذَر فيها ممن أمرتنا أحداً، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ ذرَّة من خيْر فأخرجوه، فَيخْرِجونَ خلقاً كثيراً، ثم يقولون: رَبَّنا لم نَذَرْ فيها خيراً – وكان أبو سعيد يقول: إن لم تُصدِّقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٤٠]، فيقول الله عز وجل: شفعَتِ الملائكة، وشفعَ النبيون، وشفعَ المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبضُ قبضة من النار، فيُخرج منها قوماً **لم يعْمَلُوا خيراً قط**...

يعرفهم أهلُ الجنة، هؤلاء عُتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عمِلوه، ولا خير قدَّمُوه، ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربَّنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربَّنا أيُّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رِضايَ، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً[1]. وبعد أن يحل الرضا مكان الغضب تكون القاعدة الذهبية قد طبقت في هؤلاء: **رحمتي غلبت غضبي**. عذاب مؤقت يعقُبُه نعيم عظيم لا ينقطع أبدا.

هذا وغيره من الأحاديث الكثيرة التي تثبت بأنَّ بعث النار ليس على ظاهره، وأنَّه لا يستقر في النار بشكل نهائي بكامل مكوناته التي احتواها عند الفرز، بل كما ظهر في الحديث وما سيأتي لا يبقى منه إلا القليل. وسنرى من هو هذا القليل قريبا.

ويلاحظ هنا أنَّ الخارجين من النار الذين ذُكروا في هذا الحديث ليسوا كفارا أساسا، وعليه فليسوا من بعث النار!! والهدف من ذكرهم هو أن أثبت بأنَّ هذا الفرز المتمثل ببعث النار شكلي تماما، وليس حقيقيا، فهناك من سيدخل النار وهو حسب الفرز الأول في بعث الجنة! وهناك كميات هائلة في بعث النار ستدخل الجنة من خلال منعطفات حادة سيتعرض لها هذا البعث ستأتي قريبا. وعليه فلا يمكن لأحد أن يقول: إنّ بعث النار وبعث الجنة سيدخل كل منهما حسب وجهته بشكل أولي ونهائي. بل هناك تصفيات وتبادل جماعات بين البعثين لا بد منها ثابتة ثبوتا حتميا بالنصوص الشرعية، والأحكام العقلية.

---

(١) رواه البخاري: ١٣ / ٣٥٨ - ٣٦٠ في التوحيد، باب ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وفي تفسير سورة النساء، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾. ومسلم رقم (١٨٣) في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

٤- الرسول ﷺ هو أول من صرف حديث بعث النار عن ظاهره!!: وسيتضح هذا من خلال النقاط الآتية:

أ - حديث بعث النار كان يتحدث عن ذرية آدم، والرسول ﷺ عندما فسره بطريقة تبشيرية ذكر فيه: إبليس وذريته. وهؤلاء ليسوا من ذرية آدم اتفاقا، فإبليس مخلوق من قبل آدم زمنا، ومن غير جنسه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [سورة الحجر: ٢٦-٢٧]. فهذا يعني أنَّ ظاهره لم يكن مقصودا.

إلا أنَّه نشأ هنا إشكال: كيف يتحدث عن ذرية آدم ويذكر الجن مثلا؟ أقول: الظاهر أنَّ التكليف بإخراج بعث النار لم يكن لآدم فقط، فقد ورد الحديث بلفظ الجمع: (أخرجوا) بدل: (أخرج)، كما في رواية عبد الله بن عمرو السابقة عن بعث النار وفيها: «ثم يقال لهم: أخرجوا بعث النار». قال القرطبي: والجمع بينهما بأنَّ المأمور أولًا آدم، وهو يأمر الملائكة بالإخراج(١).

فآدم يعلم ذريته، وبعث النار مُكوّن من آخرين أيضا، فكان لا بد من تكليف الملائكة معه، أو تحت إشرافه لاستكمال بعث النار.

ب - من بين من ذكرهم الرسول ﷺ في تأويله التبشيري للحديث (أهل الفترات) وهم المقصودون في قوله ﷺ: «فإنَّه لم تكن نُبُوَّة قطُّ إلا كان بين يديها جاهِلِيَّة، فتؤخذ العِدَّة من الجاهلية». وهؤلاء لم يأتهم رسول أصلا؛ إذ عاشوا بعد أن حُرّف الدين السابق، ولم يدركوا الدين اللاحق، فلم تقم عليهم الحجة؛ فكيف يعذبون؟ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥]، وقريبا سنرى حكم هذا الفريق من البشر. إلا أنَّ

(١) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم لمحمد الهرري: (٢٦/ ٢٧٩).

ذكرهم في التعليل التبشيري للرسول ﷺ يدل على أنَّ الظاهر الذي يفيد أنَّ كل من ذُكر في بعث النار فمصيره إلى جهنم لم يكن مقصودا.

ت - ذكر الرسول ﷺ من بين مكونات بعث النار يأجوج ومأجوج، وهؤلاء لا نعلم شيئا عن أهليتهم للتكليف، ولا عن تبليغهم أي دين! وسيأتي مزيد من التفصيل عنهم في المحور الثالث تحت عنوان: (إشكال يأجوج ومأجوج وأثره على العدالة الإلهية)، وسنرى أنَّ الحكم عليهم بدخول جهنم لا دليل عليه، كما لا دليل على تعذيبهم فيها فيما لو دخلوها!!

ث - ظاهر حديث بعث النار جعل الصحابة يبكون حزنا، بعد أن يئسوا من دخول الجنة! إلا أنَّ الرسول ﷺ سرعان ما عالج هذا الفهم المحزن بتفسير تبشيري جعلهم يظنون بأنَّ النادر من يدخل النار!! فقال: «إنّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبَّروا، ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبَّروا، ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبَّروا، قال: ولا أدري: أقال الثُّلُثين، أم لا؟».

والحقيقة هي ما ذكره الرسول ﷺ أخيرا!!، ومع هذا لم يكن الرسول ﷺ متعارضا مع ما ذكره أولا!! ولفهم الإشكال، وما يظهر من تباعد غير حقيقي بين أول حديث بعث النار وآخره أقول: عندما تحدث الرسول ﷺ عن النسبة الكبيرة في بعث النار، كان يتحدث عن الفرز الأول، حسب الظاهر، وليس حسب الحقيقة كما ذكرت سابقا، فهو تحدث عن مجرد تمييز من ظاهره الكفر، بغض النظر عن كونه معذبا أم لا، وهل سيدخل الجنة بعد ذلك أم لا؟ إلا أنَّه حدثنا عن مكونات لبعث النار واضحة في أنَّ هذا البعث لا يمكن أن يدخل النار بشكله الذي تشكّل عليه في هذا الفرز الأول، حسب ظاهر الناس كما بينت سابقا.

لكن الرسول ﷺ عندما حدثهم عن كثرة أهل الجنة، وقلة من يدخل النار منهم، ما كان يتحدث عن الفرز الأول الشكلي!! وإنّما يتحدث عن أهل الجنة الذين هم في الجنة، وأهل النار الذين هم في النار!! يعني ما تستقر عليه أحوال الفريقين، وليس عن مجرد بعث الجنة أو بعث النار!! فالفرق بين أول الحديث وآخره، هو الفرق بين أول يوم القيامة (المحشر) الذي لا يُعرف مصير الناس فيه على الحقيقة، وبين نهاية أعمال يوم القيامة، بعد مراحل كثيرة، ومنعطفات وتصفيات كثيرة، إلى أن يستقر من هو من أهل الجنة في الجنة، ومن هو من أهل النار في النار.

إذًا ظاهر الحديث المرعب لم يكن مقصودا، وإنّما للتخويف من إبليس ومكره والتخويف من عذاب الله، ولا يخلو من امتحان يميز بين من يثق بربه وإن لم يَفهم حِكمته، وبين من في قلبه شك، ويعبد الله على حرف، وسيأتي الحديث عن الحكمة لاحقا.

٥- وسنرى عند ذكر نسبة بعث الجنة إلى بعث النار، بأنَّ جماهير العلماء عدّت هذه النسبة المنصوص عليها في الحديث: ١ إلى الجنة، و٩٩ أو ٩٩٩ إلى النار، عدّتها أنَّها ليست على ظاهرها، وأنَّ المقصود كثرة أهل النار، وأنَّهم أكثر من أهل الجنة. ولا شك في ذلك، فنحن لا نزال عند الفرز الأول، لكن الختام سيكون مختلفا تماما.

وللحديث بقية عما يَصرِف بعث النار عن ظاهره، فالحديث متصل من أول الكتاب إلى آخره.

الفرز الأول للبشرية حسب الظاهر

وهو المقصود من حديث بعث النار

بعث الجنة: من ظاهره الإيمان	بعث النار: من ظاهره الكفر
(وهم الأقل من البشرية)	(وهم الأكثر من البشرية)

سبق أن بينت في الركائز العقدية أن فرز البشرية في الآخرة يكون حسب الدين الحق، فالجنة للمؤمنين حقا، وأصحاب الكبائر منهم يستحقون العذاب، ويعذبون ما لم يعف عنهم سبحانه. والخلود في عذاب جهنم للكافرين، الذين أقيمت عليهم الحجة الرسالية؛ فكذبوا، ولم يستجيبوا. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الصافات: ٢٤].

وبين هذين النوعين أنواع وتفاصيل لا بد من ذكرها، عندها ستتضح لنا أحوال (بعث النار) بدقة، وليظهر من خلالها أنَّ رحمة الله قد غلبت غضبه بما لا يدع مجالا للشك بإذن الله.

أولا: توقيت بعث النار الوارد في الحديث الشريف

يظهر من خلال نصّ الحديث الشريف أنَّ استخراج هذا البعث المسمى: (بعث النار) كان بعد النفخة الأخيرة، وحشر الناس مباشرة، قبل الحساب والشفاعات وتفاصيل كثيرة، سنأتي عليها بإذن الله، والدليل على ذلك:

١- الحديث -كما في نصه- يشرح الرسول ﷺ أول آيتين من سورة الحج، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ

﴿ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [سورة الحج: ٢،١].

فقال الرسول معرفا وقت هذه الزلزلة وأحداثها العظيمة: «أتدرون أيُّ يوم ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابْعَثْ بَعْثَ النار». وفي رواية عبد الله بن عمرو قال ﷺ: ثم يُنفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلُمُّوا إلى ربكم ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [سورة الصافات: ٢٤] ثم يقال لهم: أخرجوا بعثَ النار(١).

٢- إذًا واضح من تفسير الرسول ﷺ أنَّ بعث النار جاء بعد النفخة الأخيرة في الصور، وهي نفخة البعث التي يُحشر الناس بعدها، وبعث النار بعد حشر الناس. كما أنَّ البخاري أخرج الحديث في باب الحشر(٢).

٣- في رواية أبي هريرة رضي الله عنه، قال الرسول ﷺ: **أولُ مَنْ يُدْعَى يوم القيامة** آدمُ عليه السلام، فتراءى ذرِّيتُه، فيقال لهم: هذا أبوكم آدمُ؟ فيقول: لَبَّيْكَ وسعْدَيْكَ، فيقول: أَخْرِجْ بَعْثَ جهنم من ذُرِّيتك.

فكلمة: (**أولُ مَنْ يُدْعَى يوم القيامة آدم**) تفيد أنَّ هذا من أول الأحداث بعد الحشر مباشرة يوم القيامة. قال ابن حجر: وقد ظهر أنَّ خطاب آدم بذلك أول شيء يقع يوم القيامة(٣).

---

(١) سبق تخريجه من حديث عمران وأبي سعيد.

(٢) قال القرطبي: وقيل: هي الزلزلة المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة، هذا قول الجمهور. تفسير القرطبي: (١٢/ ٣). ولم أهتم هنا بعدد النفخات، وهل هناك نفخة خاصة بالفزع أم لا، والذي يهمني هنا أن (بعث النار) كان بعد حشر البشرية مباشرة بعد النفخة الأخيرة.

(٣) فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٣٨٩). وانظر: شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩/ ٣٠٧). و البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد الولوي: (٥/ ٥٥٢). والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي: (١/ ٤٧٠).

٤- كذلك في رواية عبد الله بن عمرو: «ثم يقال: **يا أيها الناس، هلُمُّوا إلى ربكم** ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾، ثم يقال لهم: أخرجوا بعثَ النار».

فيه دليل واضح أنَّ النداء بعد حشر الناس كان للبشرية كلها بلفظ: (يا أيها الناس)، ثم استوقفهم سبحانه من أجل أن يفرزهم الفرز الأول فقال: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ ثم يقال لهم: أخرجوا بعثَ النار.

٥- الزلزلة المذكورة هنا في الحديث عن آيات سورة الحج، هي نفسها المذكورة في سورة الزلزلة، قال الرازي: وهي الزلزلة المذكورة في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[1]. وفي سورة الزلزلة يقول سبحانه عن أحداث ذلك اليوم: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[سورة الزلزلة: ٦]. وفي هذا تأكيد منه سبحانه أنَّ الناس كلهم، كل البشرية: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾. يعني قبل أي شيء من الحساب، فيكون الفرز في هذه اللحظة، هو الفرز الأول للبشرية.

٦- في رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال الرسول ﷺ: «يُدْعَى يوم القيامة آدمُ عليه السلام، فتراءى ذرِّيتُه، فيقال لهم: هذا أبوكم آدمُ؟».

واضح من النص أنَّ هذا التعارف يوم القيامة هو الأول بين آدم والبشرية من أولاده، قبل أي حساب وفرز، ثم يقوم آدم عليه السلام بفرزهم الفرز الأول، كما طلب منه سبحانه، بإخراج بعث النار من البشرية في المحشر، وباقي البشرية يكون بعث الجنة.

وكل ما سبق يؤكد أنَّ بعث النار هو الفرز الأول للبشرية قبل أي حساب أو شفاعة.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: (٢٣/ ١٩٩). والآية في سورة الزلزلة: ١.

ثانيا: مُكوّنات بعث النار وبعث الجنة

أ- مكونات بعث النار

يتضح من الأحاديث السابقة أنَّ بعث النار يتكون من خمسة أصناف، وبعبارة أدق يتكون من ٤+١؛ لأنَّ المنافقين لا يلتحقون ببعث النار في بداية تكوينه وفرزه ويكونون في بعث الجنة!! وهذا لأسباب مهمة جدا سنكشف عنها قريبا، وهذه الأصناف هي:

١- أهل الفترات: وهم الذين عبّر الرسول ﷺ عنهم بقوله: «لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية». وهم الناس الذين لم يدركوا الرسول السابق، وتغير التوحيد وضاع الدين، وماتوا قبل أن يدركوا الرسول اللاحق. قال الآلوسي: وهي عند جميع المفسرين انقطاع ما بين الرسولين[١].

٢- يأجوج ومأجوج.

٣- كفار الأمم من أولاد آدم.

٤- كفار الجن.

٥- المنافقون (بعد فترة وليس في البداية): وهم من يبطن الكفر ويظهر الإيمان.

يتضح من خلال التأمل بمكونات بعث النار السابقة كما جاءت في الحديث الشريف أنَّ الجامع الوحيد بينهم هو أنَّهم ما عبدوا الله في الدنيا (غير مؤمنين). وهذا يعني أنَّ الفرز كان على مسمى الدين الظاهر للإنسان، فكل هؤلاء كفرهم ظاهر بيّن، ما كانوا يعبدون الله، وكانت لهم آلهتهم وعباداتهم الخاصة بهم. وقد يُسجل علينا البعض اعتراضات على هذا الكلام وهي:

١- ما ذنب أهل الفترة الذين ما جاءهم رسول ليكونوا في بعث النار؟

الجواب عن هذا الاعتراض: هو أنَّ الرسول ﷺ فَهّمنا من خلال المكونات

(١) تفسير الآلوسي = روح المعاني: (٣/ ٢٧٤).

أنَّ الفرز كان على ظاهر الدين، فمن غير المنطقي أن يُحشر المؤمن يوم القيامة وبجواره عبدة الأوثان ومجرمو الأمم السابقة واللاحقة في صف واحد!! فإن حصل هذا سيختل الموقف، وتضطرب الأفكار، ولا يُعلم هذا البعث المختلط إلى أين سيتجه؟ إلى الجنة أم إلى النار؟ فعندئذ لا شك أنَّ هذا البعث لن يتجه إلى الجنة!؛ لأنَّني أسلفت في الركائز أنَّ الجنة لا يدخلها مشرك مهما كان!

ومعلوم أنَّ أهل الفترة ومن في حكمهم ما كانوا يعبدون الله، وكانوا غير مؤمنين مشركين، ولم يعبدوا الله سبحانه كما يليق به وبوحدانيته؛ لذلك لا يمكن أن يكونوا في الفرز الأول في بعث الجنة، وهذا لا يعني أنَّهم سيبقون خارج بعث الجنة!! ولا يعني أنَّهم معذبون في جهنم؛! لأنَّ الله طلب من آدم مجرد الفرز الأولي، فقال له: «أخرج بعث النار». ولم يقل له: أرسلهم إلى جهنم! أخرجهم فقط! بمعنى: افرزهم. قال ابن حجر والنووي وغيرهما: ومعناها هنا: مَيّز أهل النار من غيرهم(١).

فالإنسان طالما لم يدخل جهنم فرجاؤه في النجاة لا ينتهي، وطمعه برحمة الله لا ينقضي، فعن عبد الله بن عَمْرو بن العاصي، قال: قال رسولُ الله ﷺ: تُوضَعُ المَوَازِينُ يوم القيامة، فَيُؤتى بالرَّجُلِ، فَيُوضَعُ في كِفَّةٍ، فَيُوضَعُ ما أُحْصِيَ عليه، فتَمَايَلَ به المِيزَانُ، قال: فَيُبْعَثُ به إلى النَّارِ، فإذا أُدْبِرَ به إذا صائحٌ يَصِيحُ مِنْ عند الرَّحْمَنِ، يقول: لا تَعْجَلوا، لا تَعْجَلوا، فإنّه قد بقِي له، فَيُؤتى ببطاقَةٍ فيها: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، فتُوضَعُ مع الرَّجُلِ في كِفَّةٍ، حتى يَمِيلَ به المِيزَانُ(٢).

(١) فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٣٨٩). وانظر: شرح النووي على مسلم: (٣/ ٩٧). وتحفة الأحوذي (٩/ ٨). والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للساعاتي (١٨/ ٢١٢). و فتح المنعم شرح صحيح مسلم لموسى شاهين (٢/ ٧٣). والكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم لمحمد الهرري: (٥/ ١٥٩). و البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد الولوي: (٥/ ٥٥٣).

(٢) مسند أحمد: (١١/ ٦٣٧). وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن على خطأ في اسم أحد رواته. وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند: (٦/ ٤٨٢) إسناده صحيح. وقال الهيثمي: مجمع الزوائد =

فهذا رجل تم الأمر ببعثه إلى جهنم، ومع ذلك لم يصلها برحمة الله.

فلا بد من فرز البشرية وهي مجتمعة إلى هذين القسمين: بعث الجنة: من أظهر الإسلام، وتوحيد الله وعبادته. وبعث النار: من أظهر الشرك والكفر وعبادة غير الله.

وبين هذا البعث (بعث النار) الذي أخرجه آدم، وبين عذاب النار طريق طويل، وفيه تصفيات وتجاذبات كثيرة، جاء هذا الكتاب لإماطة اللثام عنها، وسيتضح جليا بأنَّ كون الإنسان في بعث النار لا يعني أنَّه ممن يُعذب فيها!! ولا يعني العكس!!. وموضوع أهل الفترة سيُبحث بالتفصيل في الفرز الثاني لبعث النار.

٢- إذا كان بعث النار يضُمّ من أظهروا الكفر من الأصناف السابقة، فلماذا تم ذكر كل قبيلة يأجوج وقبيلة مأجوج في بعث النار، من غير تمييز بين مؤمنهم وكافرهم؟

الجواب عن هذا الاعتراض: إنّ الشريعة الإسلامية لم تُحدّثنا عن مؤمن واحد من يأجوج ومأجوج!! ولا عن رسول أُرسِل إليهم!! وقلت سابقا: ليس كل من في (بعث النار) سيدخل النار؛ مثل أهل الفترات. والآن أقول: ليس كل من يدخل جهنم يدخُلها ليُعذّب فيها!! نعم جهنم دارٌ للتعذيب، ولكنها دار لتعذيب من كذّب الرسل ولم يستجب لدعوتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥] ففي النار ملائكة وُجدت فيها لتأدية مهام تعذيب المكذبين، ومن المؤكد أنَّهم لا يتعذبون فيها!! والتفصيل حول يأجوج ومأجوج سيكون -بإذن الله- في المحور الثالث المخصص ليأجوج

= ومنبع الفوائد للهيثمي: (١٠/ ٨٢): رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

ومأجوج في هذا الكتاب تحت عنوان: إشكال يأجوج ومأجوج وأثره على العدالة الإلهية.

٣- لماذا نجد المنافقين في بعث الجنة مع أَنَّهم كفار؟

الجواب عن هذا الاعتراض: هذا سؤال مهم، والحقيقة أنَّ الرسول ﷺ لم يجعلهم من مكونات بعث النار وقت إنشائه، وإنّما ينضمون لبعث النار في حال لم يتمّ العدد، فقال في رواية عمران السابقة: «فإن تمّت وإلا كُمّلت من المنافقين». وهذا كلام في غاية الدقة، فأمْر المنافق مُحيّر؛ لأنَّه متناقض مع أنَّه شخص واحد، فظاهره مع المؤمنين، وباطنه مع الكافرين، فإن تحدثنا عمّن يُظهر الإسلام عددناه منهم! وإن تحدثنا عن أعداء الإسلام الحاقدين جعلناه في مقدمتهم!! فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغَنمين، تُعِيرُ إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة»[1].

ولذلك نجده سبحانه يصنفهم على أحوال ثلاثة:

١- مذبذبين، كالشاة العائر بين الصفين: يُثبت عليهم سبحانه صفة الذبذبة هذه فيقول: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٤٣].

٢- كفار خارج صف المؤمنين: قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [سورة التوبة: ٥٦].

٣- يصفهم سبحانه بأنَّهم مسلمون منا حسب الظاهر: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء: ٧٢] فقال سبحانه: ﴿مِنكُمْ﴾ والحديث عن المنافقين، والمقصود: ظاهرهم.

---

(١) رواه مسلم: رقم (٢٧٨٤) في صفات المنافقين في فاتحته، والنسائي ٨ / ١٢٤ في الإيمان، باب مثل المنافق. وزاد النسائي: لا تدري: أيّها تَتْبَعُ.

والظاهر أنَّ المنافقين في الفرز الأول الذي نتحدث عنه لا بد أن يكونوا في (بعث الجنة)! حسب ظاهرهم، فحقيقتهم لا يعرفها إلا الله، والمؤمنون لا يعرفون حقيقتهم، فلن يستغربوا من وجودهم بينهم، بل سيستغربون لو وجدوهم من أول وهلة في بعث النار!! ووجدوا عبدة الأوثان (أهل الفترات) في صفهم، ولعل أهل المحشر أو بعضهم يتساءل حينئذ: هل هذا الذي يفرز البشرية ويخلط كافرها بمؤمنها هو أبونا آدم الذي عرفنا عنه أنَّه من أنبياء الله؟! وإن كان عبدة الأوثان في صفنا، وفي صف عبد الأوثان من كانوا بيننا من المؤمنين فمن الذي حشرنا؟ أهو ربنا الذي كنا نعبده في الدنيا؟!

ومثار هذا الاستغراب هو ما عرفوه من دينهم؛ أنَّ أهل التوحيد في صف واحد هو بعث الجنة، وأهل الشرك في صف واحد هو بعث النار؛ لذا كان لا بد أن يكون الفرز الأول حسب الظاهر الذي اعتاد عليه الناس؛ لأنَّ الدنيا أحكامها على الظاهر، وهذا الفرز هو أول ما تتعرض له البشرية بعد حشرها، وهو أقرب إلى أحكام الدنيا منه إلى أحكام الآخرة، وثبت أنَّ أهل المحشر يتعارفون بينهم، ثم بعد ذلك تزداد الأهوال فينشغلون، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة يونس: ٤٥].

وبعد هذا تخوض البشرية مراحل متعددة تتضح فيها الأمور، والله سبحانه بلا شك يعلم البواطن؛ ولكن تأتي التفاصيل والتصفيات تباعا معللة، فلا تثير أي إشكال، بل تظهر فيها رحمة الله وعدله وفضله، فيزداد الناس إيمانا بعدل الله ورحمته وفضله، وأنَّ الله لا يغيب عن علمه وحكمته مثقال ذرة، ولا ما دونها.

ولن يُغير وضع المنافقين في (بعث الجنة) من الأمر شيئا؛ فبين هذا البعث وأبواب الجنة المفتحة طريق طويل، ومحطات تمحيص يتغربل فيها هذا البعث لا بد منها، سيتساقط فيها المنافقون، وتكون خسارتهم الفادحة في السقوط من بعث الجنة إلى بعث النار!! ولذلك لم يذكرهم الرسول ﷺ بداية

في بعث النار، ولكنه بين أنَّهم منه ولو بعد حين. سيُكمّل بهم بعث النار؛ لأنَّ بعث النار سيتناقص ويتآكل بشكل هائل جدا كما سنرى، ولا بد من تكملته بالمنافقين فهم منه أصالة، ولكنهم خَدعوا المؤمنين في الدنيا، وهذا القصاص العادل بخدعتهم ببعث الجنة في الآخرة!!. ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [سورة النساء: ١٤٢]. وعن مصيرهم المحسوم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾[سورة النساء: ١٤٥]. فمسألة تكملته بالمنافقين محسومة.

ومن الخطأ الفاحش أن يفهم الإنسان من خلال الحديث أنَّ الرسول ﷺ لا يُلحق المنافقين في بعث النار لو لم تكن حاجة لهم في تكملة العدّة!!؛ لأنَّ هذا يعني أنَّ الرسول ﷺ لا يعرف أنّ مصيرهم إلى النار!! وهذا مستحيل في حق الرسول الذي بلغنا الآيات السابقة، وفيها الحسم بأنَّهم الأسوأ؛ لذلك مكانهم في الدرك الأسفل من النار. إلا أنَّ طريقة الرسول ﷺ هذه في التعبير عن مكان المنافقين علمتنا وأفادتنا كثيرا، حيث أشارت إلى أمرين:

١- إنهم يكونون في مكان آخر في ذلك الوقت، وهو بعث الجنة؛ لأنَّ الفرز الأول حسب الظاهر كما ذكرت سابقا، وكما هو واضح من مكونات بعث النار الواردة في الحديث الشريف، وما سيأتي من فرز وتصفيات أخرى ستكون حسب الحقائق والقلوب، والله المستعان.

٢- لفَت الرسول ﷺ النظر إلى تناقص سيحصل في بعث النار، وسيكمل بالمنافقين، ويُستأنس بهذه الإشارة منه ﷺ على ما سنتحدث عنه من تصفيات هائلة في صفوف (بعث النار). أجارنا الله منه.

وسيأتي مزيد تفصيل وأدلة من الكتاب والسنة عن فرز المنافقين المتأخر في الفرز الثاني بإذن الله.

ب ـ مكونات بعث الجنة

صار واضحا أنَّ بعث الجنة: هو من تبَقى من البشرية بعد بعث النار، فيتكون من: كل من أعلن أنَّه مؤمن ظاهرا، ولو كان غير ذلك باطنا؛ لأنَّ هذا الفرز أولي وسيتعرض -كما سنرى في الفرز الثاني والذي يليه- إلى تصفيات وتبادل جماعات وكميات كبيرة من البشر بين البعثين: (بعث الجنة) و(بعث النار)، فإلى الآن لا زلنا في الأعمال الأولى ليوم القيامة، وفي بداية الفرز الذي يُعدّ تهيئة للحساب، ولا زال الطريق طويلا، والمفاجآت قادمة. نسأل الله الثبات على دينه.

ثالثا: نسبة بعث الجنة إلى بعث النار في هذا الفرز (الأول)

من خلال حديث بعث النار السابق تبين أنَّ عدد بعث الجنة أقل من عدد بعث النار، إلا أنَّ النسبة بين الرقمين ظهرت بشكل غير متفق:

- ففي بعض الروايات ذكر أنَّ نسبة بعث أهل الجنة إلى بعث النار هي: ١ في بعث الجنة و٩٩٩ في بعث النار.
- وفي بعضها الآخر كانت النسبة: ١ في بعث الجنة و ٩٩ في بعث النار.

والفرق بين النسبتين كبير جدا، وبعد الرجوع إلى أقوال العلماء وجدناهم قد اختلفوا فيها على أقوال أهمها:

١ـ الرأي الأول: أنَّ نسبة ٩٩٩ تكون بعد انضمام يأجوج ومأجوج

حيث لاحظ هذا الفريق من العلماء أنَّ الروايات التي فيها نسبة بعث النار: ٩٩٩ هي الروايات التي ذُكر فيها يأجوج ومأجوج ضمن هذا البعث، فقالوا: رواية ٩٩ هي ما بين غير المؤمنين والمؤمنين، ورواية: ٩٩٩ تكون بعد ضم يأجوج ومأجوج لكثرتهم الكبيرة.

قال الكشميري: واعلم أنَّ الرواياتِ مختلِفَةٌ في بيان نِسْبة المُسْلمين، وبَعْث النار. ففي رواية كما عند البخاري، وفي أُخرى نسبة المئة من تسعةٍ وتسعين، والتوفيقُ بينهما أنَّ النِّسبة في تلك الروايةِ هي ما بين الكفّار والمسلمين. وأما ما عند البخاري، فهي بعد ضَمّ يأجوج ومأجوج معهم، ويَشْهد له ما عند الترمذي في التفسير: أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر لهم الحديثَ على نحو ما عند البخاري، ثُم قال: «إنَّكم لمع خلِيقتين، ما كانتا مع شيءٍ إلَّا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومَنْ مات من بني آدم، وبني إبليس» اهـ. فدلَّ على أنَّ النِّسبة المذكورةَ بعد انضمام قوم يأجوج ومأجوج مع الكفّار(١).

٢ ـ الرأي الثاني: يرى أنَّ الحكم للزائد

يعني إذا اختلفت النسبة فالاختيار للأكثر، والمقصود بالأكثر في (بعث الجنة) وليس في (بعث النار)، فيكون حسب هذا الرأي: بعث الجنة ١من ١٠٠ أو ١٠ من ١٠٠٠.

قال القسطلاني: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، وفي حديث أبي هريرة يقول: أخرج من كل مائة تسعة وتسعين. وهو يدل على أنَّ نصيب أهل الجنة من الألف عشرة، وحديث الباب على أنَّه واحد، والحكم للزائد(٢).

٣ ـ الرأي الثالث: يرى أنَّ العدد لا اعتبار له والمقصود كثرة عدد بعث النار

قال الكرماني: قوله: (من كل ألف) فإن قلت: سبق آنفًا من كل مائة! والتفاوت بينهما كثير، قلت: مفهوم العدد لا اعتبار له، يعني التخصيص

---

(١) فيض الباري على صحيح البخاري للكشميري: (٥/ ٣٣١). وانظر: منحة الباري بشرح صحيح البخاري لأبي يحيى السنيكي: (٩/ ٤٨٨). والكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري للكوراني: (١٠/ ١٩٣). و فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٩٠).

(٢) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: (٧/ ٢٤٥). وانظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري للكرماني (٢٣/ ٣٨).

بعدد لا يدل على نفى الزائد، أو المقصود منهما شيء واحد، وهو تقليل عدد المؤمن، وتكثير الكافر[1].

الرأي الراجح

الرأي الأول قوي بسبب ملاحظته أنَّ رواية ٩٩٩ هي التي فيها يأجوج ومأجوج ضمن بعث النار، وهذه نقطة لا يسعنا تغافلها، فهي من حديث الرسول ﷺ، ولا بد أنَّها مقصودة، وهي تضفي فائدة جميلة.

إلا أنَّ الرأي الثالث الذي يقول بأنَّ العدد لا اعتبار له، فهو يعتمد على الاستعمال العربي[2]، وفهم النصوص حسب الاستعمال العربي إن لم تكن لها خصوصية شرعية أمر مهم، ومشروط لفهم النصوص الشرعية، ولا توجد هنا أية خصوصية شرعية، فيبقى فهم النص على أساليب العرب ضروريا جدا. ويعضد هذا أنَّ الرسولﷺ مرة جعل الـ ٩٩٩ من يأجوج ومأجوج فحسب كما في رواية أبي سعيد، وأخرى ضم إلى يأجوج ومأجوج باقي الكفار وأهل الفترة وأبناء إبليس.

فيكون الرأي الراجح المختار هو الجمع بين الرأيين: الأول والثالث هكذا:

١- بعث النار بغير يأجوج ومأجوج: يكون فيه مقابل المؤمن الواحد في بعث الجنة **الكثير** من غير المؤمنين في بعث النار.

٢- بعث النار مع يأجوج ومأجوج: يكون فيه المؤمن الواحد في بعث الجنة

(١) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري للكرماني: (٢٣/ ٣٨). وانظر: شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٧/ ٢٤٥). واللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح للبرماوي: (١٦/ ٤١). ومنحة الباري بشرح صحيح البخاري لأبي يحيى السنيكي (٩/ ٤٨٨). وعمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني: (٢٣/ ١٠٩).

(٢) المقصود الاستعمال العربي في زمن الرسول ﷺ؛ لأن أي نص لا بد لفهمه بشكل سليم من مراعاة زمانه وبيئته.

مقابل **الكثير جدا** من غير المؤمنين ويأجوج ومأجوج وأبناء إبليس.

وهناك الكثير من العلماء ممن جمع بين الرأيين، أو أجازهما[1].

وسيدرس هذا المحور (بعث النار) على الأول، وهو الذي فيه بعث النار بغير يأجوج ومأجوج، فيكون مكونا من: واحد مؤمن في بعث الجنة مقابل الكثير من غير المؤمنين في بعث النار. وسأفرد المحور الثالث من هذا الكتاب للحديث عن يأجوج ومأجوج تحت هذا العنوان: (إشكال يأجوج ومأجوج وأثره على العدالة الإلهية)، بإذن الله.

ملخص الفرز الأول للبشرية

بعد العرض والتفصيل في أحوال البشرية في الفرز الأول، نخلص إلى أن البشرية انشطرت فيه إلى شطرين رئيسيين:

١- من كان ظاهره الإسلام، وهم نسبة قليلة جدا.

٢- من كان ظاهره الكفر، وهم نسبة عظيمة جدا.

(١) راجع: فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٣٩٠). والكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري للكوراني: (١٠/ ١٩٣). و منحة الباري بشرح صحيح البخاري لأبي يحيى السنيكي: (٩/ ٤٨٨).

الفرز الثاني للبشرية : حسب حقيقة الدين، والتكليف

وفيه يظهر: الصادق بإيمانه، والمنافق، والمُعذَّب، والجاهل

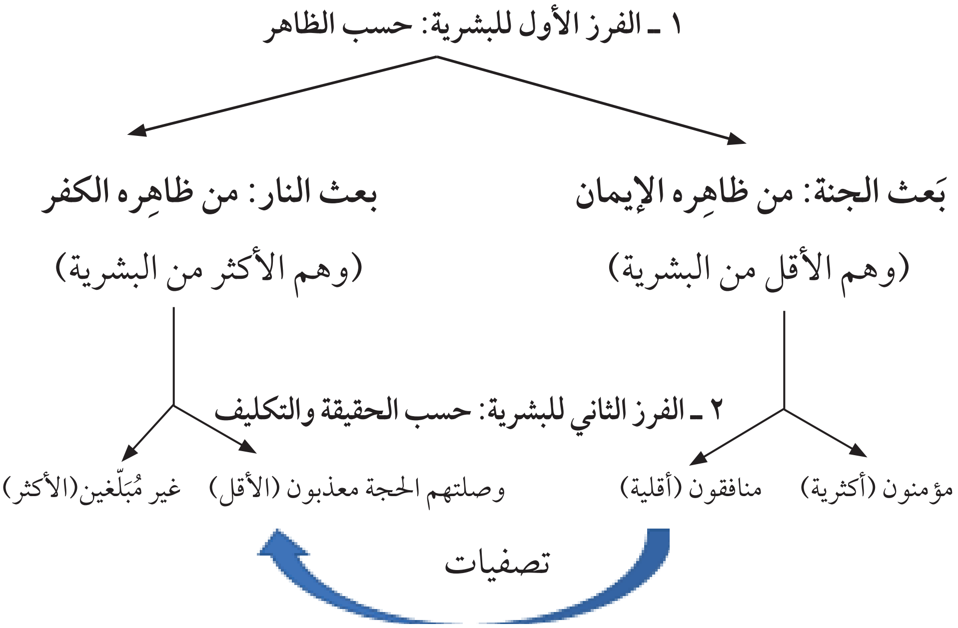

رأينا في الفرز الأول أنَّ البشرية انقسمت على حسب ظاهرها إلى: قسمين رئيسيين: الأول: مَن ظاهره الإيمان، ويَدّعي اتباع الرسل. والثاني: مَن ظاهره الكفر، ولم يكن مؤمنا بدعوة رسول.

والآن سندرس في الفرز الثاني، تقسيم كل قسم من القسمين السابقين على حقيقة دينه الذي يدين به. وقبل أن أتحدث عن هذا الفرز أعيد ذكر إحدى روايات الحديث تسهيلا على القارئ:

عن عمران بن حصين – رضي الله عنه – أَنَّ النبيَّ ﷺ قال لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ – إلى قوله –: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ قال: أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر، فقال: أتدرون أيُّ يوم ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابْعَثْ بَعْثَ النار، قال: يا ربّ، وما بعثُ النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فأنشأ المسلمون يبكون، فقال النبيُّ ﷺ: قاربُوا وسَدِّدوا، فإنَّه لم تكن نُبُوَّة قطُّ إلا كان بين يديها جاهِليَّة، فتؤخذ العِدَّة من الجاهلية، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مَثَلُكم ومثل الأمم إلا كَمَثَلِ الرَّقْمَة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير، ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبَّروا، ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبَّروا، ثم قال: إنّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبَّروا، قال: ولا أدري: أقال الثُّلُثين، أم لا؟.

وفي رواية قال: كنا مع النبيِّ ﷺ في سفر، فتفاوت أصحابه في السير، فرفع رسولُ الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ – إلى قوله – ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ فلما سمع ذلك أصحابُه حثُّوا المطيَّ، وعرفوا أنَّه عند قولٍ يقوله، فقال: أتدرون أيّ يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يومٌ ينادي الله فيه آدم، فيناديه ربه، فيقول: يا آدم، ابعثْ بعثَ النار، فيقول: أيْ ربّ، وما بعثُ النار؟ فيقول: من كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فيَئِس القوم حتى ما أبْدَوْا بضاحكة، فلما رأى رسولُ الله ﷺ الذي بأصحابه، قال: اعْمَلوا وأبْشِرُوا، فوالذي نفس محمد بيده، إنّكم لَمَع خَلِيقَتَيْن، ما كانتا مع شيء إلا كثَّرتاه – يأجوج ومأجوج، ومن مات من بني آدم، ومن بني إبليس – فسُرِّي عن

القوم بعضُ الذي يجدون، قال: اعملوا وأبْشِروا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشَّامة في جنب البعير، أو كالرَّقْمَةِ في ذراع الدابة.

تمهيد: سبب قلة بعث الجنة، وكثرة بعث النار

وقبل الخوض في الفرز الثاني التفصيلي لبعث الجنة وبعث النار لا بد من إلقاء الضوء عن سبب القلة الشديدة لتعداد بعث الجنة، وسبب الأغلبية العظمى لتعداد بعث النار، مع أنَّ الله سبحانه قال: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [سورة فاطر: ٢٤].

كون أكثر الكوكب من غير المؤمنين مشيئة إلهية، وإرادة كونية لا تتخلف!!

فهذه سنة من سنن الكوكب قام عليها منذ أن بدأ الشرك يغزوا أولاد آدم عليه السلام بعد فترة من الزمن(١)، ومع ذلك نجد القرآن نفسه يؤكد قلة المؤمنين بنصوص كثيرة منها:

- ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٨].
- ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [سورة النساء: ١٥٥].
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [سورة هود: ٤٠] رغم عمر نوح الطويل جدا!.
- ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [سورة هود: ١١٦].

---

(١) هناك روايات عن ابن عباس أن بين آدم ونوح ١٠ قرون، كلها على التوحيد. وحولها نقاش، وكذلك معنى قرن في الرواية لا يعني ١٠٠ سنة، بل قد يعني جيلا أو فترة أقصر من ذلك، وقد يكون ١٠٠ سنة، والظاهر غير ذلك. والله أعلم.

• ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [سورة ص: ٢٤].

• ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الحاقة: ٤١].

بل حدثنا الرسول ﷺ عن أنبياء بُعثوا ومعهم الواحد والاثنين! ومنهم من بُعث وحيدا! فعن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ، فرأيت النبيَّ ومعه الرهطُ، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحد(١).

ومن جهة أخرى يؤكد سبحانه لنا سنته الكونية في كثرة غير المؤمنين الهائلة من خلال آيات قرآنية كثيرة منها:

• ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة هود: ١٧].

• ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: ٤٠].

• ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٣].

• ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الرعد:١].

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٩].

• ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

• ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٦].

• بل بين سبحانه لرسوله محمد ﷺ بأنَّ كون غير المؤمنين هم الكثرة الكاثرة في

(١) رواه البخاري: ١٠ / ١٧٩ في الطب، باب من لم يرق، وباب من اكتوى أو كوى غيره، وفي الأنبياء، باب وفاة موسى، وفي الرقاق، باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه. ومسلم رقم (٢٢٠) في الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

الكوكب إرادة إلهية كونية لن تتخلف حتى معك يا محمد مهما حرصت!! قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة يوسف: ١٠٣]، ثم بين لرسوله بأنَّ هذه مشيئة إلهية لا تتخلف فقال له: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة يونس: ٩٩].

وبين سبحانه هذه المشيئة الإلهية لكل المؤمنين الغيورين الحريصين فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [سورة الرعد: ٣١].

وهذه السنة الإلهية أو الإرادة الإلهية سادت الكوكب منذ أن عمّه الشرك بعد آدم عليه السلام مع كل الرسل سابقا، وهي باقية إلى قيام الساعة، على الرغم مما نعرفه عن انتصارات للمسلمين كبيرة في آخر الزمان!! فعن المستورد القرشي - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: تَقُومُ السَّاعَةُ والرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ[1].

ولذلك فإنّ المطلع على قصص الأنبياء، يرى فيها من آلام الأنبياء والرسل ما يملأ القلب حزنا وأسى، فمحورها فنون تعذيب الأكثرية الكافرة للأقلية من الأنبياء وأتباعهم، وكيف صبروا، وكيف انتقم الله لهم في نهاية المطاف، بقدرته.

ويستفاد مما سبق أنَّ وجود غير المؤمنين بهذه الكميات الكبيرة إرادة إلهية، وليس عجزا للهداية الإلهية! فقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ ﴾ [سورة هود: ١١٨-١١٩]، والآية السابقة: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة يونس: ٩٩].

والواقع في زماننا يشهد بهذه الكثرة، إذ إنّ نسبة أتباع الرسول الأخير للبشرية

(١) رواه مسلم: رقم (٢٨٩٨) في الفتن، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس.

جمعاء محمد ﷺ في الكوكب أقل من الربع، انظر نسب انتشار الأديان في العالم في هذا الجدول[1]:

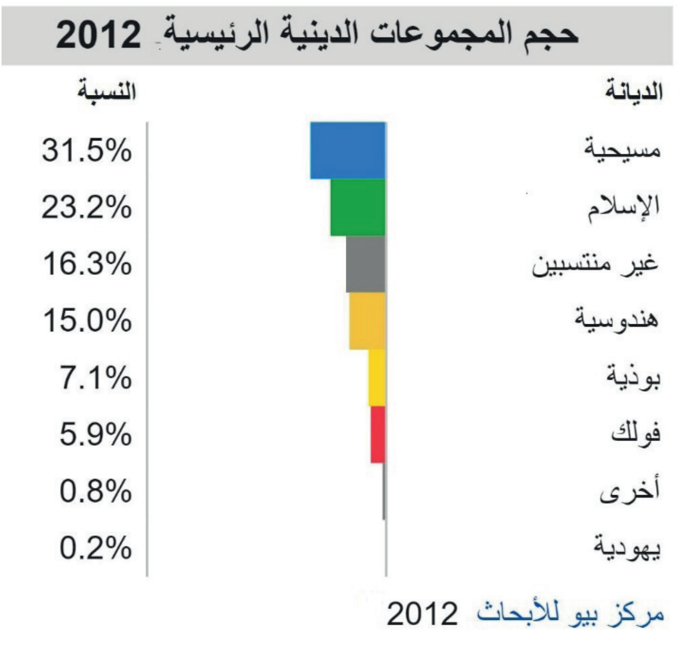

ولكن قد يقول قائل: أليس من الحكمة أن تكون الأغلبية للمؤمنين؟

أقول: كون غير المؤمنين أغلبية فهذه سنة إلهية تأتي ممهدة للسنة التي تليها وهي: الابتلاء والاختبار للخلق. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سورة الملك: ٢]. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣١].

(١) https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D8%A7%D8%A6%D9%85%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D8%A7%D9%86%D8%A7

فلو لم يكن غير المؤمنين أغلبية كيف يُمتحَن المؤمن ليُعلم صلابة دينه، وتضحيته بالغالي والنفيس من أجله؟! قال تعالى:

- ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤].

- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٢-١٤٨].

- ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤].

- ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٥٥].

وهذا المستوى من الابتلاء ما كان ليكون لو كان المؤمنون كثرة! بل لا بد

أن يكونوا قلة قليلة تثبت على دينها مهما كانت قوة الطرف الثاني، فما أكثر ما يسحق الباطل المتجبر أهل الحق الضعفاء، فيبين الله لنا قوة إيمان هذا الضعيف وعظمة ثباته، قال تعالى في هذه الفئة التي ماتت حرقا بنيران الكافرين: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة البروج: ٤-١١].

ثم يطوي سبحانه صفحة الضعف هذه ليرينا نصره إذا ما أراده سبحانه كيف يكون عظيما؟ وآية من آياته سبحانه، فما أكثر المواجهات بين الفئة المؤمنة الصابرة القليلة، والكثرة الكافرة المتجبرة التي تنتهي بالنصر المؤزر للمؤمنين: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩-٢٥١].

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٣].

وإنّ ابتلاء القلة المؤمنة بالكثرة غير المؤمنة لا ينحصر بالجانب العسكري، بل كثيرا ما يحاول الكفر إغراء أهل الحق بالمال، وبالشهوات، ويمكر بهم ألوانا من المكر والكيد الذي تزول منه الجبال، قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟

مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٦].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا ﴾ [سورة سبأ: ٣٣].

إضافة إلى المعركة الفكرية التي يُسخّر لها الكافر أقصى ما يستطيع من الإمكانات والوسائل. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٣٦].

وعن غزوهم الفكري: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٣٢].

بل يحاربون المؤمنين حتى فيما يظهر للوهلة الأولى أنَّه خير يقدمونه لهم، كبناء دور العبادة في الظاهر، بينما برنامجها المُعد سابقا أن تكون وكرا وجرثومة وسط المجتمع المؤمن: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [سورة التوبة: ١٠٧].

والكلام في هذا كثير وليس هنا مقامه، وهو معلوم بشكل عام.

ولكن قد يعترض علينا معترض بهذا الكلام الخطير:

إن كان وجود الكم الكبير من غير المؤمنين ينفع في ابتلاء الخلق ويتألق به المؤمنون، لكن نتيجة هذا أنَّ الأكثرية الساحقة من البشرية كافرة وإلى الجحيم!! فأين الحكمة في ذلك، وكيف سبقت رحمة الله غضبه والحال هذه؟!!

أقول: هذا ما قصدته في عنوان الكتاب: اللغز الذي حير البشرية. هذا أخطر سؤال منذ أن أهبط الله آدم إلى الكوكب**!** وهنا تزلّ الأقدام، وتحار العقول، وتُختبر الأفهام، وترتدّ جماعات ما كانت تثق بربها حق الثقة، ويعجز صادقون عن إقناع المتحيرين، وما ألّفت هذا الكتاب إلا للإجابة عن هذا السؤال تحديدا**!!** وكل ما قيل من بداية هذا الكتاب وإلى الآن مقدمات شرعية ومنطقية للجواب، ولن يكتمل جوابي إلا باكتمال الكتاب. ولعل من فهم ما سبق يتوقع الجواب.

لقد بينت سابقا بأنَّ الكفر لا يكفي لدخول جهنم**!!** والكافر الذي يدخل النار ليعذب فيها لا بدّ أنَّه قد جاءه رسول يحذّره من مغبة كفره، ويقيم الحجة عليه، وبغير ذلك لا يمكن أن يُعذّب**!** وباقي الجواب في الأسطر والصفحات القادمة، وفي المزيد من الفرز والتصفيات في بعث النار.

وسيكون الفرز التفصيلي الثاني متابعة للفرز للأول حسب هذين العنوانين:

١- تصفيات بعث الجنة (من ظاهره الإيمان)

٢- تصفيات بعث النار (من ظاهره الكفر)

أولا: تصفيات بعث الجنة (من ظاهره الإيمان)

النصيب الأكبر من (بعث الجنة) الذي هو نصيب الجنة من كل البشريّة، هم مؤمنون صادقون؛ لأنَّه لم يكن هناك داع للنفاق في الأغلبية الساحقة من الرسالات، فكما قلت سابقا: قصص الرسل والأنبياء السابقين كانت قصص محن وآلام؛ كونهم لم يُمكّن لها بالحُكم، وقوة الحُكم هي السبب الأكبر لنفاق المنافقين، وذلك لتأمين السلامة من قوة الحق، وتأمين المصالح بالتخفي بين الصادقين، والتجسس عليهم لصالح العدو الخارجي، وممارسة

الغزو الفكري، فإنّ جرثومة النفاق تربتها المصلحة والعجز والكيد الخفي، فيغطي المنافق عجزه بتلونه بلون القوي، فيَسْلم ويحقق مصالحه، وهذه التربة كانت مفقودة في عهد الرسالات السابقة قبل موسى عليه السلام؛ لأنَّه لم يُمكّن لها في الأرض، وكذلك في العهد المكي من دعوة الرسول ﷺ؛ لأنَّ العاجز الضعيف كان هو المؤمن، والسطوة والقوة لغيره، لذلك كان صف المؤمنين نقياً من المنافقين، إلا القليل جدا في الأديان التي وصلت إلى السلطة وهي: اليهودية، والنصرانية، والإسلام. ومع هذا بقي العدد محدودا جدا إذا ما قورن بالصادقين؛ فالمنافقون موجودون في دعوة الرسول ﷺ وخاصة في المرحة المدنية وما بعدها، إلا أنّنا لو قارناهم بالكم الهائل من المؤمنين الصادقين لتبين أنَّهم أقلية جدا.

إذًا بعْث الجنة بعد الفرز صار هكذا: أكثرية البعث مؤمنون + قلة من المنافقين.

وهذا الفرز يأتي متأخرا بعد فرز آدم عليه السلام، مما يدل على أنَّ فرز بعث النار ليس على ظاهره، وذكرت سابقا أنَّ المنافقين يحشرون في البداية مع بعث الجنة ثم ينفصلون عنه. وأوضح الآن هذا بالأدلة فأقول:

١ـ الأدلة من القرآن الكريم على كون المنافقين في بعث الجنة في المحشر ثم فرزهم لاحقا

قال تعالى في المنافقين: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [سورة الحديد: ١٣].

ومعنى: ﴿ٱنظُرُونَا﴾، قال البيضاوي: انتظرونا... أو انظروا إلينا، فإنّهم إذا

نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنور بين أيديهم[1].

قال ابن عباس: بينما الناس في ظلمة، إذ بعث الله نورا، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلا من الله إلى الجنة؛ فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا، تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: انظرونا نقتبس من نوركم، فإنَّا كنا معكم في الدنيا؛ قال المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور[2].

وعن مُجَاهِدٍ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ الْآيَةَ. قال إنَّ المنافقين كانُوا مع المؤمنين أحياءً في الدنيا يناكحونهم ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتا، ويُعْطَوْنَ النُّورَ جميعًا يوم القيامة، فيُطفأ نورُ المنافقين إذا بَلغوا السُّورَ، يُمَازُ بينهم يومئذ، والسور كالحجاب في الأعْراف فيقولون: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[3].

وقال البقاعي: وسبب هذا القول أنَّهم يعطون مع المؤمنين نوراً خديعة لهم بما خادعوا في الدنيا، لتعظم عليهم المشقة بفقده؛ لأنَّه لا يلبث أن يبعث الله عليهم ريحاً وظلمة فتطفئ نورهم، ويبقون في الظلمة[4].

مما سبق يتضح أنَّ المنافقين يحشرون مع المؤمنين في البداية، ويعطون نورا مثلهم، ولذلك لم يذكرهم الرسول ﷺ في بعث النار أولا! وبيّن أنَّهم يلتحقون به بعد ذلك.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ١٨٧). وانظر: تفسير الطبري = جامع البيان: (٢٣/ ١٨٠).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان: (٢٣/ ١٨٢).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (١٠/ ٣٣٣٨).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: (١٩/ ٢٧٤). وانظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ١٧).

كما يتبين مما سبق بأنَّ الفرز يكون بهذه الخديعة، فالمنافقون سعداء بوجودهم مع المؤمنين، ويشعرون – لسفاهتهم - بأنَّهم خدعوا المؤمنين في الدنيا، وخدعوا ربهم في الآخرة! وسرعان ما ينطفئ نور المنافقين، ويبقى نور المؤمنين، وعندها يسأل المنافقون المؤمنين من أين هذا النور؟ فينادي مناد: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ ويكون هذا خدعة لهم كما كانوا يخدعون المؤمنين، فيرجعون إلى الوراء فيضرب الله بينهم بسور: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾. **وبضرب السور بين الفريقين ندخل في الفرز الثاني لبعث الجنة وبعث النار، ويصبح المؤمنون الصادقون وهم الأكثرية في جهة الرحمة في بعث الجنة، ويصبح المنافقون الأقلية في جهة جهنم مع بعث النار، وهذه عملية التبادل الأولى بين بعث الجنة وبعث النار، وسيأتي المزيد.**

٢ـ الأدلة من السنة النبوية على كون المنافقين في بعث الجنة في المحشر ثم فرزهم لاحقا

ومن الأدلة من السنة النبوية على أنَّ المنافقين يحشرون أولا في بعث الجنة، ما جاء في حديث طويل عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كان يومُ القيامة أذَّن مؤذِّن: لِتَتَّبِعْ كلُّ أُمَّة ما كانت تعبد... حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من برٍّ وفاجر،...فيأتيهم الجبّار...فيقول: أنا ربُّكم... فيسجد له كلُّ مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمُعة، فيذهب كيما يسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً[1].

(١) رواه البخاري: ١٣ / ٣٥٨ – ٣٦٠ في التوحيد، باب ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [ص: ٤٥٤] وفي تفسير سورة النساء، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾، وفي تفسير سورة ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾. ومسلم: رقم (١٨٣) في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

قال القرطبي: هذا المقام مقام هائل يمتحن الله تعالى فيه عباده؛ ليميز المحق من المبطل، وذلك أنَّه لما بقي المنافقون والمراؤون متلبسين بالمؤمنين والمخلصين، زاعمين أنَّهم منهم، امتحنهم الله ...وعند هذا يسجد الجميع، فمن كان مخلصا في الدنيا، صح له سجوده على تمامه وكماله، ومن كان منافقا أو مرائيا، عاد ظهره طبقة واحدة، كلما رام السجود، خرّ على قفاه (١).

وقد بين لنا سبحانه أنَّ المنافقين لا يُصلّون إلا رياء فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[سورة النساء: ١٤٢]. واضح مما سبق أنَّ فرز المنافقين في البداية يكون في بعث الجنة مع المؤمنين، ولكن في الفرز الثاني يلحقون ببعث النار قبل أن يدخل المؤمنون الجنة.

ثانيا: تصفيات بعث النار (حسب حقيقة الدين والتكليف)

وهم غير المؤمنين، القسم الأكبر من البشرية كما ظهر في الفرز الأول، وقد مر معنا أنَّ الله سبحانه أراد أن يكون هذا الفارق الكبير بين عدد المؤمنين وعدد غير المؤمنين، وأنَّ هذا كان من متطلبات الابتلاء لذرية آدم عليه السلام، والكلام الذي حان وقته هو أنَّ غير المؤمنين في الفرز الثاني منهم من أقيمت عليه حجة الرسالة؛ فهو معذب في النار، ومنهم من لم تقم عليه حجة الرسالة، وهؤلاء مهما كان حالهم وسلوكهم لا يمكن أن يُعذبوا؟! لأنَّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥]. وهذا عهد قطعه الله على نفسه، وتفضل به على خلقه، وصار هذا العهد لكثرة أدلته كلية عقدية يصطبغ بها الدين، ولا يمكن لنص مفرد أن يغيرها.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي: (١/ ٤١٦). وانظر: فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٤٥١).

ولذلك قال سبحانه عن غير المؤمنين فيما لو عذبهم قبل إرسال الرسول: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [سورة طه: ١٣٤]. ولمنطقية هذه الحجة العقلية راعاها التشريع؛ إذ ليس من العدل تعذيب الإنسان قبل تعليمه وتحذيره، ومن الطبيعي أن يتفق عليها العلماء:

قال الساعاتي: قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وهذه الآية هي التي أطبقت أئمة السنة على الاستدلال بها في أنَّه لا تعذيب قبل البعثة، وردوا بها على المعتزلة، ومن وافقهم في تحيكم العقل(١).

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

وقد قصّ علينا سبحانه تعجُّب الملائكة من جماعات الكفار المقتحمة لأبواب جهنم! فيسألهم خزنة جهنم من الملائكة عن السبب، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة الزمر: ٧١].

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة الملك: ٨-١١].

---

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للساعاتي: (٨/ ١٦٥). وانظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم لموسى شاهين (١/ ٤٩٠).

ويفهم مما سبق أنَّ الإنسان وإن كان يدرك وجود الله، ولعله يصل إلى توحيده عقلا، إلا أنَّ الله سبحانه تعهد بأن لا يحاسب الناس حسب دليل العقل وإنّما بالشرع الذي جاءت به الرسل.

فعن أبي هريرة مرفوعا: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». قال النووي: من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور وهذا جار على ما تقدم في الأصول أنَّه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح(١).

وقال القاضي أبو يعلى في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ في هذا دليل على أنَّ معرفة الله لا تجب عقلا، وإنّما تجب بالشرع، وهو بعثة الرسل، وأنَّه لو مات الإنسان قبل ذلك لم يُقطع عليه بالنار؛ لأنَّها لم تلزمه إلا بعد قيام حجة السّمع(٢).

وبناء على الحجة الرسالية سينقسم غير المؤمنين إلى قسمين: معذبين وغير معذبين. ولضرورة التمييز بين الكافر المعذب وغير المؤمن الذي لا يعذب، وأي الفريقين أكثر تعدادا، وأشياء أخرى تتعلق بالفريقين، لا بد أن نُعرّف ما الحجة الرسالية؟ وكيف تقوم على الخلق؟

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٨٨).

(٢) الفروع وتصحيح الفروع لابن مفلح المقدسي: (١٠/ ٢١٧).

الحجة الرسالية، وكيفية إقامتها على البشرية

الحُجة والبُرهان والبَيِّنة والآية

ألفاظ استعملها القرآن، في مخاطبته للبشرية ودعوتها إلى الدين الحق، يثبت من خلالها سبحانه ما أخبر به من أصول الدين مثل: الوحدانية والألوهية والربوبية والرسالة وغيرها. وهذه الألفاظ وإن كانت متقاربة إلا أنَّه توجد بينها فوارق لا بد من ملاحظتها لحساسية الموضوع.

فالحجة: هي الدليل والبرهان[1]. يقال: برهن عليه أي: أقام الحجة[2].

أما البرهان فهو: بيانٌ يَظهَرُ به الحَقُّ من الباطِل[3]. والظهور للطرف الثاني ركن ركين، لا تقوم الحجة والبرهان ولا البينة بغيره!! فالإنسان مكلف بعقله؛ ولذلك رفع التكليف والحساب عن المجانين.

فظهر أنَّ البرهان أقوى من الحجة، وأكثر حسما في الاستدلال. قال المناوي: فالبرهان آكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبدا لا محالة.

وفي عرف الأصوليين: البرهان: ما فَصَل الحق عن الباطل، وميّز الصحيح عن الفاسد بالبيان الذي فيه[4].

ولذلك وصف سبحانه حجته بأنَّها بالغة فقال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٩]. وهو وصف يجعلها حاسمة قاطعة للعذر، بوضوحها الشديد.

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأبي العباس الفيومي: (١/ ١٢١). وانظر: تهذيب اللغة للأزهري: (٦/ ١٥٧).

(٢) أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء لقاسم القونوي: ٨٨.

(٣) طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية: ١٣٤. وانظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأبي العباس الفيومي (١/ ٤٦).

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: ٧٤.

قال الطبري: ويعني بالبالغة: أنَّها تبلغ مراده في ثبوتها على مَن احتج بها عليه من خلقه، وقَطْعِ عُذْرِه إذا انتهت إليه فيما جُعِلت حجة فيه(١).

والفرق بين البرهان والدليل: البرهان: الحجة القاطعة المفيدة للعلم.

وأما ما يفيد الظن فهو: الدليل. ويقرب منه: الأمارة. ولذا أفحم سبحانه الكفار بطلب البرهان منهم فقال، وهو أصدق القائلين: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾(٢).

إلا أنَّ اللفظ الأكثر استعمالا وشهرة في القرآن الكريم هو: (البيّنة): قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٩٩]. وقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٤].

ولفظ البَيّنة: هو أقوى الألفاظ وأوضحها، فالبينة: من البيان والوضوح، والفصل بين الشيئين، فهي تفصل بين الحق والباطل. قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥] أي: ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها، دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقا بين الحق والباطل، والحلال، والحرام(٣).

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٢/ ٢١٢). وانظر: تفسير القرطبي: (٧/ ١٢٨). وتفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ١٩٦). ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: (٧/ ٣١٣).

(٢) معجم الفروق اللغوية = الفروق اللغوية بترتيب وزيادة للعسكري: ٩٧. والآية في: سورة البقرة: ١١١.

(٣) تفسير ابن كثير: (١/ ٥٠٢). وانظر: تفسير البغوي: (٥/ ٢٩٠). و تفسير الطبري = جامع البيان: (٤/ ٢٧١). و تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٢/ ١٦٥). وتفسير القرطبي: (٩/ ٥١). وطلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية للنسفي: ١٣٤.

وقال الزبيدي: البَيِّنَةُ: دَلالَةٌ واضِحَةٌ عَقْلِيَّة كانت أو مَحْسوسَة. وفي المَحْصولِ: البَيِّنَةُ: الحجَّةُ الواضِحَةُ[1].

إذًا **البينات**: أقوى من الحجج، وأوضح، فقد تكون الحجة مُفحمة ولكنها غير واضحة، وعليه فقد لا تقوم بها الحجة على الخلق؛ لأنَّها غير مفهومة، والله كلف الناس بعقولهم وبحدود مداركهم. وعليه فالحُجة المقصودة في كلامنا هي: (البينة) كما هي في الاستعمال القرآني، والحُجة لا تكون بيّنة ما لم تكن واضحة للطرف الثاني، وهو من يتلقاها، أي غير المؤمن. وفي حال لم يستوعبها لسبب ما كالعجمة أو ضعف العقل أو شيء آخر فلا تقوم بها الحجة، ولا يخرج بها غير المؤمن من دائرة العذر، وكأنَّه لم يُبلّغ.

وليست الحاجة كبيرة لاستيعاب الفروق بين هذه الألفاظ، إذ القرآن الكريم خاطب الكفار بها جميعا، فكل المعاني السالفة مطلوبة في خطاب التبليغ لإقامة الحجة على غير المؤمنين. قال تعالى:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٩].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [سورة النساء: ١٧٤].

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٤].

وكانت هذه البراهين والحجج الشرعية بالغة الدلالة عند الطرف الثاني، لدرجة أنَّ علماء أهل الكتاب عرفوا دلائل بعثة الرسول محمد ﷺ كما عرفوا أبناءهم!! قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ

(١) تاج العروس للزبيدي: (٣٤/ ٣١٠).

﴿فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٦].

ولم يُسم سبحانه الحُجج التي خاطب بها غير المؤمنين دليلا؛ لأنَّه الأضعف في الدلالة وإلجام الخصم، وحُجج الله سبحانه تليق بها الألفاظ الأكثر قوة في الاستدلال.

وأما كلمة: (آية): فهي أقرب إلى العلامة، ولذلك توصف بأنَّها علامة واضحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٩٩]. وقال: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [سورة البقرة: ٢١١]. وهي بهذا العموم تشتمل على كل ألفاظ الدلالات السابقة.

ومن خلال المعاني السابقة يتضح أنَّ الله سبحانه ما زجّ بالكفار في نار جهنم لمجرد إشاعة سمعوها عن الإسلام! أو (نكتة) عنه! أو لمجرد تلاوة للقرآن! أو مقالة، أو... لأنَّ هذه الأمور لا تصل في دلالتها عند الطرف الثاني إلى ما وصف الله به أدلته وحُججه القاطعة للعذر، النافية للجهل، المثبتة للعلم بشكل يُلجم الخصم بالحجة، ويقنع عقله. فليس سهلا ولا عدلا أن يُدفع بأكثر البشرية إلى جهنم، وهم غارّون غافلون، غير واعين لما يجري، ولا مدركين لعواقب فكرة عابرة عن الإسلام لامست أسماعهم يوما ما، وقد تكون مُشوّه!

بم تقوم حجة الرسالة؟ وكيف؟

الحجة تقوم بالمعجزة لمن حضرها، وبخبرها لمن لم يحضرها

الدين الحق الذي لا يقبل الله سبحانه غيره هو: الإيمان بالله وتوحيده والخضوع له. أما الرسل الذين أرسلهم سبحانه فمهمتهم نقل وتبليغ هذه الحقيقة للعباد، وتعليمهم كمال هذا الإيمان، وكيفية الخضوع له سبحانه عن طريق الشرائع.

والفرق كبير بين إثبات وجود الله ومعرفته، وبين إثبات الرسالة لمن يختاره سبحانه من البشر، فمعرفة الله وإن كانت لا تجب بغير الشرع إلا أنَّها يمكن أن تثبت بالعقل، فهذا الكون بكل جزئية فيه يدل على هذا الخالق الحكيم العليم القادر.

أما الرسالة فلا تثبت بالعقل! وإنّما بالشرع، وأقصد أنَّ الرسول لا بد أن يُخبر الناس باصطفاء الله له، وأنَّ الله قد اختاره رسولا مبلغا عنه ما يريده من عباده، ولما كان الرسول في الظاهر يشتبه حاله بحال بعض المصلحين أمثال بوذا وكونفوشيوس وغيرهم من العباقرة والمخترعين، بل والمدعي الرسالة كذبا؛ كان لا بد من وسيلة للتفريق بينه وبين هؤلاء، ومن دليل يثبت فيه أنَّه يتلقى عن الله سبحانه، وعليه فكان لا بد لهذا الدليل أن يكون من عند من أرسله، وهو الله سبحانه، فكانت المعجزة هي الدليل الذي يأتي به الرسل لإثبات تمَيُّزهم عن غيرهم، فبالإعجاز يعجز الآخرون، ويُصدّق الرسول في دعواه، ويكون أول من يصدقه ربه الذي أيّده بالمعجزات. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: ١].

قال أبو زيد: الإيمان بالأنبياء عليهم السلام لم يجب بنفس الدعوة؛ لاحتمال الصدق والكذب حتى تقوم المعجزة[1].

وقال البيهقي: وقد سلك بعض مشايخنا رحمنا اللهُ وإياهم في إثبات الصَّانِع، وحُدُوثِ العالَم طريق الاستدلال بمقدمات النبوّة، ومعجزات الرسالة؛ لأَنَّ دلائلها مأخوذة مِن طريق الحِسِّ لمن شاهدها، ومِنْ طَريقِ استِفَاضَةِ الخبر لمن غابَ عنها، فلما ثبتت النُّبوَّةُ صارت أصْلًا في وُجُوبِ قَبُولِ ما دَعا إليه النَّبِيُّ ﷺ، وعلى هذا الوجه كان إيمَانُ أكثرِ المُسْتَجِيبِينَ للرُّسِلِ صلوات اللهِ عليهم أجمعين[2].

وهذا أصل متفق عليه بين العلماء ولا يحتاج لمزيد بيان.

والمعجزة الرسالية تختلف من رسول لآخر حسب ثقافة بيئته، فمعجزة موسى عليه السلام العصا واليد، ومعجزة عيسى إحياء الموتى، ومعجزة الرسول ﷺ القرآن الكريم. فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسولُ الله ﷺ: ما من نبيّ من الأنبياء إلا أُعْطِيَ من الآياتِ ما مثلُه آمَن عليه البشر، وإنَّما كان الذي أُوتيتُه وَحْياً أَوْحَاهُ الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً يوم القيامة[3].

قال الآمدي: القرآن هو المعجزة الدَّالَّةُ على صِدْقِهِ عليه السلام قطعا، ومع عَدَمِ بُلُوغِهِ إلى مَنْ لم يُشَاهِدْهُ بِخَبَرِ التَّوَاتُرِ لا يكون حُجَّةً قَاطِعَةً بالنِّسبةِ إليه، فلا

---

(١) تقويم الأدلة في أصول الفقه لأبي زيد الدبوسي: ٣٨٩. وانظر: شرح المعالم في أصول الفقه لابن التلمساني: ٢/ ١٣٨.

(٢) الاعتقاد للبيهقي: ٤٥. وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض: ١/ ٤٦٨.

(٣) رواه البخاري: ٩ / ٥ و ٦ في فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، وفي الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم». ومسلم رقم (١٥٢) في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ.

يكون حُجَّةً عليه في تصديق النَّبِيِّ عليه السلام[1].

ومعجزة الرسول ﷺ متميزة عن معجزات الأنبياء بأنَّها باقية محفوظة إلى قيام الساعة؛ لأنَّ الرسول ﷺ خاتم النبيين، فبقاء المعجزة ضروري لاستمرار قيام الحجة على العالمين. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩]. وبين لنا سبحانه على لسان رسوله أنَّه كان يُنذر بالقرآن فقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٩]. أي ومَن بلغه القرآن الكريم.

كيفية قيام حُجّة الرسالة

تقوم الحجة بالمعجزة على من حضرها، وبالخبر الموثوق على من غاب. قال القاضي عياض: طريق معرفة الرسول والإيمان به ﷺ مشاهدة معجزته وصدقه أيام حياته، أو صحة النقل بذلك والخبر لمن لم يشاهده وجاء بعده[2].

ولما كانت رسالات الأنبياء السابقين مؤقتة زمنيا، ومحدودة مكانيا، كانت معجزاتهم غير خالدة، فتموت المعجزة بموت الرسول! وبعد فترة من الزمن يَندرس الدين، وتضيع الحُجة عن العباد، ويحتاج الناس إلى رسول جديد. أما في حال رسالة النبي محمد ﷺ فهي خالدة إلى قيام الساعة، وشاملة لكل الخلق، وإنما الغياب يكون عن شخص الرسول ﷺ وليس عن معجزته فهي باقية ببقاء القرآن الكريم.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: (١/ ١٦١). وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية: ٢/ ٢٩٣. والتقرير والتحبير على تحرير الكمال بن الهمام: (٣/ ٣١٣). والمستصفى للغزالي: ١٤٨.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض: (١/ ٤٦٨). وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية: ٥/ ٣٨٧.

وعليه فتقوم الحجة على العالمين بالقرآن الكريم، وبالأخبار عن الرسول ﷺ، وقد قال الرسول ﷺ: والذي نفسُ محمد بيده، لا يسمعُ بي أحد من هذه الأمَّةِ - يهودِيّ ولا نصرانيّ- ثم يموت ولم يُؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به، إلا كان من أصحابِ النَّار[1].

فبين الرسول ﷺ أنَّ الحجة يمكن أن تقوم بالإخبار عنه ﷺ، وهذا كان حال بعوثه ﷺ إلى الملوك والبلدان لتبليغ الرسالة، فلو لم تقم بها الحجة لما أرسلهم.

ولكن هل المقصود مجرد السماع عن الدين الصحيح؟

لو كان مجرد السماع بالرسول تثبت به الحجة، لكان من الواجب علينا أن نؤمن بكل من ادعى النبوة من البشرية دونما تمحيص! وما أكثرهم ولا يزال هناك مَن يدّعيها! ولمَا كان هناك مبرر لقتال مسيلمة الكذاب أو سجاح أو طليحة الأسدي[2] وغيرهم من دجاجلة مدعي النبوة. وإنّما لهذا السماع مواصفات، وضوابط لا بد منها لئلا يختلط الصدق بالكذب، والحق بالباطل.

- فمَن يبَلِّغ الدين عن الرسول ينبغي أن يكون **صاحب حجة وبينة تحسم الجدال وتقطع الشّبهة، وتثبت العلم**، وقد بينتُ سابقا معنى الحجة والبرهان والبينة التي تقوم بها الحجة على الخلق، وإلا فالناس معذورون

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة: رقم (١٥٣) في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

(٢) طليحة بن خويلد الأسدي، من أسد خزيمة: متنبئ، شجاع، قدم على النبي -صلّى الله عليه وسلم- في وفد بني أسد، سنة ٩ هـ وأسلموا. ولما رجعوا ارتدّ طليحة، وادعى النبوة، في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وبعد وفاة الرسول r قاتله خالد، ففرّ إلى الشام. ثم أسلم بعد أن أسلمت أسد وغطفان كافة. ووفد على عمر، فبايعه في المدينة. وخرج إلى العراق، فحسن بلاؤه في الفتوح. واستشهد بنهاوند سنة: ٢١هـ. الأعلام للزركلي (٣/ ٢٣٠).

حتى تأتيهم الحجة البالغة كما قال سبحانه.

قال ابن القيم: فإن الإنذار إنّما يقوم بالحجة، فمن لم تقم عليه الحجة لم يكن قد أُنذر، كما أنَّ النَّذير من أقام الحجة، فمن لم يأت بحُجة فليس بنذير[1].

- كما أنَّ إقامة الحجة على الناس لا بد أن يتخللها بيان باهر، ومناقشة علمية دقيقة يستوعبها المدعو، وتدفع عنه الشبه المفسدة. قال ابن تيمية: وإذا كان النَّبِيُّ ﷺ يُحَاجُّ الكفار بعد نزول الأمر بالقتال، وقد أَمَرَهُ اللهُ تعالى أن يُجِيرَ المُسْتَجِيرَ حتى يَسْمَعَ كلام اللهِ ثم يُبْلِغُهُ مأمَنَهُ، والمراد بذلك: تبليغ رسالات اللهِ، وإقَامَةُ الحُجَّةِ عليه، وذلك قد لا يَتمُّ إلا بِتَفْسِيرِهِ له الذي تَقُومُ به الحُجَّةُ، ويُجاب به عن المُعَارَضَةِ، وما لا يتمّ الوَاجِبُ إلَّا به فهو واجبٌ[2].

وقصد ابن تيمية أنَّ الناس في الجزيرة لا يزالون يحتاجون إلى بيان عن الدين حتى بعد السنة التاسعة من الهجرة التي نزلت فيها سورة التوبة، وفيها الآية التي أشار إليها ابن تيمية وهي: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

ولذلك لم يحمل العلماء الحديث السابق (لا يسمع بي أحد من هذه الأمة) على مجرد السماع، وإنّما اشترطوا تبين المعجزة التي تثبت بها الرسالة.

قال ناصر الدين البيضاوي: ومعنى الحديث: أنَّ كل أحد من هذه الأمة يسمع بي وتتبين له معجزتي، ثم لم يؤمن برسالتي، ولم يصدقني في مقالتي، كان من أصحاب النار، سواء الموجود ومن سيوجد[3].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين للابن القيم: (٣/ ٥٦٦). وانظر الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: ٢/ ٤٣. والرسالة للشافعي: ١/ ٤٣٨.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (١/ ٢٣١).

(٣) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة للبيضاوي: (١/ ٤٤). وانظر: لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح لعبد الحق الدهلوي: ١/ ٢٣٠.

وعليه فالحديث يدل على المراد بدلالة الاقتضاء وهي: وتبين له معجزتي. ولذلك قال الأمير الصنعاني: لا عذاب إلا بإقامة الحجة، ولا تقوم إلا على من عرفها[1]. وهذا التفسير يتفق مع ما مضى من تعريف الحجة والبينات، ويتفق مع لفظ: (ثم) في الحديث الشريف: (ثم يموت ولم يؤمن بي)؛ لأنَّها هنا تفيد الاستبعاد، وقبح من كفر بعد تبيُّن المعجزات والحقائق، ولا يكون الاستبعاد والقبح في مكانه لو أنَّه كفر لمجرد السماع!

قال الطيبي: والوجه أن يقال: إنّ (ثم) هذه للاستبعاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [سورة السجدة: ٢٢] يعني ليس أحد أظلم ممن بُيّنت له آيات الله الظاهرة والباطنة، ودلائله القاهرة، فعرفها ثم أنكرها، أي بعيد ذلك عن العاقل[2]. ومن الطبيعي أن يأخذ الإنسان حقه في التقصي والتأمل والتفكر والمحاورة والمجادلة، وعرض الشبهات وما شابه ذلك، فإنّ الدين أعز شيء على الإنسان، والناس لن يتركوا دينهم بسهولة، كما أنَّنا لا نريد أن نُدخل أكثر البشرية بسوء فهمنا في جهنم بسهولة! ثم نقول: رحمة الله غلبت غضبه!

قال عقيل القضاعي: ويحتاج النبي المرسل للأمم إلى زمان يبين فيه رسالته عن الله، ويتمكن فيه من إظهار معجزته، ويحتاج المُرَسل إليهم من الزمان إلى مثل ذلك، حتى ينظروا في المعجزة التي تحدى بها رسولهم؛ ليصدقوه في الرسالة، أو تقوم عليهم الحجة لتمكنهم من النظر.

فقد دعا النبي ﷺ أهل مكة إلى الله تعالى في عشر سنين أو أزيد، وهو في كل ذلك يتلو عليهم القرآن ويسمعهم إياه. ثم إنّه ﷺ أخذ يدعو قبائل العرب إذا

(١) التنوير شرح الجامع الصغير للأمير الصنعاني: (٦/ ٣٣٤).

(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن للطيبي: (٢/ ٤٤٩).

حضر الموسم، ويعلمهم أنَّه رسول الله إلى الناس، ويسألهم النصر له حتى يُبلغ عن الله ما أمره به، وهذا كله يحتاج إلى طول تكون المراودة فيه بينه وبين الناس.

ثم توجه ﷺ إلى الطائف فدعاهم إلى الله فلم يجيبوه، ثم حاصرهم بعد مدة فلم يجيبوه، ثم هداهم الله للإسلام بعد ذلك.

وكذا كان دعاؤه إلى الله بعد الهجرة في عشر سنين، كتب فيها إلى الملوك وأرسل إليهم رسله وأقام الحجة على البشر، فلما فتح الله عليه مكة أظهر الله دينه وأعز نصر نبيه حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وأمحى رسم الجاهلية بالكلية، واضمحل الباطل وارتفع الإشراك، وأعقب الله ذلك كله بالإيمان والإسلام.

وهكذا جرت عادة الله تعالى بين الأنبياء الذين أرسلهم إلى الخلق، وبين الأمم الذين بعثهم إليهم في احتياج جميعهم إلى زمان تطول فيه المراودة بينهم والنظر فيما جاءوا به، وذلك مذكور في أقاصيص الأنبياء في القرآن مثل: نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى عليهم السلام، ومن تأمل قصصهم تبين له ذلك(١).

وهنا قد يثور إشكال!

لقد قامت الحجة على العرب بهذا الوقت الطويل، ومع ذلك اكتفى الرسول ﷺ برجل يرسله إلى أماكن بعيدة لتبليغ الدين بزيارة واحدة! ليُقيم الحجة، فكيف كان ذلك؟

والجواب أنَّه لا يوجد تعارض ألبتة:

---

(١) تحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمآل لعقيل بن عطية وأبو عبد الله الحميدي: (٢/ ٦١٧).

١- فبدعوة الرسول ﷺ الطويلة ومثله ما فعله الرسل من قبل، كانت تقوم الحجة على وجه التمام، فيتم تفهيم الناس أمر الرسالة على أحسن حال، فيفهمونها، ويتم الرد على شبهاتهم، ويقاتلون حينا ويصالحون حينا، إلى أن يستقر الأمر على إيمان من كتب الله له ذلك. ومن كفر لم يكن له عذر في الدنيا، فهو كافر قد أقيمت عليه الحجة. ويغلب على ظننا أنَّه من أصحاب النار إذ تم دفع شُبَهِه، والتدليل على الحق بشكل كامل. وقلت: (يغلب على ظننا) ولم أجزم؛ لأنَّنا لا نجزم بالجنة والنار لأحد ما لم يُذكر اسمه في نص بعينه، وإنما نقول على العموم: الكفار في النار. ولا نقصد كل واحد منهم. ولا ندري ما بينهم وبين الله، فقد نرى أنَّ الحجة قامت عليهم، والله يعلم خلاف ذلك، لعارض ما يعلمه الله ولا نعلمه.

٢- وبما أرسله من أفراد الرسل إلى الملوك والبلدان، وقامت بهم الحجة على من أرسلوا إليه عند العلماء. فالمقصود به ليس تمام الحجة كما في المثال الأول، وإنما التبليغ المعتبر المُعتدّ به، كونه من ممثل الرسول ﷺ، فهو تبليغ جاد من إنسان فاهم لما يقول، فعندما نقول: قامت على هذا الحجة، نقصد أنَّنا بلغناه، ويستطيع هو أن يستفسر لو أراد، وهو ممَكّن من معرفة التفاصيل لو أراد، فيكون قد أقيمت عليه الحجة بأمرين: بالخبر الجاد الذي يدعو إلى التثبت والتعرف، وبالقدرة على التبين والمعرفة. فهو عندنا قد أقيمت عليه الحجة بهذا. فلو مات من حينه، ولم يُمهله الله للتثبت والتبين، فيغلب على ظننا أنَّه غير مُعذَّب؛ لأنَّ الحجة لم تستوف شروطها ولوازمها، وتنفي ما يضادها من شبهات واعتراضات.

قال ابن تيمية: والحجة على العباد إنّما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من

العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به[1].

وتجدر الإشارة إلى مسألة مهمة وهي أنّنا نقيم الحجة على الناس في الدنيا، ونحن لم نطلع على قلوب العباد، فقد يستجيب لنا منافقون لخدعتنا!! وقد نظن بأنَّ حجتنا وأدلتنا قوية قاطعة، ولكنها مع ذلك دون مستوى فلان السامع الذي كان له من الشبهات ما يمنعه من الاقتناع، أو مستواه العقلي، وعليه فلا نحكم على بشر أنَّنا أقمنا الحجة عليه بمعنى أنَّه صار من أهل النار، فنحن نقول: قد بلغنا. والحجة هل قامت أم لا؟ هذه علمها عند الله، لما لها من تفاصيل في العقول والقلوب، والله أعلم بها. قال ابن القيم: الله يقضى بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو بعينه قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه[2].

ولما كانت أحوال الناس شتى، وعقولهم مستويات، وثقافاتهم كذلك، وشبهاتهم متنوعة، لم يكن ممكنا أن نُعمّم تقييما واحدا لوصول الحجة على الجميع، وللتوضيح أقول: لو اجتمعتَ بأناس من غير المسلمين، وألقيتَ عليهم محاضرة لتبليغهم الدين، ولِتُقيم عليهم الحجة، فبكى منهم اثنان من شدة التأثر وآمنا، وناقشك بعضهم وآمن، وبقي آخرون مثقفون عنيدون لم يؤمنوا. وقد يتكرر هذا في بلد آخر ويكون التجاوب أكبر، وفي بلد ثالث تكون النتيجة صفرا. فالناس ليسوا سواء بثقافاتهم وعقولهم ومعارفهم واهتماماتهم وتمسكهم بدينهم. وكل هذا ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٢٠/ ٥٩). وانظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم: (١/ ٢٣٢). والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: ٥/ ١١٧.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم: ٤١٣.

قال ابن القيم: إنّ قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص؛ فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أُخرى، كما أنَّها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمان يترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئاً، ولا يتمكن من الفهم(١).

وبالنظر في حال غير المؤمنين بعد أن أدركنا بعض التفاصيل عن حجة الرسالة وكيفية قيامها على البشر، نجدهم قد انفرزوا إلى قسمين:

١- كفار أقيمت عليهم حجة الرسالة، وهم معذبون، لكنهم أقلية

٢- غير مؤمنين لم تقم عليهم حجة الرسالة، وهم أكثرية

سبق أن ذكرت أنَّ الله شاءت حكمته أن يكون أكثر هذا الكوكب من غير المؤمنين، ليبتلي بهم القلة من عباده المؤمنين، فتدور بين الفريقين احتكاكات وجولات، يستأسد فيها الباطل، وينشب مخالبه في مقاتل العصبة المؤمنة، ويشدّ على أنفاسها، محاولا أن يحجب عنها الهواء لو استطاع، فتلقنه العصبة المؤمنة دروسا في الثبات والفداء ما عرف الكوكب لها نظيرا، وتُظهر له بأنَّ المبادئ والعقائد أغلى من الدنيا وما فيها، وأنَّ ما عند الله خير وأبقى. ويكون ثبات العصبة المؤمنة مثار إعجاب وذهول من كثير من غير المؤمنين، ومدعاة للإعجاب بدين العصبة، وكمال أخلاقها وجمال مبادئها.

وكون غير المؤمنين أكثرية واضح من كونه سبحانه:

أولا: لَم يشأ سبحانه أن يُكثّف انتشار الرّسل في الكوكب

الظاهر أنه سبحانه كان يرسل الرسل في مراكز المدن الكبيرة، وفي أصل القوم، فتبقى أطراف المدينة وما يتبعها من القرى والبوادي تحت رحمة

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم: ٤١٤.

المجرمين الذين يحاربون وصول الدعوة إلى هذه الأماكن، ويستميتون لدفنها في مهدها.

فقد قال الله سبحانه لرسوله محمد: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٥١]، وإن كان يُفهم من الآية تكريم الرسول ﷺ بالاكتفاء به، ولكن هذا لا يُغير من الواقع شيئا، وهو أنَّ باقي الأماكن لم يكن فيها رسُل، وهي بانتظار أن يأتيها أي خبر عن الرسول ﷺ(١)!! ولا شك لو كان هناك خمسون أو سبعون ألف رسول موزعين على المدن في أرجاء الكوكب لهانت الدعوة كثيرا، وتغيرت نسبة المؤمنين وغير المؤمنين في الكوكب، وقد سبق أن أرسل الله سبحانه من قبل أكثر من رسول في وقت واحد.

قال الطبري: ولو شئنا يا محمد لأرسلنا في كل مصر ومدينة نذيرا ينذرهم بأسنا على كفرهم بنا، فيخف عنك كثير من أعباء ما حمّلناك منه، ويسقط عنك بذلك مؤنة عظيمة(٢). ولا شك كان انتشار الإيمان أكثر، فإنّ بعض العرب لم يكن سمع بكلمة (نبي)، فعن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال: قال عمرو بن عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: كنتُ وأنا في الجاهلية أظُنُّ أنَّ الناس على ضلالة، وأنَّهم لَيْسُوا على شيء، وهم يَعْبُدُون الأوثان، فسمعتُ برَجُل بمكةَ يُخْبِرُ أخْباراً، فَقعَدتُ على راحِلتي، فقَدِمْتُ عليه، فإذا رسول الله ﷺ مُسْتَخْفِياً، جُرآء عليه قومه، فَتَلَطَّفْتُ، حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنتَ؟ فقال: أنا نبي. فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله(٣).

(١) راجع: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: (٢٤/ ٤٧٤). وانظر: تفسير الطبري = جامع البيان: (١٧/ ٤٧٠).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٧/ ٤٧٠). وانظر: تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ١٢٧). وتفسير القرطبي (١٣/ ٥٨).

(٣) رواه مسلم: رقم (٨٣٢) في صلاة المسافرين، باب إسلام عمرو بن عبسة.

فالرسول محمد ﷺ موجود في بقعة محددة، وتوفي قبل أن ينتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، بل في المدينة من لا يعرف شخص الرسول ﷺ وكثيرا من أحواله: فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: أَنَّ النبي ﷺ أتى على امرأة تبكي على صبيٍّ لها، فقال: اتقي الله، واصبري. فقالتْ: وما تُبَالي بمصيبتي! فلما ذهب قيل لها: إِنَّهُ رسولُ الله ﷺ، فأخذها مثلُ الموت، فأتت بابَه، فلم تجد على بابه بَوَّابين، فقالتْ: يا رسولَ الله، لم أعرِفْكَ. قال: إِنَّما الصبر عند أَوَّلِ الصَّدْمَةِ. وفي رواية أَنَّها قالت: إليكَ عَنِّي، فإنّك لم تُصَبْ بمصيبتي، ولم تعرفه[1]. فهذه المرأة تفاجأت بعدم وجود البوابين؛ ظنا منها أَنَّه على عادة الملوك في اتخاذ البوابين!!.

قال النسفي: لأَنَّه لو بُعث في كل قرية نذير لوجب على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم، فقال له: وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكل مجاهدة[2].

وهذا يردنا إلى ما كنا نقول: بأَنَّ الله شاء أن يكون الأغلبية غير مؤمنين ليمتحن المؤمنين به، كما يمتحن الرسل، فيطلب من الرسول ﷺ ومن آمن معه مواجهة غير المؤمنين، في كل القرى والمدائن والبلدان، والبشرية جمعاء في كامل الكوكب إلى قيام الساعة.

---

(١) رواه البخاري: ٣ / ١٣٨ في الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى، وباب قول الرجل للمرأة عند القبر: اصبري، وباب زيارة القبور. ومسلم رقم (٦٢٦) في الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى.

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل: (٢/ ٥٤٣). وهذا القول تجده في غالب كتب التفسير على اختلافها.

ثانيا: كثرة وطول الفترات بين الرسل

كتب التاريخ والحضارات لا تذكر تلك الكثرة من الأنبياء! ولا تحدثنا عن شعوب مؤمنة! بل جُلها الساحق من الجانب الديني يتحدث عن أُمم مشركة تعبد غير الله، أو تعبده وتعبد معه آلهة أخرى، ولو بحثت عن الرسول موسى أو عيسى- عليهما السلام- في علم الآثار والنقوش الحديث لما وجدت لهما ذكرا!! فكيف تجد ما هو أبعد من ذلك!! وأما الوثائق الآشورية فلا يوجد فيها أي أثر لفترة داود وسليمان -عليهما السلام- التي يعتد بها اليهود، وكذلك النصوص المصرية لا ذكر فيها لداود وسليمان ودولتهما(١). ولو لم يذكر القرآن الكريم أسماء الأنبياء لما استطاع بشر أن يثبت رسالتهم!! وهذا من فضل القرآن على الأديان.

وهذه الظاهرة التاريخية ليست متعارضة مع الظاهرة القرآنية! بل يؤكدها سبحانه من خلال قلة انتشار الرسل كما ذكرت في العنوان السابق، ومن خلال كثرة الفترات بين الرسل، وطولها إلى درجة أنَّ الدين الأول تضيع أصوله وفروعه، فلا تقوم به حجة على الخَلق فتشملهم الرحمة، قال الغزالي: أنَّ الرحمة تشمل كثيراً من الأمم السالفة، وإن كان أكثرهم يُعرضون على النار إما عرضة خفيفة، حتى في لحظة، أو في ساعة، وإما في مدة، حتى يطلق عليهم اسم بعث النار(٢).

وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ

---

(١) راجع: مصر الفرعونية لأحمد فخري: موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ق. م: ٤١٨ - ٤٢٠. ووثائق إيبلا ـ د.عفيف بهنسي، دمشق / ١٩٨٤م: ١٥ وما بعدها، و١٢٠ وما بعدها. وراجع كتاب: د.محمد أبو زيد أبو زيد (المؤلف): أرض الميعاد: نظرة قرآنية في العهود التوراتية: ١٠٢ وما بعدها.

(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة - أبو حامد الغزالي: ٨٤.

﴿فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [سورة المائدة: ١٩].

وتقدر الفترة بين الرسول محمد ﷺ وبين عيسى بـ ٦٠٠ سنة، فعن سلمان – رضي الله عنه – قال: فَتْرَةُ ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: ستمائة سنة(١). وقال ابن حجر: جمهور أهل المعرفة بالأخبار قالوا: إنّ مدة الفترة بين عيسى ونبينا ﷺ ستمائة سنة(٢). وثبت عن الرسول ﷺ أنَّ هذه الفترة لم يكن فيها رُسُل، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نَبِيّ(٣).

قال ابن حجر: واستُدل به على أنَّه لم يُبعث بعد عيسى أحد إلا نبينا ﷺ، وفيه نظر؛ لأنَّه ورد أنَّ الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة يس(٤) كانوا من أتباع عيسى، وأنَّ جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيين، وكانا بعد عيسى. والجواب: أنَّ هذا الحديث [حديث أبي هريرة السابق الذي يثبت الفترة بين عيسى ومحمد] يُضَعِّف ما ورد من ذلك؛ فإنه صحيح بلا تردد، وفي غيره مقال(٥).

ومما يؤكد أنَّه ليس بين عيسى عليه السلام وبين الرسول محمد ﷺ نبي قوله تعالى:

(١) رواه البخاري: ٧ / ٢١٦ في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب إسلام سلمان الفارسي.

(٢) فتح الباري لابن حجر: (٢/ ٤٠).

(٣) رواه البخاري: ٦ / ٣٥٣ و ٣٥٤ في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، ومسلم رقم (٢٣٦٥) في الفضائل، باب فضل عيسى ﷺ.

(٤) يقصد قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

(٥) فتح الباري لابن حجر: (٦/ ٤٨٩). وانظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني: (١٦/ ٣٦). وشرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: (٥/ ٤١٦). وشرح المصابيح لابن الملك: (٦/ ١٧٣).

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الصف: ٦].

فقال عيسى عليه السلام أنَّ الذي بعده هو الرسول محمد ﷺ.

والملفت للنظر هنا أنَّ عيسى عليه السلام ليس من أنبياء العرب أصلا، فلم يُبعث فيهم، إنما بُعث في بني إسرائيل في فلسطين، وهذه لفتة مهمة، وهي أنَّه ﷺ عندما نفى وجود رسول بينه وبين عيسى لم يقصد العرب؛ لأنَّ عيسى لم يكن فيهم أساسا، فيكون نفيه الرسالة بشكل عام، يعني لم يكن في الكوكب رسول بعد عيسى عليه السلام إلا الرسول محمد ﷺ.

ويؤيد هذا ما رواه عياض بن حمار المجاشعي - رضي الله عنه - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتَهم، عَرَبَهُم وعَجَمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب[1]. فالحديث صريح في خلو الكوكب من الرسالة لفترة من الزمن، قبل مبعث الرسول ﷺ. ولا شك أنَّ هذا يزيد كثيرا في تعداد أهل الفترات لثلاثة أسباب:

الأول: طول هذه الفترة ليصل إلى ٦٠٠ سنة.

الثاني: انقطاع الرّسل في هذه الفترة عمّ كامل الكوكب.

الثالث: تعداد سكان الكوكب بعد مبعث عيسى عليه السلام أكثر بأضعاف كثيرة من تعدادهم إبّان قرون البشرية الأولى، وهذا بنظري يجعل هذه الفترة متميزة بكثرة أهلها عن الفترات التي مرت على البشرية من مبعث آدم إلى زمن عيسى عليه السلام.

وبعد كل هذا الطول بُعث في البشرية جمعاء رسول واحد هو الرسول محمد ﷺ، ومعلوم أنَّ وسائل التواصل لم تكن بالقدر الذي ينفع كثيرا في إقامة الحجة على العالمين، فكم سيكون عدد من لم تبلغه الدعوة، أو بلغته مشوهة؟

(١) رواه مسلم: رقم (٢٨٦٥) في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

وأما العرب الذين بُعث فيهم الرسول محمد ﷺ في مكة المكرمة، فالذي كان قبله من الرسل هو إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام-، وقد كان بينه وبين الرسول محمد ﷺ نحو ٢٠٠٠ عام، دُفنت فيها أجيال كثيرة، قال تعالى في العرب:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة القصص: ٤٦].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة السجدة: ٣].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٥-١٥٧].

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة يس: ٦].

قال الزجاج: و(ما) في جميع الموضعين نَفْيٌ، أي لم يشاهدُوا هُمْ ولا آباؤهم نبيًّا(١).

وفي تفسير مجمع البحوث الإسلامية: قال العلامة ابن حجر [الهيتمي] في المنح المكية: من المقرر أنَّ العرب لم يُرسل إليهم رسول بعد إسماعيل عليه السلام، وأنَّ إسماعيل انتهت رسالته بموته.

ونزيد على ذلك: إن إسماعيل أرسل إلى العرب العاربة، أما العرب المستعربة التي نشأت بعد إسماعيل من ذريته، فلم يُرسل إليهم سوى

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٤/ ٢٠٤). وانظر: التفسير البسيط للواحدي: (١٨/ ١٣٤). وغرائب التفسير وعجائب التأويل لتاج القراء: (٢/ ٩٥٦). وتفسير البغوي: (٤/ ٥). وتفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٢٦٣). وتفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٣). وتفسير ابن كثير: (٦/ ٥٦٣).

محمَّد ﷺ، وقريش من ذريتهم[1].

ولا بد من ملاحظة أنَّ من لم تبلغه الدعوة، أو بلغته مشوهة جدا، له حكم أهل الفترة ولو عاصر الرسول، كمن يسكن في البوادي والأطراف، أو بسبب لغة، فالرسول مكث ١٣ سنة في مكة يدعو إلى الإسلام، والناس في فارس والروم عاصرته، ولكنها لم تسمع منه شيئا، ومات الكثير حتى في جزيرة العرب، والرسول موجود بينهم ولم تصلهم الدعوة كما ينبغي أن تصل إلا متأخرة.

قال الغزالي: وأما من سائر الأمم فمن كذبه بعدما قرع سمعه بالتواتر عن خروجه، وصفته، ومعجزاته الخارقة للعادة، كشق القمر، وتسبيح الحصا، ونبع الماء من بين أصابعه، والقرآن المعجز الذي تحدى به أهل الفصاحة، وعجزوا عنه، فإذا قرع ذلك سمعه، فأعرض عنه، وتولى ولم ينظر فيه ولا يتأمل، ولم يبادر إلى التصديق، فهذا هو الجاحد الكاذب، وهو الكافر، ولا يدخل في هذا أكثر الروم والترك الذين بعدت بلادهم عن بلاد المسلمين[2].

وقال القاضي عياض: إنّ مَن في أطراف الأرض، وجزائر البحر المقطعة ممن لم تبلغه دعوة الإسلام، ولا أمر النبي ﷺ، أنَّ الحرج عنه في عدم الإيمان به ساقط لقوله ﷺ: «لا يسمع بى»[3]، إذ طريق معرفته والإيمان به ﷺ مشاهدة معجزته، وصدقه أيام حياته، أو صحة النقل بذلك والخبر لمن لم يشاهده وجاء بعده[4].

---

(١) التفسير الوسيط – مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر: (٧/ ١٧٧٨)، (٨/ ٣٤٥). وانظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي: (٨/ ٤٢٩).

(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي: ٨٦.

(٣) سبق ذكر الحديث وتخريجه وأقوال العلماء فيه.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض: (١/ ٤٦٨). وانظر: الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم لمحمد الهرري: (٤/ ٨٧). وفتح المنعم شرح صحيح مسلم لموسى شاهين: (١/ ٤٩٠). ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري: (١/ ٧٧).

وقال النووي: من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، وهذا جار على ما تقدم في الأصول أنَّه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح. والله أعلم[١].

ومن لم تبلغه الدعوة موجود في كل زمان ومكان، حتى في أيامنا هذه وإلى قيام الساعة. قال ابن بطال وأيده ابن حجر: إذا اقتربت الساعة، وقبض أكثر العلم، ودرست معالم الديانة بالهرج والفتنة، فكان الناس على مثل الفترة، محتاجين إلى مُذكّر ومجدد لما درس من الدين، كما كانت الأمم تُذَكّر بالأنبياء، لكن لما كان نبينا خاتم الأنبياء، وصار الزمان المذكور يشبه زمان الفترة، عوضوا بما منعوا من النبوة بعده بالرؤيا الصادقة، التي هي جزء من النبوة الآتية بالتبشير والإنذار[٢].

والذي أريده من كلام ابن بطال هو إثباته لمن له حكم أهل الفترة حتى بعد بعثة الرسول ﷺ، وأما كلامه عن الرؤيا الصادقة، وأنَّها تُعوض شيئا من النبوة ففيه نظر، فالنبوة وحي مقطوع به لا يُعوَّض من غير الأنبياء، ولا يُطلب تعويضه، والرؤيا الصادقة: وحي مظنون، لا يُعلم إلا بعد حدوث تأويله، لا حجة فيها، قد تكون فيها مواساة للمؤمن ليس أكثر. أما الحاجة إلى المُجدّد فلا شك فيها.

وقال الغزالي: إنّ أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالى: أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك، ولم تبلغهم الدعوة، فإنّهم ثلاثة أصناف:

صنف: لم يبلغهم اسم محمد ﷺ أصلاً، فهم معذورون.

وصنف: بلغهم اسمه ونعته، وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون

(١) شرح النووي على مسلم: (٢/ ١٨٨).

(٢) فتح الباري لابن حجر: (١٢/ ٤٠٥).

لبلاد الإسلام، والمخالطون لهم، وهم الكفار المخلدون.

وصنف ثالث بين الدرجتين: بلغهم اسم محمد ﷺ، ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضاً منذ الصبا أنَّ كذاباً ملبساً اسمه محمد ادعى النبوة، كما سمع صبياننا أنَّ كذاباً يقال له المقفع، ادعى أنَّ الله بعثه وتحدى بالنبوة كاذباً. فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول، فإنّهم مع أنَّهم سمعوا اسمه، سمعوا ضد أوصافه، **وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب**[1].

ثالثا: العقبات حَدّت من قدرة الأنبياء على نشر الدين وإقامة الحُجّة على الناس

فالأنبياء بلّغوا دين الله حسب طاقتهم والوسائل المتاحة لهم، إلا أنَّ أثرهم لم يكن بالقدر الذي يجعل الكفة تميل لصالح المؤمنين، فما برحوا أقلية ضعيفة مضطهدة في الغالب، ولم يدون التاريخ انتشارا واسعا لأي دين سماوي أو وضعي ما خلا الأديان التي حققت نصرا سياسيا ووصلت إلى السلطة مثل اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ومن الأديان الوضعية: البوذية والكنفوشوسية والهندوسية فحققت انتشارا واسعا، والعلة أنَّها عندما حققت نصرا سياسيا ووصلت إلى السلطة تهيأت حاضنة آمنة للدين، فحمت ظهرها من السلطان، بل صار داعما لها، فانفسح الطريق أمامها واتسع، ومع ذلك بقيت كل واحدة منها أقلية بالنسبة للكوكب، فلم يكتسح الكوكب أي دين من الأديان، ولا يزال قانون التدافع يَقُضّ مضاجع الجميع ويبتلي البشرية. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج: ٤٠].

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة – أبو حامد الغزالي: ٨٤.

ولذلك عندما انهار الكيان السياسي للإسلام في نهاية العهد العثماني في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م اضمحل التبشير بالدين الإسلامي، وضعف تأثيره، ولوّث حُجّته دَخَن كثيف، كان له التأثير المباشر في صعوبة استيضاح رؤية الحجة. وقد يقال: إنّ الدين الإسلامي منتشر في أصقاع المعمورة، ما يعني قيام حجته على العالمين، إلا أنَّ الحقيقة غير ذلك، فالفرق كبير بين وجود المسلم في مكان ما، وكون هذا المسلم هو حجة الله على خلقه! ناهيك عن تفاصيل سلوك هذا المسلم وعلمه وتدينه، فمجرد انتشار دين من الأديان لا يعني بالضرورة أنَّ حجته لزمت البشرية! فكما هو معلوم بأنَّ الدين النصراني لا يقل انتشارا عن الإسلام، وقبولا من أتباعه، فهل صار حجة على العالمين، وعلى من سمع به أن يتنصّر؟ لا شك أنَّ الانتشار يسهل عملية التأكد والبحث، إلا أنَّه لا يُغني أبدا عن وصول الحجة الشرعية حسب ضوابطها وأصولها التي سبق ذكرها.

وضَعْف انتشار دين الرسُل مُثبَت بالقرآن الكريم والسنة المطهرة. وقد سبق ذكره تحت عنوان: كون أكثر الكوكب من غير المؤمنين مشيئة إلهية، وإرادة كونية لا تتخلف!!.

ويمكن أن نجمل العقبات التي كانت تُعيق دعوة الرسل، وتحدّ من إقامة الحجة الرسالية على الناس بشكل عام بما يأتي:

١ ـ تشويه صورة الأنبياء ودينهم وأتباعهم

من ضروريات إقامة الحجة على الناس ثقة الناس بمدعي النبوة، ومعرفتهم لأمانتهم وسلوكهم القويم، والجهل بمُدع الرسالة يعدّ مانعا من اتباع دينه، ولذلك لما أمر سبحانه رسوله محمد ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، لم يبادر

إلى إخبارهم بأنَّه رسول حتى أخذ إقرارا منهم بعدالته وأمانته أولا، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال: لما نزَلتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤] صَعِدَ النبيُّ ﷺ على الصَّفا، فجعل يُنادي: يا بني فِهْرٍ، يا بني عدِيّ - لِبُطونِ قُريشٍ - حتى اجتمعوا. فجعل الرجلُ إذا لم يستْطِعْ أن يخرجَ أرسل رسولاً، لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقُريشٌ، فقال: أرأيْتَكُم لو أخبَرْتُكم أنَّ خَيْلاً بالوادي، تُريدُ أن تُغير عليكم، أكُنْتم مُصدِّقيَّ؟ قالوا: نعم، **ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً**، قال: فإنّي نذيرٌ لكم بين يديْ عذاب شديدٍ، فقال أبو لهب: تبّاً لك سائرَ اليومِ، ألهذا جمَعْتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[1].

ولذلك عدّ سبحانه معرفة العرب برسوله محمد مدعاة لإيمانهم وإقامة الحجة عليهم، فقال: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٩]. ولا يتسع المجال هنا لاستيعاب كل ما ذكره القرآن في هذا الخصوص، والذي سأذكره مجرد نماذج والأمر واضح أساسا.

- **اتهام الرسل بالكذب على الله**

لا مفر للمشركين من اتهام الرسل بالكذب، وإلا لقامت عليهم حجة الرسالة من خلال دينهم!! فهذا الاتهام أكثر ما يتعلق به المشركون؛ لأنَّهم في الحقيقة غير ملحدين، فهم يؤمنون بالله الرب، ولكن يشركون معه في العبادة آلهة أخرى أقل قدرا منه، قال ابن أبي العز الحنفي: ولم يُعرف عن أحد من الطوائف أنَّه قال: إنّ العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال، فإنّ الثنوية من

---

(١) البخاري: ٨ / ٣٨٥ في تفسير سورة الشعراء، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، وفي الجنائز، باب ذكر شرار الموتى، وفي تفسير سورة تبت. ومسلم رقم (٢٠٨) في الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

المجوس، والمانوية القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأنَّ العالم صدر عنهما: متفقون على أنَّ النور خير من الظلمة، وهو الإله المحمود، وأنَّ الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة، هل هي قديمة أو محدثة؟ فلم يثبتوا ربّين متماثلين[1]. وهذا ثابت في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦١].

وفي حال أمَرهم الله باتباع الرسول فمن مقتضى دين المشركين أن يلتزموا بأمره! لذا يلجؤون إلى تكذيب الرسل في إخبارهم عن الله؛ لئلا يقال: إنّهم يردون أمر الله!! قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سورة الحج: ٤٢-٤٣]. والآيات في هذا كثيرة جدا.

ولتشويه دين الرسل آثار مدمرة على الدعوة، قصصها كثيرة في أيامنا، ونمثل لها بقصة الطُفيل المشهورة: عن محمد بن إسحاق بْنِ يَسَارٍ، قال: كان الطُّفَيلُ ابن عَمْرٍو الدَّوْسِي يُحدِّثُ أنّه قَدِمَ مَكةَ ورسول اللهِ ﷺ بها، فَمَشى إليه رجال قَرَيشٍ، وكان الطُّفَيْلُ رَجُلًا شرِيفًا شاعرا لَبِيبًا، فقالوا له: إنك قدِمْتَ بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظْهُرنا فَرَّقَ جماعتنا، وشتَّتَ أمْرَنا، وإنما قوله كالسِّحْرِ يُفرِّقُ بين المَرْءِ وبين أَبِيهِ، وبين الرجلِ وبين أخيهِ، وبين الرجلِ وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دَخلَ علينا، فلا تكلمَنَّهُ ولا تسمعن منه، قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجْمَعْتُ أن لا أسمع منه شيئا، ولا أكلِّمَهُ حتى حَشَوْتُ في أُذُنيَّ حين غَدَوتُ إلى المسجد كُرْسُفًا فَرَقًا مِنْ أنْ يَبْلُغَنِي شيء من قَوْلِهِ.

قال: فغَدَوْتُ إلى المسجد، فإذا رسول اللهِ ﷺ قائِمٌ يُصَلي عند الكعْبَةِ،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: ٧٧ - ٧٨.

فَقُمْتُ قريبا منه، فأبى اللهُ إلَّا أنْ يُسْمِعَنِي بعض قوله، فسَمِعْتُ كلاما حسَنًا، فقلت في نفسي: واثكل أُمَّاهُ، واللهِ إنِّي لرجل لَبِيبٌ شَاعِرٌ، ما يَخْفَى عَليَّ الحسَنُ مِن القَبِيحِ، فما يَمْنَعُنِي مِن أنْ أسْمَعَ مِن هذا الرَّجُلِ ما يقول؟ فإنْ كان الذي يأتي به حسَنًا قَبِلْتُ، وإنْ كانَ قَبِيحًا تَرَكْتُ، قال: فمَكَثْتُ حتى انْصرفَ رسول اللهِ ﷺ إلى بَيْتِهِ، فتَبِعْتُهُ، حتى إذا دخل بَيْتَهُ دخلتُ عليه، فقلت: يا مُحَمَّدُ! إنَّ قومَك قد قالوا لي كذا وكذا، فو الله ما برحوا يخوّفوني أمْرَكَ حتى سَدَدْتُ أُذُنيَّ بِكُرْسُفٍ لِئَلَّا أسمع قولك، ثم أبى الله عَزَّ وجَلَّ إلَّا أنْ يُسْمِعَنِيهِ، فسَمِعْتُ قَولًا حسَنًا، فاعْرِضْ عليَّ أمرَكَ. قال: فعَرَضَ رَسولُ اللهِ ﷺ عليَّ الإسلام، وتَلا عليَّ القرآن، فلا واللهِ ما سَمِعْتُ قَوْلًا قَطُّ أحْسَنَ منه، ولا أمْرًا أعْدَلَ منه، فأسْلَمْتُ، وشَهِدْتُ شهادَةَ الحَقِّ(١).

• **اتهامهم الرسل بالسحر**

لم يكن اتهام الرّسل بأنَّهم سحرة عبثا، بل هو سهم مُصوّب لقلب حجة الرسالة، فالرسول لا بد أن يأتي بمعجزة لإثبات رسالته للناس، وعندما يقع التحدّي مع المشركين، ويعجزون عن الإتيان بمثلها، يكون تبريرهم الوحيد هو اتهام الرسول بأنَّ ما جاء به من إعجاز هو نوع من السحر المتقن، ولذلك أعجزهم؛ وليس لأنَّه إعجاز من عند الله ينبغي التسليم له! فقال الله مواسيا لرسوله محمد ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٥١-٥٢]. فهذا الاتهام كان ديدن المشركين عبر العصور.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي: (٥/ ٣٦٠). وانظر: سيرة ابن هشام: (١/ ٣٨٢). والسيرة النبوية لابن كثير: (٢/ ٧٦)، وقال: هَكَذَا ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قِصَّةَ الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرٍو مُرْسَلَةً بِلَا إِسْنَادٍ، وَلِخَبَرِهِ شَاهِدٌ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

• **استغلال الجانب السياسي الأمني**

ولكل زمان وسائله في التهديد الأمني، فالذي أودى بدعوة عيسى عليه السلام التقرير الذي رفعه اليهود للرومان في دمشق، يتهمون فيه المسيح بأنَّه يريد أن يتمرد عليهم وينفرد بحكم فلسطين!! فزحفوا إليه بجيش لقمع تمرده، فرفعه الله سبحانه إليه. قال تعالى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [سورة النساء: ١٥٧]، رفعه الله في بداية دعوته ولمّا يتمكن من الدعوة في فلسطين بعد، فأكثر العلماء على أنَّ دعوته كانت ثلاث سنوات! ورفع وهو ابن ٣٣ سنة. فعن سعيد بن المُسَيِّبِ؛ قال: رُفِعَ عِيسَى عليه السلام وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنةً[1]. وهذا الأسلوب في التخويف من الدعاة وتخويفهم لم ينقطع.

٢ ـ اللجوء إلى العنف لإرهاب الناس وصدّهم عن الدعوة

الصدام بين الحق والباطل يكون حتميا إذا ما صمد كل فريق على مبادئه وأفكاره؛ لأنَّ الباطل صاحب الأكثرية تكون مصالحه مهددة بمجرد وجود أهل الحق متمتعين بقيمهم وجمال عقيدتهم، لذا يلجأ إلى ممارسة صنوف من الإرهاب والتعذيب على القلة المؤمنة بهدف ثنيها عن مبادئها، وصرفها عن طريقها، أو سجنها، أو قتلها، أو إخراجها من البلاد. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة إبراهيم: ١٣]. وقال أبو إبراهيم عليه السلام لابنه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [سورة مريم: ٤٦].

(١) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري: (٦/ ٢٤١). وفي المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٣٠٢). وسكت عنه الذهبي.

وقال تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠]. وقالوا للوط: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٢].

وكثيرا ما كان يفشل هذا الإرهاب في ردّ المؤمنين عن إيمانهم، ولكنه كان يحقق انتصارات كبيرة في قتلهم وتشريدهم، وحجب الدعوة، والحجة عن الوصول إلى الجماهير الجاهلة، وتتحول قصة الدعوة إلى الحق إلى قصة آلام وعذاب، فها هو موسى عليه السلام ومع النصر المؤزر الذي حققه بحجته على فرعون والسحرة، وسجود السحرة وإيمانهم بالله أمام الملأ، كان الخوف من فرعون وجيشه عظيما، فلم نسمع عن إيمان الأقباط! وما آمن له إلا قلة من ذراري الإسرائيليين المعاندين. قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٥٣-٥٥]. وقال تعالى عن بطش فرعون وتهديه لمن آمن من السحرة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٤]، وبعد هذا الإرهاب فمن الطبيعي أن ينفض الجمهور عن الدعاة، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة يونس: ٨٣]. قال الطبري ورواه عن مجاهد: فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، من بني إسرائيل، وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنوهم[1]. وكذلك لم يؤمن مع نوح على طول مكثه في قومه إلا قليل. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [سورة هود: ٤٠]. ولذلك

(١) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٥/ ١٦٥). وانظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٣/ ٣٠). وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (٢/ ٢٧٠).

كانت غالبا دعوات الأنبياء تخمد في أوائلها، وتنحسر في بقعة عن الناس إلى أن يتوفى الله الرّسل، فيعكف الباطل بزعامة إبليس على تحريف ما بقي من الحق مع الأيام.

وتتكرر قصة الإرهاب والعنف مع باقي الرسل وأتباعهم، وتؤتي أكلها في الصّد عن سبيل الله وتعطيل إقامة الحجة على الناس، لدرجة أنَّ بعض الرسل يُبعث يوم القيامة وحيدا لم يؤمن به أحد!! عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ، فرأيت النبيَّ ومعه الرهطُ، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحد[1].

٣ ـ الغزو الفكري

لا تخلو منه الأزمنة القديمة إلا أنَّه استوى على سوقه في العصر الحديث، وحقق إنجازات باهرة، وأسس مراكز بحث عتيدة، ضليعة في إثارة الفتن، والشبهات، وتوظيف أشخاص مشبوهين، وهيئات، بل ومؤسسات خيرية ومساجد!! وقد قال سبحانه من قبل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٠٧].

وقد بين لنا سبحانه أنَّهم لن يألوا جهدا في محاولة إبطال دين الله بألسنتهم، فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣٢]. قال الطبري: يعني: أنَّهم يحاولون بتكذيبهم بدين الله الذي ابتعثَ به رسوله، وصدِّهم الناسَ عنه بألسنتهم أن

(١) رواه البخاري: ١٠ / ١٧٩ في الطب، باب من لم يرق، وباب من اكتوى أو كوى غيره، وفي الأنبياء، باب وفاة موسى، وفي الرقاق، باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه. ومسلم رقم (٢٢٠) في الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

يبطلوه، وهو النُّور الذي جعله الله لخلقه ضياءً[1].

ويعظم الخطب لو عرفنا أنَّ فينا من الطيبين البسطاء، أو غير البسطاء! من يُصغي لهؤلاء ويصدقهم. قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤٧].

لقد استطاع السامري أن يُحوّل فريقا من مؤمني بني إسرائيل عن عبادة رب السموات والأرض إلى عبادة حيوان عجل بشُبَهِه!!، واستطاع إقناعهم بأنَّ هذا الحيوان هو إله الرسول موسى عليه السلام! قال تعالى عن السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [سورة طه: ٨٨].

أي قال لهم السامري: نسي موسى ﷺ إلهه عندكم، ومضى يطلبه كأنَّه قد نسي. فعكفوا على العجل يعبدونه[2]. قال الرازي: والمعنى أنَّ هذا إلهكم وإله موسى، فنسي موسى أنَّ هذا هو الإله، فذهب يطلبه في موضع آخر. وهو قول الأكثرين[3].

هذا حال الغزو الفكري مع أناس يعيشون مع رسولين: موسى وهارون، غادرهم موسى لميقات ربه وبقي بينهم الرسول هارون، وعندما وقف هارون في وجه هذا الغزو الفكري الذي غير دينهم لم يأبهوا له، بل هددوه بالقتل! ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ [سورة الأعراف: ١٥٠]. وقالوا له: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [سورة طه: ٩١]. فإذا ما رجع موسى إما أن يعبد العجل معنا أو يخبرنا بما يراه!! وللعلم فإنّ هؤلاء لم يكونوا

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٤/ ٢١٣). وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان: (٢/ ١٦٨).

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب: (١/ ٢٦٧).

(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٢/ ٩٠). وانظر: تفسير البغوي: (١/ ١١٧).

منافقين، وإنّما كانوا مؤمنين صادقين!! وقد انتظروا موسى عليه السلام، وعندما رجع إليهم أمر بحرق العجل وقتلهم، فقَتلوا أنفسهم توبة إلى الله. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: ٥٤]. ويلاحظ أنَّ فتنتهم انتهت من غير تكفير متبادل!!

إلا أنَّ الملفت للنظر في هذه القصة أنَّ الشبهات تُعرض أحيانا على عقل الإنسان فيعجز عن ردها، وتسيطر عليه! لذلك عندما عاتب موسى عَبَدَة العجل أجابوه: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [سورة طه: ٨٧]. قال عبد الرزاق الصنعاني ﴿بِمَلْكِنَا﴾: بِطَاقَتِنا[١]. وقال الطبري: قالوا: إنَّا لم نُطِق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة[٢].

ومن قبل هذا ما تعرض له آدم من شبهات إبليس فلم يقو على ردها، وتمكن إبليس من إقناع آدم بخلاف ما أمره به ربه، وجعله يعصيه بالأكل من الشجرة، وهو لا يزال في الملأ الأعلى!! ومما يزيد الأمر عجبا من قوة شبهات إبليس أنَّ الله سبق أن حذر آدم من هذا اللعين نفسه فقال له: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [سورة طه: ١١٧].

وحاصل القول إنّه إذا ما عُرضت الشبهات بزينتها على قلب إنسان لا تحميه أسوار وحراس، يتلقفها على حين غفلة بشغف ونهم، فيذوي الدين ويضعف في القلب القوي، دونما شعور أو إحساس بالخطر! وكلما كان الإنسان عن العلم أبعد، كان إلى الشبهات أقرب، وإنّ من الشبهات ما لا يكفي لدفعها

(١) تفسير عبد الرزاق: (٢/ ٣٧٣).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٨/ ٣٥١). وانظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن لنجم الدين النيسابوري: (٢/ ٥٥٢). وباهر البرهان في معانى مشكلات القرآن لبيان الحق: (٢/ ٩١٥).

حفظ النصوص وترديدها، ما لم يسبر أغوار الشريعة باحثا عن فلسفتها، متتبعا لأسرارها وحِكمِها، فلا يحط رحاله إلا عند مراد الله سبحانه منها.

ومن جهة أخرى فإنّ سوء الفهم والتطبيق للدين، والتشدُّد والعصبية التي تظهر على فهم وأسلوب بعض الدعاة العاملين للإسلام، قد تكون أكثر سلبية على الناس من كثير من الغزو الفكري، وسببا في وضع حواجز بين الناس والدين، ومدعاة إلى الاستخفاف بالشيوخ والمتدينين.

٤ ـ الكبر والعصبية

ولعل هذا أول سبب في الوقوف في وجه الدين، فعندما أمر الله سبحانه إبليس بالسجود لآدم أبى واستكبر. قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢-١٣].

وكان من أسباب كفر المشركين برسول الله ﷺ أنَّهم يرونه دون المستوى الاجتماعي المطلوب! قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزخرف: ٣١]. وقال قوم نوح له: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ [سورة هود: ٢٧]. وقال قوم ثمود لرسولهم: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [سورة القمر: ٢٥]. ولكل زمان ألوان من الكبر فيدخل في الجنسيات والألوان والأموال والمناصب وغيرها.

وللأهمية يحسن أن أخص دعوة الرسول محمد ﷺ ببعض المعوقات غير ما سبق ومنها:

١- إهمال التبشير بالدين الإسلامي

وأقصد التبشير المنظم المؤصل، الذي تقوم به الحجة على العالمين، من أناس أكْفاء سلوكا وعلما وثقافة، قادرين على المناقشة والإقناع والتبيين إلى الدّرجة التي ترفع الجهل، وتثبت بها الحجة، فتبرأ الذمة. إذ ينبغي على أصحاب الدين ألا ينتظروا غير المؤمنين ليأتوا إليهم، وإنّما أن يبادروا بالتبليغ؛ لأنَّ الله كلفهم بذلك، فالجاهل بالدين لا يعلم أنَّه جاهل، ولعله يرى نفسه أحسن حالا من البقية. لذلك وجب على المؤمنين أن يبادروا بالدعوة، وهذا ما كانت تفعله الرسل، ومن اسمهم تعرف مهمتهم: (رسول) يعني مرسل إلى الناس، وقد قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [سورة المدثر: ١-٢]؛ لأنَّ الحجة لا تقوم إلا بإيصالها للمستهدَفين منها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة القصص: ٥١]. فالجاهل لا علم له بما عندنا من الهدى والآيات، فينبغي علينا أن نحملها إليه، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة الزمر: ٥٩].

وقال تعالى ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤]. قال ابن كثير: والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه[١]. وعن حذيفة بن اليَمانِ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: والذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ، أو لَيُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عليكم عِقَابًا مِنْه، ثم تدعونه فلا يُسْتَجابُ لكم[٢]. وقال الرسول ﷺ:

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٩١).

(٢) رواه الترمذي: رقم (٢١٧٠) في الفتن: باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقال: هذا حديث حسن.

بلِّغُوا عني ولو آية[1].

بل إنّ الرسول ﷺ ترك خطبته ليُعلم السائل دينه، فعن أبي رفاعة العدوي – رضي الله عنه – قال: انتهينا إلى رسولِ الله ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسولَ الله، رجل غريب جاء يسأل عن دِينه، لا يدري ما دِينُه؟ قال: فأقبل عليَّ رسولُ الله ﷺ، وترك خطبته، حتى انتهى إليَّ، فأُتيَ بكرسيٍّ –حَسِبْتُ قوائمه حديداً–، قال: فقعد عليه رسولُ الله ﷺ وجعل يعلمني مما علَّمه الله، ثم أتى الخطبةَ، فأتمَّ آخرها[2].

ويمكن أن نقيس قصور المسلمين في التبشير بدينهم، من خلال بعض الاستطلاعات التي أظهرت أنَّ أكثر من نصف الأمريكيين لا يعرفون شخصا مسلما!![3]

هل تعرف شخصيا أيا من المسلمين ولو واحدا؟			
	نعم	لا	لا أعرف/ رفض
يوليو ٢٠٠٧	٣٦٪	٦٣٪	١٪
أغسطس ٢٠٠٧	٤٥٪	٥٤٪	١٪
مارس ٢٠٠٩	٤٧٪	٥٣٪	١٪
أغسطس ٢٠٠٩	٤٥٪	٥٤٪	١٪
أغسطس ٢٠١٠	٣٧٪	٦٢٪	١٪
مايو ٢٠١٤	٣٨٪	٦٢٪	*

(١) رواه البخاري: ٦ / ٣٦١ في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. والترمذي رقم (٢٦٧١) في العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل.

(٢) رواه مسلم: رقم (٨٧٦) في الجمعة، باب حديث التعليم في الخطبة، والنسائي ٨ / ٢٢٠ في الزينة، باب الجلوس على الكرسي.

(٣) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ٨٦ وما بعدها.

وتدل هذه المقارنة أنَّ نسبة زيادة التعرف على المسلمين ليست كبيرة، وأقرب ما تكون ثابتة، وهذا يفسر استمرار العزلة، أو عدم مبادرة المسلمين في الانخراط مع غيرهم من غير المسلمين، كما أنَّ هذا الجدول لا يدل أنَّ من عرف من الأمريكيين مسلما كانت علاقته به إيجابية أم سلبية، فالاستطلاع لمجرد المعرفة، وسيتضح هذا في الجدول القادم.

وحول درجة معرفة البريطانيين بشخص مسلم نجد أنَّهم أكثر من الأمريكيين، ففي استطلاع (IPSOS MORI) عام ٢٠٠٦ ظهرت النتائج الآتية(١):

كم عدد المسلمين -إن وجد- الذين تعرفهم شخصيا؟		
لا يوجد	من ١ إلى ١٠	لا أعرف
٣٧٪	٤٠٪	٣٪
من المسلمين الذين عرفتهم، كم عدد المسلمين الذين تعتبرهم أصدقاء؟		
لا أعتبرهم أصدقاء	من ١-١٠	لا أعرف
٢٧٪	٥٤٪	٥٪

وفيما يتعلق بالتواصل مع المسلمين، قامت مؤسسة أبحاث الأديان العامة TE ETUTITSNI HCRAESER NOIGILER CILBUP عام ٢٠١١ باستطلاع تسأل فيه: مَن مِن الأمريكيين تواصلوا مع شخص مسلم خلال العام الماضي؟ فكانت النتيجة ٤٠٪ ليس لديهم أي تواصل مع مسلم بتاتا(٢):

(١) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ٩٠.

(٢) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ٩١.

في الاثني عشر شهرا الماضية، كم مرة كان لديك محادثة مع شخص علمت أنه مسلم؟				
مرة واحدة في اليوم على الأقل	أحيانا	نادرا	أبدا	لا أعرف/ رفض
٦٪	٢٤٪	٢٨٪	٤٠٪	٢٪

والجدول السابق يبين مجرد التواصل، ولا يدل على درجة العلاقة وهل هي سلبية أم إيجابية، ويوضح هذا استطلاع قامت به PEW في أمريكا لعام ٢٠٠٩ بيّن أن نسبة قليلة جدا لا تتجاوز ٦٪ قاموا بحضور فعاليات في مسجد للمسلمين مقابل ٩٤٪ لم يقوموا بحضور هذه الفعالية(١):

بصرف النظر عن حفلات الزفاف والجنازات، هل من أي وقت مضى حَضرت فعّالية في مسجد للمسلمين؟	
نعم	لا
٦٪	٩٤٪

ومن خلال استطلاعات أخرى يظهر أن العلاقة طردية بين من يعرفون مسلما ونظرتهم الإيجابية عن الإسلام(٢).

٢- ندرة الفاهمين للغة الحُجة الرسالية في الكوكب

لقد راعى سبحانه وتعالى لغة المخاطبين في إرسال الرسل فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [سورة إبراهيم: ٤]؛ بل لأنَّ العرب لهم لهجات استصعب بعضهم القرآن بسببها؛ أنزل الله سبحانه القرآن

(١) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ٩٣.

(٢) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ١٠١.

على سبعة أحرف تسهيلا عليهم. فعن أُبَي بن كعب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا أُبيُّ، أُرْسِلَ إليَّ: أن اقرأ القُرْآن على حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إليه: أنْ هَوِّنْ على أُمَّتي، فردَّ إليّ الثانية: أن اقْرأهُ على حرفين، فردَدْتُ إليه: أنْ هَوِّنْ على أمتي، فردَّ إليَّ الثالثة: أنِ اقْرَأْهُ على سَبْعَةِ أحرفٍ(١).

ومعوّق اللغة مسألة طارئة بعد البعثة المحمدية، لم تعان منها البشرية برسالاتها من قبل؛ وذلك لأنَّ الرسول كان يُبعث في قومه خاصة، ومن الطبيعي أنَّ لغتهم واحدة، فالتفاهم لا يحتاج إلى ترجمان، إلا أنَّ رسالة الرسول محمد ﷺ العالمية جعلت تعلم اللغات بهدف تبليغ الحجة للناس أمرا واجبا على الأمة، تأثم بسببه جميعها إن لم يقم به من يُحقق الكفاية، فلغة الإسلام هي اللغة العربية، قرآنا وسنة، بل وتراثا إلى حد كبير، فالحاجة إلى تعليم الناس اللغة العربية من جهة، وإلى الترجمان الموثوق من جهة أخرى أمر في غاية الأهمية، وخاصة إذا ما علمنا أنَّ لغات العالم لا تقل عن ٣٠٠٠ لغة!! وأنَّ نسبة من يتكلمون اللغة العربية هي: ٣,٢٥٪!! فكيف تقوم الحجة على العالمين؟ إليك هذا الجدول(٢) الذي يبين نسبة انتشار كل لغة في العالم:

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٨٢٠) في الصلاة، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وأبو داود رقم (١٤٧٧) و (١٤٧٨) في الصلاة، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف.

(٢) https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%83%D8%A7%D9%86_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85#%D8%AA%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D8%AF_%D9%85%D8%B9%D8%AA%D9%86%D9%82%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D9%8A%D8%A7%D9%86_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85

قائمة اللغات حسب عدد متحدثيها الأصليين

اللغة	النسبة من سكان العالم
الماندرين	١٢,٤٤٪
الإسبانية	٤,٨٥٪
الإنجليزية	٤,٨٣٪
العربية	٣,٢٥٪
الهندية	٢,٦٨٪
البنغالية	٢,٦٦٪
البرتغالية	٢,٦٢٪
الروسية	٢,١٢٪
الألمانية	١,٣٣٪
الجاوية	١,٢٥٪
أخرى	٦١,١٧٪

ومن جهة أخرى فإن العرب أنفسهم أصبحوا لا يتذوقون لغتهم بشكل عام، والجانب البلاغي في القرآن الكريم بشكل خاص، وهذا يُضعف القدرة على التبليغ، وبالتالي يضَيّق فُرص إقامة حجة الرسالة على العالمين.

٣-الفارق الكبير بين التراث الشرعي والواقع المعاصر

فهم الدين لا ينبغي أن يكون بعيدا عن واقعه، وجرّ الأدلة الشرعية إلى واقع غريب عنها يقتلها، ويحولها إلى مفسدة لا مصلحة! المصلحة في فهم الشريعة، وفهم الواقع، وفهم سبل التطبيق وكيفيته، وما يمكن تطبيقه وما لا يمكن، وما تطبيقه يحتاج إلى قوة، وما تطبيقه يحتاج إلى تقوى فقط.

وأهمية هذه النقطة تكمن في أنَّ الطرف الثاني لا يتذوق جمال التشريع بالشكل الكافي، بل قد يُسجل عليه ملاحظات مردُّها ضعف التوافق بين التراث والعصر وثقافته، مما يُضعف حجة الرسالة عليه، وقد يصده عن سبيل الله! فإنّ **المتأمل في التراث الإسلامي يلحظ أمرين:**

الأول: أنَّه كتب في عهد قوة الإسلام ودولته العظيمة مترامية الأطراف، بينما نحن الآن في مرحلة ضعف وتبعية.

الثاني: أنَّه كتب بثقافة تلك الأيام قبل قرون من الزمن، وعليه فلا بد من تحديث ما لا بد منه (وليس تحريفه طبعا) ليكون بثقافة هذا الزمان، وهذا أمر ضروري يدركه العاقل، ويُفهم من حديث الرسول ﷺ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنةٍ من يُجَدِّد لها دينَها**[1]. ومن المؤكد أنَّه لم يُرد ﷺ تجديد أصل الدين: الكتاب والسنة!! وإنّما فهمهما، وهو ما يتعلق بالتراث المكتوب على فهم الكتاب والسنة، فلا شك أنَّ الزمن يفرض تغيرات تتناسب مع قوة المسلمين وضعفهم، ومع ثقافتهم، وما إلى ذلك، وأؤكد أنَّ المطلوب تحديث التراث لا قتله! فعصرنة تراثنا شيء، واستبداله بثقافة أخرى شيء آخر، وانتقاد تاريخنا للعبرة شيء، وتشويه جذورنا بهدف استئصالها شيء آخر!! فالقصور في المطابقة بين الشريعة والواقع خطير، والأخطر منه أن يتصدر لهذا الهدف من قلّت بضاعته، وصغُر عقله، أو ساءت نيته.

---

(١) رواه أبو داود: رقم (٤٢٩١) في الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، وإسناده صحيح، ورواه أيضاً الحاكم وصححه و وافقه الذهبي. وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

٤-التخلف الذي تعاني منه البلدان الإسلامية

وأقصد التخلف إن لم يكن في كل النواحي ففي معظمها، بما فيها السلوكي، والخطورة في هذا التخلف أنَّه يُشعر بالدونية، فيصد عن سبيل الله، إذ سيقول الطرف الثاني بأنَّ الله لو كان مع هؤلاء كما يزعمون، لما كنا أقوى منهم، ولا أحسن حالا منهم! ولما كانوا في هذا التخلف! ونجد في القرآن الكريم آية تدل على أنَّ حال المسلم يمكن أن يكون سببا في الصد عن سبيل الله. قال تعالى عن أتباع موسى عليه السلام: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة يونس: ٨٥]. وفي دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الممتحنة: ٥].

قال مجاهد: لا تُعَذِّبْنَا بأيْدِي قَوْمِ فرعون فيقولون: لو كانوا على حقٍّ ما عُذِّبُوا بأيدينا، ولا سُلِّطْنَا عليهم، فَيُفْتَنُونَ بنا، ولا بعذاب مِنْ عِنْدِكَ[1]. وقال الهُذَيْلِ: لا تختبرنا ببلاء؛ فيشمت بنا أعداؤنا من ذلك، وعافنا منه. وقال: لا تبسط لهم في الرزق وتفتنا بالفقر فنحتاج إليهم، فيكون ذلك فتنة لنا ولهم[2]. والأخطر من ذلك لو لاحظ غير المؤمنين بدينك أنَّهم أحسن منك في أمور أخلاقية وقيمية!! مثل الصدق، والوفاء بالوعد، وعدم الرشوة، والصدق في العمل، والنظام، وحقوق الإنسان بشكل عام، والمرأة بشكل خاص، والبعد عن التطرف في التعامل مع الأطفال، وغير ذلك مما يؤثر في تأمل غير المؤمن بدينك عندما يقارن نفسه فيك، وفي بلدك الذي يُدين بدينك، وبنيته المؤسسية، ومدى الرقي في التعامل مع الإنسان؛ لأنَّ الإنسان البعيد عنك غالبا يقيم دينك من خلال تقييمه لك ولبلدك! فالصورة السيئة تجعله يعرض عن الاستفسار

---

(١) تفسير مجاهد - ٣٨٢.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٢/ ٢٤٦.

عن هذا الدين؛ لأنَّه أخذ فكرة بأنَّه دين فاشل، غير ملائم، ويدعو إلى التخلف!

والرسول محمد ﷺ مع أنَّه يأتيه جبريل عليه السلام، بالإضافة إلى أنَّه أكبر عقلية عرفتها البشرية، وهو رسول الله، مع ذلك قال له سبحانه بأنَّ هذا كله لا يكفي لجمع الناس حوله!! ولا بد من الخلق الحسن واللطف في التعامل مع الآخرين. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]. فأدب الإنسان وِعاءُ فكرته، وجمال الفكرة غير كاف للجماهير إذا كان من يحملها لا يُمثلها، بل هو من يصد بسلوكه عنها!! ولذلك كَبُر مَقتا عند الله هذا التناقض بين القول والسلوك. قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصف: ٣].

وبعض الاستطلاعات تشير إلى أنَّ النظرة السلبية تجاه المسلمين تزداد سلبية في بعض الدول، ففي استطلاع للرأي العام الأمريكي قامت به: ABC NEWS حول النظرة الإيجابية أو السلبية عن الإسلام كانت هذه النتائج(١):

النظرة الإيجابية / السلبية للإسلام			
	نظرة إيجابية	نظرة سلبية	لا رأي
أكتوبر ٢٠٠١	٪٤٧	٪٣٩	٪١٣
أغسطس ٢٠١١	٪٣٣	٪٦١	٪٦

يظهر من الجدول زيادة معدل السلبية تجاه الإسلام بشكل كبير. ومما يلاحظ عند التأمل في وجهة نظر الفئات نحو الإسلام؛ أنَّ فئة السود والملحدين

(١) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ١١٤.

واللادينيين هم الأفضل شعورا نحو المسلمين، في مقابل اليهود، والإنجيليين البيض، الذين هم الأقل تفضيلا[١].

ولمعرفة تفاصيل أكثر عن جوانب السلبية والإيجابية عن المسلمين في رأي الغربيين أجرت PEW عام ٢٠١١ استطلاعا تفصيليا وكانت هذه نتائجه[٢]:

آراء الغربيين في الصفات الإيجابية للمسلمين				
	الصدق والأمانة	الكرم	التسامح	احترام المرأة
	٪	٪	٪	٪
الولايات المتحدة	٤٩	٣٣	٣٣	١٩
بريطانيا	٦٠	٤٣	٤٠	٢٤
فرنسا	٦٢	٦١	٣٨	٢٤
ألمانيا	٥٣	٤٥	٢٥	١٧
إسبانيا	٤٥	٣٨	٢١	٩
روسيا	١٦	٢٠	٢٧	٢٨
المتوسط	٥١	٤١	٣٠	٢٢

ولمحاولة التعرف على رأي الكنديين الذين لديهم انطباع سلبي عن الإسلام، من حيث الأسباب الرئيسة لذلك الانطباع السلبي؛ كان السبب الأكثر شيوعا هو معاملة النساء بنسبة ٢١٪، ثم العنف ١٩٪، الجماعات الإرهابية ١٧٪، عدم تقبل الآخر ١١٪، التطرف/ التعصب ١١٪[٣].

(١) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ١١٧.

(٢) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ١٤٤-١٤٥.

(٣) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ١٣٠.

٥- التطرف والإرهاب

الإرهاب لا علاقة له بالأديان من قريب أو بعيد، لكنه موجود في ممارسات أهلها بسبب سوء فهم من الأتباع المتحمسين، غير المدركين لطبيعة ما ينبغي أن يكون عليه الدين وأهله، إلا أنَّ الطرف الثاني كثيرا ما يستغل هذا التطرف ليوجه الاتهام إلى الدين الذي ينتمي إليه المتطرف! فيستحيل هذا الحماس والتطرف الديني إلى سهم مسموم في كبد الدين، وسدّ شامخ في وجه طموحاته، ورجس نتن يلوث ثقافته. فالحركات التكفيرية والمتطرفة فكريا وسلوكيا تضر بالدين؛ لأنَّها تفعل ما تفعل باسم الدين! والطرف الثاني لا يميز المعتدل من غيره، وخاصة أنَّ الظاهر على السطح، وفي وسائل الإعلام المغرض، هو هذا التطرف الذي يوحي بالكراهية والتكفير للآخرين، وحقده عليهم، وأنَّه يستبيح قتلهم وأموالهم وأعراضهم!! قد تكون هناك قلة قليلة تميز الغث من السمين، ولكن نحن نتكلم عن الجماهير الغفيرة في أرجاء الكوكب، التي تنتظر من يبلغها هذا الدين، ويقيم حجة الرسالة عليها! قرأت عن بعض الغربيين عندما سئل عما يعرفه عن الإسلام أجاب: إنّ الإسلام هو فلان وفلان... وذكر رجالا يعاني المسلم من تشويههم للإسلام، ولكن هم الظاهرون في الصورة مع الأسف. وقريبا سأذكر بعض الإحصاءات حول هذا الموضوع.

ولمعرفة المزيد عن أثر العنف والإرهاب في تشويه صورة الدين، اهتمت بعض استطلاعات الرأي الأمريكية بما طرأ على الجمهور الأمريكي من تغيرات، فوجدت أنَّ نسبة من الأمريكيين قد ازداد اطلاعهم عن الإسلام بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، فاستطلعت عام ٢٠٠٢ رأي هذه الفئة التي زاد اطلاعها عن الإسلام هل تأثرت سلبا أم إيجابا؟[١]

---

(١) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ٩٨.

بعد أن بذلت بسبب أحداث سبتمبر ٢٠٠١ جهدا في التعرف على الإسلام: هل أصبح رأيك في الدين الإسلامي أكثر إيجابية أم سلبية؟			
أكثر إيجابية	أكثر سلبية	لا تغيير	لا أعرف
٪١٧	٪٢١	٪٥٨	٪٤

ولقد كان للأحداث الإرهابية المتتالية التي تقوم بها جماعات تنتسب إلى الإسلام، والكيفية التي تناول الإعلام بها تلك الأحداث أثر بالغ السوء في تكوين الخلفية الذهنية الغربية حول الإسلام والمسلمين، مقارنة بالأديان الأخرى، ويظهر هذا جليا من خلال الاستطلاع الذي أجراه مركز بيو PEW عام ٢٠١١ (١):

الدين الأكثر عنفا					
	المسيحية	الإسلام	اليهودية	الهندوسية	لا أعرف/ أرفض
الولايات المتحدة	٪٩	٪٧٠	٪٢	٪٣	٪١٦
بريطانيا	٪٥	٪٧٥	٪٢	٪٣	٪١٦
فرنسا	٪٢	٪٩٠	٪٤	٪١	٪٣
ألمانيا	٪٧	٪٧٩	٪٢	٪٣	٪١٠
إسبانيا	٪٣	٪٨٧	٪٤	٪١	٪٥
روسيا	٪١٠	٪٦٧	٪١٠	٪٣	٪٩
إسرائيل	٪٣	٪٩١	٪٣	٪٠	٪٣

(١) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ٢٥٨-٢٥٩.

٦-الإعلام ووسائل التواصل

مع الأسف هناك من يظن بأنَّ انتشار الإعلام بكافة أشكاله، ووسائل التواصل والتعبير ساهمت إيجابيا في نشر الدعوة، وإقامة الحجة على الناس، وبناء على ذلك عدّ سكان الكوكب من المبلَّغين برسالة الإسلام، وجهنم تنتظرهم فيما لو لم يستجيبوا!! ولم يتنبه هؤلاء إلى أنَّنا لا ندير هذا الإعلام، ولا وسائل التواصل، وأنَّنا من الغارقين في بحرها نبحث عن منقذ!! فدَور المسلمين عامة، وأهل العلم الذين يصلحون لإقامة الحجة على الناس من أضعف ما يكون، ومع أنَّ تيارهم ضعيف إلا أنَّه مواجه كذلك ببحار ومحيطات من الغزو الفكري، والتشويه بكافة أشكاله.

وقد قام أحد الباحثين وهو: فيلد FIELD سنة ٢٠٠٧ بعمل مسح لجميع الاستطلاعات والدراسات التي سبقته منذ عام ١٩٨٨-٢٠٠٦، وأظهرت دراساته أنَّ الفئة التي اعتمدت على وسائل الإعلام التلفزيوني والإنترنت والصحف والراديو كمصدر لمعلوماتهم عن المسلمين والإسلام والعرب، كانت توجهاتهم أكثر سلبية تجاه العرب والمسلمين من الذي اعتمدوا على وسائل أخرى، غير الإعلام في الحصول على معلوماتهم حول المسلمين[(١)].

وتأكيدا على هذا فإن كثيرا من استطلاعات الرأي في بريطانيا، كان ملخصها أنَّ البريطانيين الذين تعرفوا على الإسلام عن طريق وسائل الإعلام والانترنت، كانت نظرتهم أكثر سلبية من الذين تعرفوا عليه عن طريق القراءة والبحث والاحتكاك بالمسلمين[(٢)].

---

(١) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ١٢٤. هناك استطلاعات موثقة لإثبات هذه المعلومات يمكن الرجوع إليها في الكتاب المذكور.

(٢) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ١٩٢، ١٠١. هناك استطلاعات موثقة لإثبات هذه المعلومات يمكن الرجوع إليها في الكتاب المذكور.

ولنعلم رأي الناس في الكوكب بالإسلام أسوق بيانات هذه الشريحة منه:

تناولت بعض الاستطلاعات مدى معرفة الأمريكيين أو الغربيين لتعاليم الإسلام، من خلال قياس مدى علمهم أو معرفتهم بتعاليمه، فأظهر استطلاع قامت به: ABC NEWS أنَّ متوسط ٦١٪ من الأمريكيين لا يفهمون تعاليم ومعتقدات الدين الإسلامي، مقابل ٣٦٪ من الأمريكيين يعرفونها[1].

هل تشعر أنَّك تفهم أو لا تفهم تعاليم ومعتقدات الدين الإسلامي الأساسية			
	نعم أفهم	لا، لا أفهم	ليس لدي رأي
أكتوبر ٢٠٠١	٣٤٪	٦٥٪	١٪
يناير ٢٠٠٢	٣١٪	٦١٪	٨٪
أكتوبر ٢٠٠٢	٢٥٪	٧٣٪	٢٪
سبتمبر ٢٠٠٣	٣٣٪	٦٤٪	٣٪
مارس ٢٠٠٦	٤٠٪	٥٩٪	١٪
سبتمبر ٢٠٠٦	٤٠٪	٥٨٪	٢٪
مارس ٢٠٠٩	٤٥٪	٥٥٪	*
أغسطس ٢٠١٠	٤٣٪	٥٥٪	٢٪
المتوسط	٣٦٪	٦١٪	

(١) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ٨٢ وما بعدها.

ونتيجة كهذه تعطينا فكرة عن مدى وصول حجة الرسالة إلى دولة عظيمة وكبيرة مثل أمريكا، وال ٣٦٪ الباقية لا يعني أنَّهم يعرفون الإسلام بدرجة أنَّ الحجة قد قامت عليهم!! فالغربي عندما يقول إنّه يعرف الإسلام، يعني يعرف أنَّهم يلتحون ويحجبون النساء وربما يعرف أنَّهم يصومون رمضان، ومثل هذه الشكليات التي تظهر على المسلمين. والدليل على ذلك أنَّ (صحيفة نيوزويك) قامت سنة ٢٠٠٧ بقياس مدى معرفة الأمريكيين بقِبلة المسلمين في الإسلام فكانت النتائج كما في الجدول[(١)]:

أي مما يلي هو أقدس مكان في الإسلام: القدس، مكة المكرمة، المدينة المنورة، أو إسلام آباد؟				
القدس	مكة (صحيح)	المدينة	إسلام آباد	لا أعرف
٪٣٠	٪٥٦	٪١	٪٣	٪١٠

أي أنَّ ٤٤٪ من الأمريكيين لا يعرفون قداسة مكة أو الكعبة عند المسلمين!! مع أنَّ معلومة كهذه كنا نظن أنَّها واضحة، فالبث المباشر على التلفزيون للطواف والصلوات عند الكعبة كثير.

وقد قام مركز بيو (PEW) باستطلاع يقيس فيه مدى معرفة الأمريكيين بالقرآن الكريم عند المسلمين فكانت النتيجة[(٢)]:

(١) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ٦٨-٦٩.

(٢) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ٧٠-٧١.

هل تعرف اسما يعادل الكتاب المقدس للمسلمين؟			
	الإجابة صحيحة القرآن	إجابة خاطئة	لا أعرف/ أرفض
فبراير ٢٠٠٢	٪٤٣	٪٨	٪٤٩
يونيو ٢٠٠٣	٪٤٢	٪٤	٪٥٤
يوليو ٢٠٠٥	٪٥١	٪٩	٪٤٠
أغسطس ٢٠٠٩	٪٥٢	٪٤	٪٤٥
مايو ٢٠١٠	٪٥٤	٪٢	٪٤٤

فتكون نسبة الأمريكان الذين لا يعرفون أنَّ كتاب المسلمين القرآن الكريم هي: ٥٢٪ تقريبا. والقرآن هو حجة الإسلام على البشرية. طبعا هذا لا يعني أنَّ من يعرف أنَّ كتاب المسلمين هو القرآن أنَّه يحترم هذا الكتاب، أو يؤمن به، أو يعدّه معجزا!! وإنّما يعرف أنَّه كتابهم فقط. فهل قامت الحجة الرسالية على الأمريكان؟

لوحظ من خلال الاستطلاعات أنَّ الشعوب تربط المعرفة بالإسلام ببعض الأمور الظاهرية، والعبادات والشعائر التي يمارسها المسلمون، مثل: اللحية والحجاب، أكثر من بعض المفاهيم والقيم التي ينشرها الإسلام ويدعوا لها، فمثلا: ارتبطت معرف البريطانيين عن الإسلام بالأمور الحياتية المستغربة عندهم مثل: غطاء الوجه(١).

(١) كيف ينظرون إلينا – د.سامر أبو رمان. مركز البيان للبحوث والدراسات: ١٠١.

إلا أنَّه قد يقول قائل: إنّ القرآن الكريم ذكر أنَّ الله قد أرسل في كل أمة رسولا، وعليه فلا بد أن يكون غير المؤمنين كلهم كفارا مبلَّغين، أقيمت عليهم الحجة.

والجواب: إنّ هذا الإشكال ظاهري، ويحتاج إلى مزيد تفصيل وبيان لكشف غموضه، فأقول:

إنّ أصحاب هذا القول يستدلون بأدلة أهمها قوله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [سورة فاطر: ٢٤].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [سورة الرعد: ٧].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة يونس: ٤٧].

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

والجواب الذي يوضح المقصود من هذه الآيات، هو ما ذكرته في العنوان السابق: (لم يشأ سبحانه أن يكثف من انتشار الرسل في الكوكب)، والذي يليه: (كثرة وطول الفترات بين الرسل). فالفترات بين الرسل ثابتة بدلالة القرآن والسنة، وقائمة على الواقع شئنا أم أبينا!! وقد عمّت الكثير من البشرية، وإنكارها ليس منطقيا، ولا ممكنا، وسبيلنا في مثل هذا الإشكالات أن نجمع بين هذه الآيات وما ذكرته في العنوانين السابقين، **وسر هذا الجمع كائن في قوله تعالى:** ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ [سورة القصص: ٥٩] **يعني في أصلها وأعظمها، وليس في كل أجيالها** وإن طال الزمن!! فبين العرب وإسماعيل عليه السلام ٢٠٠٠عام، هذا إن عددناه من رسلهم!!، لم يأت

العرب خلالها رسول. وقال الزمخشري في الآية: وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت، حَتَّى يَبْعَثَ فِي القرية التي هي أمّها، أي: أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها رَسُولا[1]. وقال النسفي: ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ أي في القرية التي هي أمها أي أصلها ومعظمها[2].

فالله سبحانه كان يرسل في **أصل** كل قوم رسولا، فيتبعه قلة من المؤمنين، ثم تفتر (تنقطع) الرسل عن هذا القوم مدة قد تصل إلى قرون طويلة من الزمن، فيندرس الدين ويضيع أصله، ومعلوم أنَّ الرسل كانوا مستضعفين، هم وأتباعهم، فإذا مات الرسول غلب الكفار على أتباعه، وهم قليلون، فقتلوهم وشردوهم، وأتلفوا ما وصلت إليه أيديهم من تعاليمهم.

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ عدة أمور تخص الرسالات السابقة:

١- لم يتعهد الله سبحانه بحفظ تعاليم تلك الرسل، قبل الرسول محمد ﷺ، وإنّما أناط حفظها بقدرة أهلها وأمانتهم. قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ [سورة المائدة: ٤٤]. ثم أخبرنا سبحانه أنَّهم سرعان ما حرفوا دينهم وتاجروا به فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٩].

(١) تفسير الكشاف: (٣/ ٤٢٤). وانظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (٤/ ٢٦١). وتفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ٦١٥). وتفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٤/ ٢٩٣). والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي: (٨/ ٣١٦)

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل: (٢/ ٦٥١).

٢-الرسالات التي كانت قبل الرسول محمد ﷺ كانت خاصة بأقوامها، وليست عالمية للآخرين، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال الرسول ﷺ: كان النبيُّ يُبعثُ إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة[١]. فكانت الرسالات بعد موت الرسل تُوأد في قومها ومدينتها، ومن الطبيعي أن تتلاشى سريعا في القرى والبوادي وأطراف القوم البعيدة، ناهيك عن باقي الأقوام التي لم يُكلف الرسول بتبليغهم أصلا.

٣- معجزات الرسل كانت تظهر للناس على يد الرسول، ثم تموت بموت الرسل، ويبقي منها -إلى حين - أخبار يتناقلها الناس، ويدخلها من الدسّ والتحريف ما يدخل باقي الأخبار، وحُجّة الرسالة إذا لم تحتفظ بالقدر الذي يُقنع العقل، ويثبت به صدق الرسول، لا تقوم بها حجة على أحد، ولو بقي لها ذكر على الألسنة!! فالعرب كانوا يذكرون إبراهيم ودينه، ودين اليهود والنصارى، وما قامت عليهم الحجة إلا ببعثة الرسول محمد ﷺ.

وهذه أهم الأقوال في تفسير الآيات السابقة:

قال الثعالبي: وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يعم من بُوشر من النذر ومن سمع به، فالعرب من الأمم التي خلت فيها النذر على هذا الوجه[٢].

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: فإن قيل: كيف يصح هذا مع ما يعلمه من أحوال الفترة، ومع قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة يس: ٦]. قلنا: تُحمل الفترة على ضعف دعوة الأنبياء،

---

(١) رواه البخاري: ١ / ٣٦٩ و ٣٧٠ في التيمم، باب التيمم، وفي المساجد، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً». ومسلم رقم (٥٢١) في المساجد في فاتحته.

(٢) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٤/ ٣٢٦). وانظر: اللباب في علوم الكتاب لسراج الدين الدمشقي: (١٠/ ٣٤٦).

ووقوع موجبات التخليط فيها[1]. وقال ابن عطية: وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي لم يباشرهم، ولا رأوه هم ولا آباؤهم العرب، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يعم من بوشر من النذر، ومن سمع به. فالعرب من الأمم التي خلت فيها النذر على هذا الوجه؛ لأنَّها علمت بإبراهيم وبنيه ودعوتهم، وهم ممن لم يأتهم نذير مباشر لهم سوى محمد ﷺ، وقال ابن عباس ومقاتل: المعنى لم يأتهم نذير في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام[2].

ومن جهة أخرى فإن الله سبحانه كما أرسل في كل مدينة رسولا، فقد جعل مجرمي تلك المدن يتسلطون على الرسل، فمنعوهم من التبليغ وإقامة الحجة على الناس قدر استطاعتهم، وأذاقوهم وأتباعهم ألوانا من العذاب، والصد عن سبيل الله. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٣]. وقد ذكرت سابقا شيئا عن صدهم عن سبيل الله، وأذكر هنا بعض الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء: ١٦٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنفال: ٣٦].

وجمعوا التهديد والصد معا:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [سورة الأعراف: ٨٦].

وكذلك أهل الكتاب:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [سورة آل عمران: ٩٩].

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٧/ ٢٦١).

(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٤/ ٣٥٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٣٤].

وقد أسرف اليهود وأكثروا من الصد، قال تعالى:

﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [سورة النساء: ١٦٠].

ملخص الفرز الثاني للبشرية

نخلص بعد هذا العرض والتفصيل في الفرز الثاني، إلى أن البشرية انشطرت فيه إلى شطرين، ولكلّ شطر قسمان:

١- مَن ظاهره الإيمان: انقسموا إلى:

أ- كثرة كاثرة من الصادقين

ب - وقلة من المنافقين.

٢- مَن ظاهره الكفر: انقسموا إلى:

أ - قلة معاندة أقيمت عليها حجة الرسالة

ب - وأكثرية جاهلة، لم تصلها حجة الرسالة بشكل تقوم فيه الحجة عليها.

الفرز الثالث للبشرية: فرز الناجِين عن المُعذَّبِين

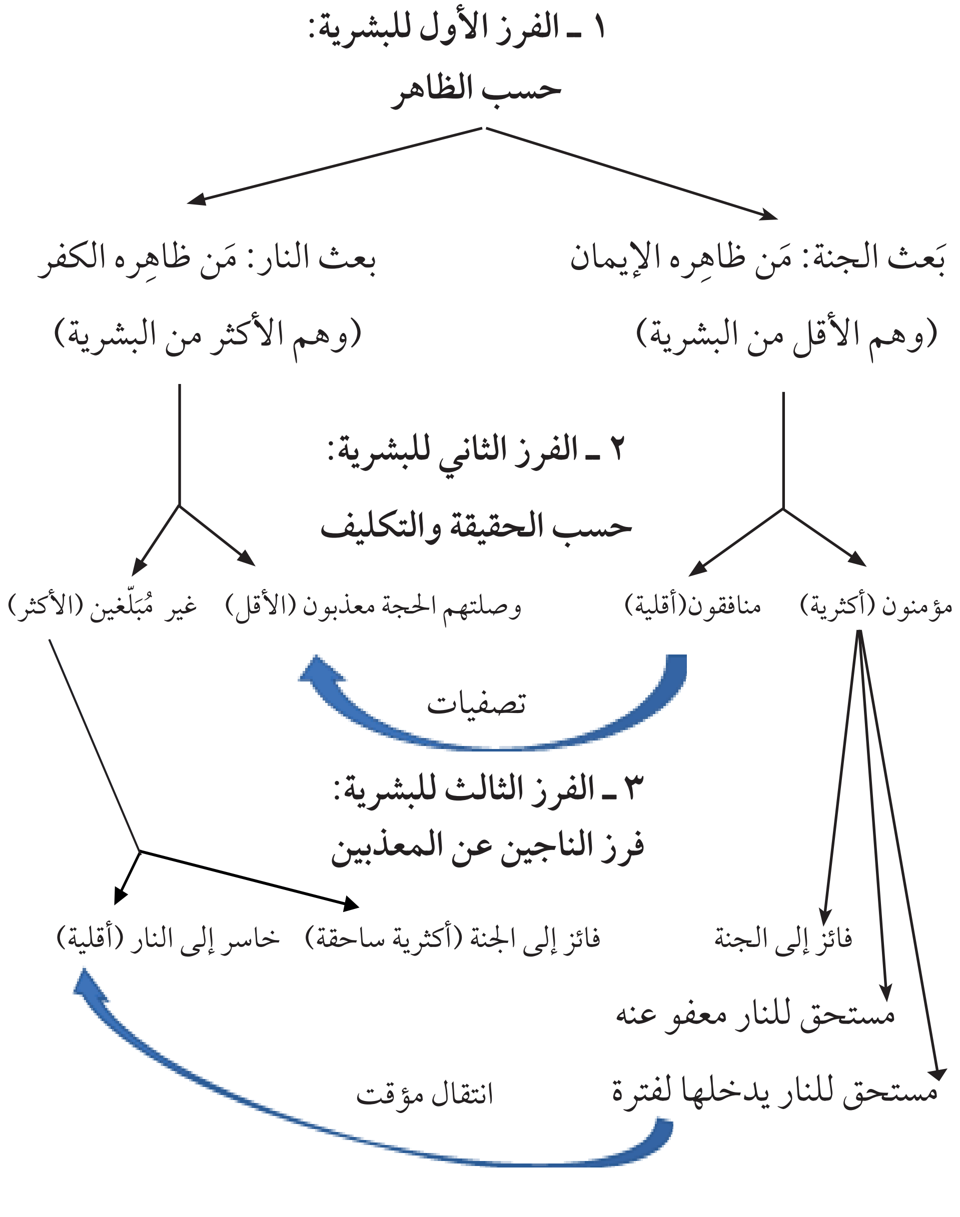

رأَينا في الفرز الثاني أنَّ البشرية انقسمت من جهة إلى: مؤمنين صادقين، وغير صادقين منافقين. ومن جهة أخرى انقسمت إلى: غير مؤمنين (كفار) معاندين رفضوا دعوة الأنبياء، وإلى غير مؤمنين جُهّال، لم تصلهم دعوة الأنبياء بالشكل الذي تقوم به الحجة عليهم.

وما سندرسه الآن في الفرز الثالث: مَن مِن هؤلاء مُؤهل لدخول الجنة؟ ومَن لن يدخلها؟ ومن منهم سيدخل النار أولا، ثم الجنة؟ وعلى أي أساس سيتم هذا الفرز؟ وعليه فسيكون الحديث عن هذا الفرز على قسمين هما:

القسم الأول

فرز المؤمنين

تمهيد:

دُور العِباد في الآخرة داران فحسب: دار المؤمنين: الجنة، ودار الكافرين: النار. والمصير البدهي للمؤمن في الآخرة الجنة مهما كان حاله، طالما لم يشرك بالله شيئا. قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾

[سورة الزخرف: ٦٨-٧٠].

وعن أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - قال: مشَيْتُ مع الرسول ﷺ ساعة، فقال لي: اجلس هاهنا، حتى أرْجِع إليك. فانطلق في الحرَّة، حتى لا أراه، فَلَبِثَ عني، فأطال اللُّبثَ ثم إنّي سمعتُه يقول وهو مُقبل: وإن سرق، وإن زنى؟ قال: فلما جاء لم أصْبِرْ، فقلت: يا نبيَّ الله جعلني الله فداك، مَن تُكلِّمُ في جانب الحرَّة، ما سمعتُ أحداً يرجع إليك شيئاً؟ قال: ذاك جبريل، عرض لي في جانب الحرة، فقال: بَشِّرْ أمَّتك أنَّه مَن مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة، فقلتُ: يا جبريل، وإن سرق، وإن زنى؟ قال: نعم، قلتُ: يا رسولَ الله وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، قال: قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر[(١)].

ومن خلال استقراء الشريعة، والتأمل في نصوصها، تبين أنَّ المؤمنين يوم القيامة يُفرزون إلى فرقتين: فرقة تدخل الجنة دخولا أوليا بلا سابق عذاب،

---

(١) رواه البخاري: ١١ / ٢٢٢ و ٢٢٣ في الرقاق، باب المكثرون هم المقلون، وباب قول النبي ﷺ: «ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً». ومسلم رقم (٩٤) في الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً لم يدخل الجنة، وفي الزكاة، باب الترغيب في الصدقة.

وأخرى كسبت من السيئات ما جعلها تستحق العذاب، وهذه الفرقة بدورها انقسمت إلى فرقتين كما سنرى.

أولا: مؤمنون فائزون: يدخلون الجنة دخولا أوليا بلا سابق عذاب

هذه الفرقة الفائزة تحقق فيها شرطان: الأول: خلت أعمالها من موبقات توعد الله عليها بالنار. والثاني: رجحت حسناتها على سيئاتها. فدخلت الجنة بفضل الله ورحمته. وهذه الفرقة لا شك أنَّها موجودة في الرسالات السابقة، وإنّما نأتي بالأدلة من الكتاب والسنة؛ لأنَّ هذا المتوفر لدينا، وأمور العقائد ليس فيها منسوخ، فما ثبت منها في ديننا، فهو ثابت في باقي الرسالات السابقة نفسه.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١-١١]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [سورة البينة: ٧-٨].

ومن ضمن هذه الفرقة أناس أخبرنا الرسول ﷺ أنَّهم يدخلون الجنة بغير حساب. فعنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، أَوْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ - شَكَّ فِي أَحَدِهِمَا - مُتَمَاسِكِينَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حتى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الجَنَّةَ، ووُجُوهُهُمْ على ضَوْءِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ(١).

---

(١) رواه البخاري: ١١ / ٣٥٩ في الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، وباب صفة الجنة والنار، وفي بدء الخلق، باب في صفة الجنة.

ولا شك أنَّ من هذه الفرقة المبشرين بالجنة، ولم أقصد فيما ذكرته هنا استيعاب كل من تشمله هذه الفرقة، وإنّما أردت إثبات أنَّ هناك من يدخل الجنة بغير سابق عذاب.

ثانيا: مؤمنون مستحقون للنار، وهؤلاء قسمان:

١. مؤمنون يستحقون النار مَعفوٌ عنهم

وهذه الفرقة كثرت سيئاتها، أو اجترحت من الموبقات ما جعلها تحت طائلة العقوبة، إلا أنَّ ألطاف الله - لسبب ما - أحاطت بهم، فشملهم بفضله ورحمته، فتُصرف وجوههم عن النار بعد أن عنت للحي القيوم، وينعطفون باتجاه الجنة، وقد فُتّحت لهم أبوابها. ومن هذه الأسباب ما ذكره ابن تيمية فقال: وأما أهل السنة فوجدوا أنَّ أهل الكبائر من الموحدين الذين توعدهم الله بالعقاب بَيّن أنَّ عقابهم يزول عنهم بأسباب:

أحدها: التوبة، فإنّ الله يغفر بالتوبة النصوح الذنوب جميعا.

السبب الثاني: الحسنات الماحية.

السبب الثالث: مصائب الدنيا والبرزخ.

السبب الرابع: الدعاء والشفاعة، مثل الصدقة عليه بعد موته، والدعاء له، والاستغفار.

السبب الخامس: الأعمال الصالحة التي يهديها له غيره من عتاقة وصدقة.

السبب السادس: رحمة ربه.

فكل حديث فيه عن مؤمن أنَّه يدخل النار، أو أنَّه لا يدخل الجنة، فقد فسره الكتاب والسنة، أنَّه عند انتفاء هذه الموانع[١]. وقد قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى: (١/ ١٢٣). وانظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري: (٨/ ٣٥٠٤).

﴿ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [سورة هود: ١١٤].

وما أكثر الأدلة من الكتاب والسنة على ما ذكره ابن تيمية، إلا أنَّني عزمت في كتابي هذا على ألّا أسترسل فيما هو مشهور مألوف، وأن أحرص على الاهتمام بصلب الموضوع الذي كتب هذا الكتاب لأجله.

٢. مؤمنون يدخلون جهنم لفترة من الزمن

وهذه الفرقة زادت سيئاتها على حسناتها، أو أنَّها ارتكبت من الموبقات ما جعلها مستحقة للعقوبة، ولم يكن هناك مانع يمنع من عقوبتها كما ذكرت في العنوان السابق، فسيقت بعدل الله إلى النار، لتُطهرها من رجس ما ساء من أفعالها، فقد قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٣١].

ومن هذه الموبقات التي يستحق من ارتكبها دخول جهنم ما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: اجتنبوا السبعَ الموبقات، قيل: يا رسولَ الله، وما هُنَّ؟ قال: الشركُ بالله، والسِّحْرُ، وقتْلُ النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكلُ مال اليتيم، وأكل الرِّبا، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات[1]. إلا أنَّ الصَّحابَة وأهل السُّنَّةِ والجَماعةِ على أنَّ أهل الكبائر يَخْرُجُونَ مِن النَّارِ ويُشْفَعُ فيهم[2].

ومن أعظم الأحاديث في الشفاعة للموحدين حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، ما من أحد

(١) رواه البخاري: ٥ / ٢٩٤ في الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾، وفي الطب، باب الشرك والسحر من الموبقات. ومسلم رقم (٨٩) في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية: (٥/ ٢٧٧).

منكم بأشدَّ مناشدةً لله في استيفاء الحق من المؤمنين يوم القيامة لإخوانهم الذين في النَّار، فيقولون: ربَّنا كانوا يصومون معنا، ويصلُّون ويحجُّون، فيقال لهم: أخرجوا من عَرَفتم، فتحرم صورُهم على النّار، فيُخرِجون خلقاً كثيراً قد أخذت النارُ إلى نصف ساقه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربّنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به. فيقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً. ثم يقولون: ربَّنا، لم نَذَرْ فيها أحداً ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربَّنا لم نَذَر فيها ممن أمرتنا أحداً، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ ذرَّة من خيْر فأخرجوه، فَيُخْرِجونَ خلقاً كثيراً، ثم يقولون: رَبَّنا لم نَذَرْ فيها خيراً. فيقول الله عز وجل: شفعَتِ الملائكة، وشفعَ النبيون، وشفعَ المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبضُ قبضة من النار، فيُخرج منها قوماً لم يعْمَلُوا خيراً قط... ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربَّنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربَّنا أيُّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رِضايَ، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً[1].

وهكذا ينفصل الموحدون عن الكفار المعاندين ودارِهم جهنم، بعد أن شاركوهم[2] فيها فترة من الزمن؛ ليرجعوا إلى أهليهم ودارهم الأبدية الجنة.

---

(١) رواه البخاري: ١٣ / ٣٥٨ - ٣٦٠ في التوحيد، باب ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وفي تفسير سورة النساء، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. ومسلم رقم (١٨٣) في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

(٢) طبعا المشاركة في المبنى فقط، أما عذاب الموحدين فهو دون عذاب الكفار بلا شك، وليس هنا مقام التفصيل في هذا.

القسم الثاني:

فرز غير المؤمنين ممن لم تقم عليهم حجة الرسالة (جُهّال)

تعهد الله للبشرية متمثلة بأبيها آدم وأمها حواء، عندما أهبطهما إلى الأرض أن يمدها بالهداية عن طريق إرسال الرسل، فقال: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وتعهد سبحانه لهم أيضا بأن يحاسبهم بناء على ذلك، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وفي الوقت نفسه أرسل عليهم الشياطين تؤزهم أزا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [سورة مريم: ٨٣]، ليحصل الابتلاء بين الفريقين.

إلا أنَّ الذي حدث على أرض الواقع أنَّه تم تسليط الشياطين على البشرية بشكل دائم، فعن عياض بن حمار المجاشعي – رضي الله عنه – أنَّ رسولَ الله ﷺ قال ذات يوم في خُطبته فيما يرويه عن ربه: إنّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ **كلَّهم**، وإنَّهم أَتَتْهُمُ الشياطين فاجتالتهمْ عن دِينهم، وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهُم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنزِّلْ به سُلطاناً(١). فبيّن الرسول ﷺ أنَّ الشّرك مرجعه إلى الشيطان، وأنَّ الإنسان بعيدا عن الشيطان لا يُشرك، بل يستمر على الفطرة، فكُفر الناس بسبب التسليط الدائم للشياطين عليهم، بينما تقطّع إرسال الرسل الداعين إلى التوحيد بين الحين والآخر! فحصلت الفترات بين الرسل، ومالت كفة الناس في هذه الفترات إلى الشرك؛ بسبب انقطاع الوحي، وانفراد إبليس وجنده بالبشر، فسبب هذا خلافا بين العلماء؛ إذ كيف يحاسَب الناس على الشرك؟ وهم في الوقت نفسه لم يعصوا الرُّسل؟ لأنَّها لم تأتهم أصلا!! وهذه أبرز أقوال العلماء فيهم:

---

(١) رواه مسلم: رقم (٢٨٦٥) في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

أولا: مشركو أهل الفترة معذبون

قالت المعتزلة والماتريدية وأبو حنيفة: إنَّ مشركي أهل الفترة معذبون، ولا عذر لهم طالما تمتعوا بالعقل؛ لأنَّ التوحيد يدركه العقل، ويستحسنه بغير رسول[1]. وهذه أهم أدلتهم:

١-التوحيد يدركه العقل ولا يحتاج إلى رسل.

٢-الآيات التي توعدت الكفار بالتعذيب مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨].

٣-بعض النصوص التي ذكرت العذاب، أو النار لبعض من مات في الفترة، مثل عمرو بن لحي الخزاعي، وأبي الرسول ﷺ أنَّه في النار.

وهذا الرأي غريب مهجور، يتناقض مع كليات شرعية ثابتة بأدلة كثيرة جدا، وهي أنَّ الله لا يعذب أحدا قبل أن يرسل إليه رسولا؛ فيقيم الحجة عليه. ومن النصوص التي تنضوي تحت هذه الكلية قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [سورة الإسراء: ١٥]. فالتوحيد وإن كان يدرَك شيء منه بالعقل لمن تأمل، إلا أنَّ الله سبحانه تفضل على عباده بأن لا يعذب أحدا ما لم يرسل له رسولا يقيم الحجة عليه.

والآيات التي احتجت بها المعتزلة كلها تتحدث عن كفار أقيمت عليهم الحجة، والتي لم تنص على هذا تُحمَل عليه، لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [سورة الملك: ٨، ٩]. فلا يدخل النار إلا

(١) راجع: حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح لابن عاشور: (١/ ٩٢). وعلم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف: ص: ٩٨). ونشر البنود على مراقي السعود لعبد الله الشنقيطي: (١/ ٢٨). حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع لحسن العطار: (١/ ٨٨). والدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٣/ ١٨٥).

معاند مكذب للرسل، وقد سبق الكثير حول هذا المعنى، وسيأتي كذلك، فلا أطيل هنا.

ومن جهة أخرى فإن عذر أهل الفترة واضح للعيان، وقد قال الرسول ﷺ: ولا أَحَدَ أَحَبُّ إليه العُذْرُ مِنَ اللَّهِ، ومِنْ أجْلِ ذلك بَعَثَ المبشِّرينَ والمُنْذِرينَ(١). وقال النووي: لا حُكم قبل ورود الشرع، وهذا هو الصحيح عند محققي الأصوليين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [سورة الإسراء: ١٥](٢).

والحقيقة أنَّ أهل الفترة لا يَعرفون أنَّهم على خطأ، وما كان لنا نحن أيضا أن نجزم أنَّهم على خطأ لولا ورود الشرع، فبعد ورود الشرع عرفنا أنَّهم كانوا على خطأ. قال الشاطبي: ما يتَعلَّقُ بالآخرة لا يُعْرَفُ إلا بالشَّرعِ، ولذلك لمَّا جاء الشَّرعُ بعد زمان فَتْرَةٍ، تبين به ما كان عليه أهلُ الفترة من انْحِرَافِ الأحوال عن الاستقامة، وخروجهم عن مُقْتَضَى العَدْلِ في الأحكام(٣).

وأما النصوص التي ذكرت أنَّ بعض الأفراد من أهل الفترة في النار، فيمكن أن تؤول بما لا يتعارض من أصول الدين وكلياته كأن يُقال:

- تُحمل على الخصوص الذي لا يُعمّم.
- ويمكن أن يقال: لعل الحجة قد وصلت لهم بشكل خاص يعلمه الله.
- أو أن يُحمل خبر الرسول ﷺ على أنَّهم يُمتحنون يوم القيامة -كما سيأتي- وأنَّهم يخسرون في ذلك الامتحان.

---

(١) رواه البخاري عن المغيرة بن شعبة: ١٢ / ١٥٤ و ١٥٥ في المحاربين، باب من رأى مع امرأته رجلاً فقتله، وفي التوحيد، باب لا شخص أغير من الله. ومسلم رقم (١٤٩٩) في اللعان في فاتحته.

(٢) شرح النووي على مسلم: (٩/ ١٠١).

(٣) الموافقات للشاطبي: (٢/ ٧٧).

- أو حمل تلك الحالات على أنَّهم أو بعضهم يكون في بعث النار في بداية الحشر، ثم مع الفرز يخرج منه لسبب من الأسباب التي سبق ذكرها، والله أعلم.

المهم أنَّ كلية ثبوت عدم التعذيب بسبب عدم قيام حجة الرسالة بكل وضوح، لا تُعارض ببعض النصوص الفردية، وإنّما تؤول هذه النصوص بما لا تتعارض فيه مع كليات الدين، وأصوله المعلومة بداهة من الدين وصفات رب العالمين وعدله، ورحمته.

ثانيا: مشركو أهل الفترة ناجون

وبه قالت الأشاعرة، وفقهاء الشافعية: والقصد من قولهم: (ناجون): يعني أنَّهم غير محاسبين على كفرهم الذي كان في الفترة، ويبقون في مشيئة الله سبحانه، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم[1]. قال السيوطي: أطبقت أئمتنا الأشاعرة، من أهل الكلام والأصول، والشافعية من الفقهاء، على أنَّ من مات ولم تبلغه الدعوة يموت ناجيا، وأنَّه لا يقاتَل حتى يُدعى إلى الإسلام، وأنَّه إذا قُتل يُضمن بالدية والكفارة، نصّ عليه الإمام الشافعي رضي الله عنه، وسائر الأصحاب[2].

وحجتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥]. وأنَّهم على أصل الفطرة، لم يقع منهم عناد ولا تكذيب للرسل. واستدلالهم بالآية الكريمة في مكانه، إلا أنَّ قولهم بأنَّهم على أصل الفطرة

(١) انظر: الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) (٣/ ١٨٥). وحاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع لحسن العطار: (١/ ٨٨). ونشر البنود على مراقي السعود لعبد الله الشنقيطي: (١/ ٢٨). وعلم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف: ٩٨. الوجيز في أصول الفقه الإسلامي لعبد الكريم زيدان: (١/ ٤٥٤).

(٢) الحاوي للفتاوي للسيوطي: (٢/ ٢٤٤).

فيه نظر! فالله فطر الناس على الحنيفية، وهؤلاء كفار مشركون، فلا شك أنَّ فطرتهم لم تحتفظ بنقائها، وانحرفت انحرافا كبيرا أخرجهم من دائرة التوحيد. ولعل الأشاعرة قصدوا بأنَّهم على أصل الفطرة فيما خُلقوا عليه، بغض النظر عما آل إليه أمرهم من الشرك الخالي من العناد والتكذيب للرسل؛ لأنَّهم لم يأتهم رسول.

ثالثا: مشركو أهل الفترة يُمتحنون يوم القيامة

وهو رأي الجمهور من العلماء، ومنهم: ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن حزم وابن حجر العسقلاني. قالوا: إنّ الله يمتحنهم يوم القيامة، فمن فاز دخل الجنة، ومن خسر دخل جهنم(١).

قال ابن كثير: وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتعاضدة، الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، رحمه الله، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب (الاعتقاد)، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ النقاد(٢). وقال ابن حجر: وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون ومن مات في الفترة من طرق صحيحة، وحكى البيهقي في كتاب الاعتقاد أنَّه المذهب الصحيح، وتُعُقّب بأنَّ الآخرة ليست دار تكليف، فلا عمل فيها ولا ابتلاء. وأجيب بأنَّ ذلك بعد أن يقع الاستقرار

---

(١) راجع: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية: (٢/ ٢٩٨). وإعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم: (٦/ ٢٢٤). ودرء القول القبيح بالتحسين والتقبيح لنجم الدين الطوفي: ٢٣٦. والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (١/ ٦١). ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري: (١/ ١٨٦). والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم: (٣/ ٧٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (٥/ ٥٨).

في الجنة أو النار، وأما في عرصات القيامة فلا مانع من ذلك[1].

وقال المُلا علي القاري: وجاء في بعض الروايات، أَنَّهم يمتحنون في الآخرة برمي أنفسهم في النار، فمن أطاع دخل الجنة، ومن أبى دخل النار، وكذا المجانين وأهل الفترة. قال ابن حجر: والحق أيضا فيمن مات من أهل الفترة أَنَّهم ليسوا في النار لتلك الآية. وأما الأخبار الدالة على خلاف ذلك كخبر مسلم: «أبي وأبوك في النار»[2] مؤولة[3].

واستدلوا على مذهبهم بأحاديث أقواها:

عن الأسود بنِ سَرِيعٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قال: أربعةٌ يوم القيامة: رجلٌ أَصَمُّ لا يَسْمعُ شيئا، ورجل أَحْمقُ، ورجل هَرِمٌ، ورجل مات في فَتْرَةٍ، فأما الأَصَمُّ فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئا، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب، ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما[4].

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (٣/ ٢٤٦).

(٢) يشير إلى حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رَجُلاً قال: «يا رسولَ الله، أيْنَ أبي؟ قال: في النار، فَلَمَّا قَفَّى دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار»: رواه مسلم رقم (٢٠٣) في الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا تناله شفاعة ولا تنفعه قرابة المقربين. وأبو داود رقم (٤٧١٨) في السنة، باب في ذراري المشركين.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري: (١/ ١٨٦).

(٤) مسند أحمد: (٢٦/ ٢٢٨)، رقم: ١٦٣٠١. وقال عنه الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث حسن. وفي صحيح ابن حبان: (١٦/ ٣٥٦)، رقم: ٧٣٥٧.

الترجيح

١- **أما القول الأول:** فضعْفه ظاهر لأسباب ثلاثة: الأول: لمخالفته نصوص الكتاب والسنة القاضية بأن لا مؤاخذة على من لم يأته رسول وتقوم عليه الحجة. والثاني: لمخالفته القاعدة الكلية التي ذكرتها في الركائز وهي: رحمة الله غلبت غضبه. والثالث: لمنافاته المنطق في عدم قبول عذرهم بأنَّهم لم يأتهم رسول ينذرهم، مع وجاهته، واتساقه مع الكتاب والسنة، والله يحب العذر كما مضى.

٢- **وأما القول الثاني:** فلا غبار عليه في عدم اعتماده تعذيب من لم تقم عليه الحجة، إلا أنَّه لم يأخذ بالأحاديث القوية التي ذكرها أصحاب القول الثالث، مع أنَّها لا تتعارض مع ما ذهبوا إليه، وإنَّما تكمله، فهم اكتفوا بأنَّ عدم إرسال الرسول يمنع من استحقاق التعذيب، وبالوقت نفسه لا يستحقون الجنة!! ووقفوا هنا. وواضح أنَّ الطريق لم يكتمل، فلا بد من تتمة توصل أهل الفترة إما إلى الجنة وإما إلى النار، فاكتفوا بالتفويض إلى المشيئة. وهذا يمكن أن يكون حلّا لولا ثبوت الأحاديث بامتحان أهل الفترة، وهو ما تبناه أصحاب القول الثالث.

٣- **وأما القول الثالث:** فلم يصطدم بنصوص الشريعة، وإنّما سار على أصول الدين، فلا بد أن يُمتحن الناس امتحانا يكون محدِّدا لمصيرهم، فلما لم يمتحن سبحانه أهل الفترة في الدنيا بإرسال الرسل، عقد لهم هذا الامتحان في الآخرة، وما جاؤوا به من أدلة قوية عزز هذا القول ورجحه. إلا أنَّه تبقى عليه ملاحظة لا بد من مناقشتها:

ملاحظة على القول الثالث: امتحان مشركي أهل الفترة بدخول نار.

كان امتحان أهل الفترة بأمرهم أن يدخلوا نارا[1]!! وظاهر هذا أنَّه تكليف بما لا يُطاق، والأصل أنَّ هذا النوع من التكاليف مستبعد. وقد نسب ابن كثير هذه الملاحظة للشيخ أبي عمر بن عبد البر النمري حيث قال: فكيف يُكلّفون دخول النار، وليس ذلك في وُسع المخلوقين، والله لا يكلّف نفسا إلا وسعها؟!

فأجابه ابن كثير: ليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإنّ الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم، كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبوا، ومنهم المكدوس على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا، بل هذا أطم وأعظم، وأيضا فقد ثبتت السنة بأنَّ الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنَّه نار، فإنّه يكون عليه بردا وسلاما، فهذا نظير ذلك، وأيضا فإنّ الله تعالى قد أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضا حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفا، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضا شاق على النفوس جدا، لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.أهـ.[2]

ولا شك أنَّ (تكليف النفس حسب وسعها) قاعدة كلية ثابتة شرعا وعقلا، ولا شك أيضا أنَّنا نثق بالله سبحانه، وأنَّه أعدل من أن يكلف نفسا فوق طاقتها، ثم يحاسبها بناء على ذلك. ولا شك أنَّ الله سبحانه أعلم منا بما يطيقه الإنسان، وما

(١) هناك روايات متعددة أن الله سبحانه لا يأمرهم أن يدخلوا جهنم نفسها، وإنما يُخرج لهم لسانا من النار ويأمرهم بدخوله.

(٢) تفسير ابن كثير: (٥/ ٥٨).

لا يطيقه فقد قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: ١٤]، وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [سورة النجم: ٣٢]. وطالما ثبت أنَّ الله قد كلفهم بدخول نار، فقد ثبت في علمه سبحانه أنَّ هذا من طاقتهم ووسعهم بلا شك.

ويبدو أنَّ هذا الاستبعاد لأمر الله هذا حاصل نتيجة سيطرة سنن الدنيا وقوانينها وأسبابها على أصحاب هذا القول، فجعلوا مفهوم الطاقة وحدودها التي في الدنيا هو نفسه في الآخرة، وهذا لا يستقيم أبدا من الجانب العقلي والشرعي.

- **أما الجانب العقلي**: فالناس بعد البعث في كَوْن آخر له مقاييس أخرى لا نعرف عنها إلا الشيء اليسير، وقياس كَون على كون آخر دخول في المجهول، ولا يُعلم إلا بالوحي.
- **وأما الجانب الشرعي**: فقد أخبرنا سبحانه أنَّ الناس في الآخرة تتعدّل صفاتهم وأحوالهم عما كانوا عليه في الدنيا، فيُحرق بعضهم في النار ولا يموتون، بل ويتحدثون ويتناقشون فيما بينهم داخل هذا العذاب! وحدثنا أنَّنا نتمكن من رؤية ما لم نكن نتمكن من رؤيته في الدنيا كالجن والملائكة. وأخبرنا أنَّ الحَرّ والعرق يغمر الناس على حسب أعمالهم، ولا يموتون من الحر ولا من الغرق.

وهنا تتجلى حكمة الله الذي أتقن كل شيء في اختصار دعوة الرسل بسؤال واحد، فيركز على أصل دعوة الرسل وجوهرها، فمن فاز في هذا الامتحان أصاب كبد الحقيقة، وامتلك ناصية النجاة، **وحقيقة دعوة الرسل هي: أن يَعرف الخلق ربهم معرفة تُكسبهم حبا واستسلاما له**، ولو تمعّنا في هذا الامتحان لأهل

الفترة ومن في حُكمهم، وأمر الله لهم بأن يدخلوا لسان نار جيء به لامتحانهم، بعد أن عاينوا حشره سبحانه وأهوال يوم القيامة، والرعب الذي شابت له الأطفال، وعاينوا ملائكته وعدله وقدرته وجلاله، لرأينا أنَّه سبحانه قد وضع هؤلاء الناس على المقصد الأساسي من بعثة الرسل، وجوهر الابتلاء: هل يثق هؤلاء الناس بربهم، وبعدله وحكمته مهما كان الأمر؟ هل سينقادون لأمره ثقة بحكمه واختياره، وتسليما لعدله الذي غاب عنهم فهمه في هذا الامتحان؟

أم أنَّهم بعد كل هذه الدلائل والآيات لا زالوا لا يعرفون ربهم كما ينبغي، ولا يثقون به تلك الثقة، ولا يرونه بتلك الحكمة!! ولا ينزهونه عن الظلم والنقائص؟ **وهذا لب الاختبار، وهو المقصود من أمرهم بدخول النار**، وليس عين دخولهم النار!! لأنَّ المؤمن يثق بعدل ربه وحكمته، فعندما يقول له سبحانه: لو دخلت هذه النار تنجو، سيقتحمها وهو على ثقة بأنَّها مجرد شكل يخفي خلفه عدل الله وحكمته وفضله ورحمته!! وأما من أبى فقد كفر بربه في قلبه قبل أن يتكلم بلسانه!! لأنَّه أساء الظن بربه، ووجّه له اتهاما: كيف تأمرنا بدخول النار وقد فررنا منها؟ وهذا يعني بوضوح أنَّهم ظنوا أنَّ ما أُمروا به ليس من الحكمة! ولا من العدل!! وكان الأصل أن ينتبهوا إلى أنَّ هذا مجرد امتحان!! وأنَّه طالما صادر من الله الرحمن الرحيم العادل الحكيم، فلا شك أنَّه مناسب، ولكن خفيت عليهم حكمته؛ لأنَّه امتحان فحسب.

إنّ الكفر الذي وقع به هؤلاء لهو أشد الكفر وأقبحه، فإن كان الناس في الدنيا قد كفروا بالله الغائب، فهؤلاء كفروا بالله الحاضر!! وإن كان الرسل في الدنيا حدثوا الناس عن البعث، فهؤلاء الممتحَنون قد عاينوا البعث وعايشوه، وإن كان الرسل قد حدثوا العباد في الدنيا عن وجود الله الواحد، فها هو أمامهم جل جلاله، وإن كان الرسل قد حدثوا الناس عن الأنبياء والرسالة، فها هم

الرسل وأقوامهم حولهم، بل هؤلاء الممتحَنون يُبلغهم الله أمره بنفسه جل جلاله، وإن كان الرسل قد حدثوا الناس عن الجنة والنار، فهؤلاء يُمتحنون في ميدان الفرز بين الجنة والنار!! أبعد كل هذا يحتاجون شروحا عن ربهم!!

إذًا ثبت من خلال هذا الامتحان أنَّهم بعد كل ما رأوا لا يعرفون صفات الله التي تليق به، ولا يثقون برحمته وعدله، ويشكون بحكمته، فاستحقوا النار ليس لأنَّهم لم يدخلوها؛ بل لأنَّهم ما عرفوا ربهم فعصوه، ولو عرفوه لما ترددوا في اقتحامها، واثقين أنَّ السعادة وراء هذا الشكل المسمى نارا، وأنَّ الله أعدل من أن يكلفهم ما لا يطيقون.

وهنا أمر شائك وأكثر غموضا لا بد من الدخول فيه؛ لأنَّه مما قصدت تبيينه ومعالجته في هذا الكتاب وهو:

نتوقع أن أكثرية أهل الفترة ومن في حكمهم مصيرهم إلى الجنة، للأسباب الآتية:

السبب الأول: انتهاء الحكمة من وجود هذا النوع من غير المؤمنين الذين لم يعاندوا الرسل.

يعود السبب في وجود غير المؤمنين من أهل الفترة ومن في حكمهم إلى ثلاثة أمور:

١- قلة عدد الرسل مقارنة بكثرة الناس وتباعدهم.

٢- عدم التمكين في الأرض للرسل، تمكينا يشتمل كامل الدائرة الدعوية التي تدخل في التكليف، حتى يطلع على دعوتهم الناس مخيرين بكامل حريتهم، آمنين لا يخافون سلطانا ولا جندا، وليتسنى للرسل ومن ينوب عنهم عرض الدين كما ينبغي، كامل الحجة والبرهان.

٣- عدم حفظ الله سبحانه للديانات قبل الإسلام، فضاعت تعاليمها.

وقد انتهى الابتلاء الذي خصّ الله به هذا الكوكب، وأغلقت أبوابه وسجلاته، وحشر الله الخلق، فأكرم المؤمنين، وأما هؤلاء غير المؤمنين المقصودون هنا فكانوا على هامش المسرح، أو أحد لاعبيه ليس أصالة عن أنفسهم! وإنّما لصالح العتاة الطغاة المعاندين لدعوة الرسل!!

فأما الذين هم على هامش المسرح، فهم الذين لم يدركوا الرسل. وأما الذين شاركوا مسرح الابتلاء في الكوكب، فالمقصود بهؤلاء من أدركوا الرسل ولكن لم تبلغهم الدعوة بشكل تقوم به الحجة عليهم، ولعلهم كانوا جندا لأئمة الكفر والضلال في وجه الرسل ودعاتهم في نفس الوقت، كما هو معلوم من حال من يعيش في دولة أو قبيلة يعادي من تعادي ويحب من تحب، أحيانا برأيه وأحيانا تبعة للملأ. فأكثر هؤلاء هم وقود حرب لم يُشعلوها، وليسوا أصحاب قرار فيها، ولعلهم لا يفهمون ما يدور بشكل سليم.

فالرسول ﷺ أرسل رسولا لحاكم الروم وآخر لحاكم الفرس، فهل قامت الحجة على كل سكان الروم وفارس بهذين الرسولين اللذين لم تغادر دعوة الرسول ﷺ طاولتهما؟ وعند القتال سنجد مئات الآلاف من جنود الروم والفرس تقاتل بشراسة الرسول محمد ﷺ ودعوته، مع أنَّ الحجة الرسالية لم تقم على هؤلاء المقاتِلين!!

فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: حدثني أبو سفيان بن حرب مِن فيه إلى فيَّ قال: انطلقت في المدَّة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينا أنا بالشام، إذ جِيء بكتاب من النبي إلى هِرَقل، قال: وكان دِحْية الكلبيُّ جاء به، فدفعه إلى عظيم بُصْرى، فدفعه عظيم بُصرى إلى هِرَقْل... فقرأه، فإذا

فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنّي أدعوك بدِعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَم، وأَسْلِمْ يُؤْتِك الله أجرك مرتين، فإن تولَّيت فإنّ عليك إثم الإرِيسيِّين[1] و﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]. فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكَثُرَ اللَّغَط، وأمرَ بنا فأُخْرِجنا. قال الزهري: فدعا هِرَقْلُ عظماء الروم، فجمعهم في دارٍ له، فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد آخرَ الأبد، وأن يثبت لكم مُلككم؟ قال: فحاصُوا حَيْصَة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أُغْلِقتْ، قال: عَلَيَّ بهم، فدعا بهم، فقال: إنّي اختبرتُ شِدّتكم على دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحببتُ، فسجدوا له ورضوا عنه[2].

وهؤلاء الإريسيون الذين حَمّل الرسول ﷺ هرقل - فيما لو تولى عن الإيمان - وِزر عدم إيمانهم، هم ومَن على شاكلتهم مَن يجندُهم هرقل لقتال الرسول ﷺ ودعوته، والحال أنَّهم خارج التصور السليم عن الرسول ﷺ وعن دعوته، ولم تقم عليهم حجة الرسالة التي بقيت أسيرة الغرف المغلقة في قصر هرقل. وما أكثر هؤلاء في كل زمان ومكان!!

ومثل هؤلاء يستبعد الإنسان خسارتهم في امتحان الآخرة، وتعذيبهم بسبب أمر عام ليس لهم فيه قرار واختيار!! وبنفس الوقت لم يكونوا هم بأنفسهم

---

(١) يعني: الفلاحين.

(٢) رواه البخاري: ١ / ٣٠ - ٤٢ في بدء الوحي، وفي الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان. ومسلم رقم (١٧٧٣) في الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام.

من معاندي دعوة الرسل أو المكذبين بها؛ إذ لم تتمكن الحجة منهم أصلا، ولم يتمكنوا منها!! ولكن يمكن أن يُنظر إليهم من خلال سلوكهم الشخصي، وأخلاقهم وقيمهم وإنسانيتهم، وهذه الأمور يراعيها الشرع بشكل كبير؛ لأنَّها لُبّ دعوة الرسل بعد التوحيد. فنتوقع خسارة الامتحان للقلة المجرمين إنسانيا وأخلاقيا، وهذا يتناسب مع ظاهر القرآن فيما لو تأملنا ما وصف سبحانه به أهل النار، وسيأتي مزيد من التفصيل حول هذه النقطة في السبب الخامس.

وأما الأتباع الذين ذكر القرآن الكريم أنَّهم مع أسيادهم كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٦، ١٦٧] فالمقصود الأتباع الذين أقيمت عليهم الحجة، واختاروا صف أسيادهم وزعمائهم في مواجهة الرسل ودعاتهم. وهذا واضح في دعوة نوح عليه السلام حيث قال الله عنه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [سورة نوح: ٢١]، فبين نوح عليه السلام أنَّه بلّغ الأتباع، إلا أنَّهم عصوه وكفروا بدعوته، واختاروا الانضمام إلى أعدائه. ومثل هذا كفار مكة في أول دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وقلت: (في أول الدعوة)؛ لأنَّهم في آخرها آمنوا كما هو معلوم من السيرة النبوية.

السبب الثاني :الآيات التي تحدثت عن كثرة غير المؤمنين لم تصفهم بأنَّهم معذبون

مما تجدر الإشارة إليه أنَّه باستقراء آيات القرآن الكريم وجدت أنَّ: كل الآيات التي تحدثت عن أنَّ غير المؤمنين أو المشركين أكثرية، لم تتحدث عن تعذيبهم!! وفي الوقت نفسه كل الآيات التي تحدثت عن عذاب الكفار والمشركين لم تقل إنّهم أكثرية!!

فالله قد وصف غير المؤمنين بأنَّهم أكثرية، وقد مر هذا المعنى سابقا، ولكن لم يقل إنّه سيعذب هذه الأكثرية ولا في آية واحدة!! قال تعالى:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة هود: ١٧].

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٣].

﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الرعد: ١].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٩].

وعندما تحدث عن تعذيب الكفار كان التعبير مختلفا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٠-١١]. فلم يقل سبحانه إنّ المعذَّبين أكثرية. بل حصرهم بالمعاندين الساخرين، والمكذبين. وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [سورة الحج: ١٨]. بين سبحانه أنَّ المعذبين ليسوا الأكثرية، فاستعمل لفظ: (كثير) في كلا الفريقين من غير تمييز أحدهما على الآخر، ومثله في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩]. وهكذا باقي الآيات التي تتحدث عن عذاب الكفار.

وهذا يتفق مع رؤية الرسول ﷺ لأهل النار في المعراج؛ عندما رأى آدم وأولاده، كما في حديث المعراج عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: كان أبو ذرٍّ يُحدِّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: فلما عَلَوْنا السماء الدنيا، فإذا رجل

عن يمينه أسْوِدة، وعن يساره أسْوِدة، قال: فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضَحِكَ، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى، قال: فقال: مَرْحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح، قال: قلتُ: يا جبريل مَنْ هذا؟ قال: هذا آدم عليه السلام، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بَنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسوِدة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضَحِكَ، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى[1].

فالحديث يتكلم بما يشبه لفظ الآية، دون تكثير لعدد الكفار على عدد المؤمنين، فقال: أسودة (أشخاص) عن يمينه، وأسودة عن شماله، وهو يتصرف كالأب للجميع ولم يجد حرجا في أن يبكي على بنيه الكفار فكلهم أولاده. وسنعود للتفصيل حول هذه الرحمة وعلاقة القرابة في آخر هذا المحور، عند الحديث عن مصير الكفار بإذن الله.

وباختصار لا تجد في القرآن الكريم آية تنص على عذاب الأكثرية من غير المؤمنين أو المشركين، كما أنَّ كل الآيات التي تتحدث عن عذاب الكفار مخصوصة بالآيات التي علّلت العذاب بغير مجرد الكفر مما يفيد قيام الحجة عليهم وردِّهم لها؛ لأنَّ غير المؤمنين أصناف، والمعذَّب هو من قامت عليه الحجة وعاند وكذب، وهذا المعنى واضح في القرآن الكريم، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٣٩] فضم تكذيب الرسل إلى الكفر.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [النساء: ٤٢] فضم عصيان الرسل إلى الكفر.

(١) رواه البخاري: ١ / ٣٨٨ - ٣٩٢ في الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، وفي الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام. ومسلم رقم (١٦٣) في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [سورة النساء: ١٦٧] فضم الصد عن سبيل الله إلى الكفر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ [سورة النساء: ١٦٨]، والمقصود الظلم فيما يخص الرسل، وليس بعيدا عن الرسل.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [سورة الكهف: ١٠٦] فضموا إلى كفرهم: الاستهزاء بالرسل والآيات.

ومثل هذا كثير جدا، فكل الآيات العامة في تعذيب الكفار مخصوصة بهذه الآيات التي بينت بدقة سبب العذاب، وهو قيام الحجة، فلا شك أَنَّ الكفار هم أصحاب النار، ولكن هناك من غير المؤمنين من لم يعاندوا الرسل، ولم يكذّبوهم، وهؤلاء لا شك لا تشملهم آيات التعذيب، التي قيلت في كفار الدنيا؛ فقد أمر الله موسى وهارون أن يُبلغا فرعون هذه الآية: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [سورة طه: ٤٨]، وأكد سبحانه هذا المعنى في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [سورة الليل: ١٥-١٦]؛ لأَنَّه قبل بلوغ الحجة والتكذيب بها هو غير مكلف. وسبق قريبا ذكري لأقوال العلماء في أمرهم.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [سورة الملك: ٨-٩]. قال الرازي: دلت الآية على أَنَّ جميع أهل النار مكذب، لا يقال هذه الآية خاصة في الكفار، ألا ترى أَنَّه يقول قبله: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ [سورة الملك: ٦-٨]. وهذا يدل على أَنَّها مخصوصة في بعض الكفار،

وهم الذين قالوا: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [سورة الملك: ٩]، وليس هذا من قول جميع الكفار[١].

السبب الثالث: كثرة الأطفال بين أهل الفترة وهؤلاء ناجون

عندما نتحدث عن أي قوم ومنهم أهل الفترة، فلا شك أنَّ هذا القوم مكون من رجال ونساء وأطفال، ولا شك أنَّ حكم غير البالغين في الشريعة غير حكم البالغين، لذا كان لزاما علينا أن نفرق بين حكم أطفال أهل الفترة وكبارهم. وقد اهتمت الشريعة بهم، وذكرتهم في نصوص متعددة، بدا للبعض في ظاهرها تعارض، ما أدى إلى اختلاف العلماء في مصير أولاد المشركين على مذاهب، يمكن تلخيصها بأربعة:

١ - أطفال المشركين في النار تبعا لآبائهم

وهذا القول مَرْوي عن الأزارقة من الخوارج[٢]، واحتجوا:

- بحديث عائشة رضي الله عنها: أَنَّها ذكرتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أطفالَ المُشرِكينَ، فقال: إنْ شئْتِ أَسْمَعْتُكِ تَضَاغِيَهُمْ فِي النَّارِ[٣]. وهو حديث ضعيف.
- بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [سورة نوح: ٢٦]. ولا حجة لهم في هذه الآية؛ فهي تتحدث عن دمار قوم كامل من الكفار، كما أنَّها لا تتحدث عن تعذيبهم في الآخرة!! ففي الآخرة هناك تفاصيل حسب حال الناس، فمنهم من بلغته الحجة، ومنهم من لم تبلغه، ومنهم الرضيع، والطفل والبالغ المعاند، وأحكامهم ليست سواء.

---

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي: (٣/ ٥٧٧).

(٢) راجع: فتح الباري لابن حجر: (٣/ ٢٤٦). ومعلوم أن الأزارقة أشد فرق الخوارج تطرفا. وشرح صحيح البخاري لابن بطال: (٣/ ٣٧٣).

(٣) مسند أحمد: (٤٢/ ٤٨٤)، رقم: ٢٥٧٤٣. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

• بما روي عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: أنَّ الصَّعْب بن جَثَّامة قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ بالأبْواءِ - أو بِودَّانَ - وسُئِلَ عن أهْلِ الدار من المشركين **يُبَيَّتُونَ**، فيُصابُ مِن نسائهِمْ وذَراريهم، قال: **هم منهم**، وسمعتُه يقول: لا حِمَى إلا للهِ ولِرُسولِهِ. وفي رواية: هم من آبائِهِمْ[1].

وقد بين العلماء أنَّ الحديث كما يظهر من نصه خاص بأهل الحرب، وما قد يصاب به أطفال المشركين ليلا فيقتلون بغير قصد، فبين الرسول ﷺ أنَّ الأطفال من آبائهم في أحكام الدنيا، ما لم يختاروا شيئا آخر، والفرق بينهم وبين آبائهم أنَّهم قتلوا قبل سِنّ التكليف، ولم يجْر عليهم القلم، فلا يُحكم عليهم في الآخرة بعذاب جهنم، كما هو معلوم. قال ابن بطال: أما من قال: حُكمهم حكم آبائهم، فهو مردود بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٤] وإنّما حُكِم لهم بحكمهم في الدنيا لا في أحكام الآخرة، أي أنَّهم إن أصيبوا في التبييت (القتال ليلا) والغارة، لا قَود فيهم ولا دِيّة[2].

إذًا خالف الأزارقة في هذا علماء الأمة، وما عُلم من الشريعة؛ لأنَّ الأطفال خُلقوا حنفاء ولم يبلغوا التكليف فيحاسبوا، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ما مِن مولودٍ إلا يولد على الفِطْرةِ، فأبواهُ يُهَوِّدانِهِ، أو يُنَصِّرانِهِ، أو يُمجِّسانِهِ. ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [سورة الروم: ٣٠][3]. وقوله:

(١) أخرجه البخاري: ٦ / ١٠٢ في الجهاد، باب أهل الدار يبيتون فيصاب الولدان والذراري. ومسلم رقم (١٧٤٥) في الجهاد، باب جواز قتل النساء والصبيان في البيات من غير تعمد.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٣/ ٣٧٤). وانظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر: (١٨/ ١١٨). والحاوي للفتاوى للسيوطي: ٢/ ٢٢٨.

(٣) البخاري في الجنائز: ٣/ ١٧٦، باب إذا أسلم الصبي، وباب ما قيل في أولاد المشركين. وأخرجه مسلم رقم (٢٦٥٨) في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، والموطأ رقم (٥٢) الجنائز، =

(ما من مولود): عام في أولاد المؤمنين والكافرين.

وعن عياض بن حمار المجاشعي - رضي الله عنه - أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال ذات يوم في خُطبته فيما يرويه عن ربه: إنّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنَفَاءَ **كلَّهم**، وإنَّهم أَتَتْهُمُ الشياطين فاجتالتهمْ عن دِينهم، وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهُم أن يُشركوا بي ما لم أُنَزِّلْ به سُلطاناً[1].

٢- أطفال المشركين في مشيئة الله تعالى

وهو منقول عن الحمّادَين[2] وعبد الله بن المبارك وإسحاق بن راهويه، ونقله البيهقي في الاعتقاد عن الشافعي[3]. وحجتهم حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أطفال المشركين، عَمَّنْ يموت منهم وهو صغير؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين[4]. إلا أنَّ هذا الدليل لا يتعارض مع كونهم ناجين لعدة أسباب ذكرها ابن بطال وغيره فقالوا:

هذا يحتمل وجوهًا من التأويل: أحدها: أن يكون قوله: (الله أعلم بما كانوا عاملين)، قيل: أن يُعلِمه الله أَنَّهم في الجنة مع أولاد المسلمين؛ لأَنَّه لم يكن

= باب جامع الجنائز. وفي المقصود من الفطرة قال ابن حجر في فتح الباري (٣/ ٢٤٨-٢٤٩): المراد أن الكفر ليس من ذات المولود ومقتضى طبعه بل إنما حصل بسبب خارجي، فإن سَلم من ذلك السبب استمر على الحق... وقال ابن القيم: ليس المراد بقوله: «يولد على الفطرة» أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين؛ لأن الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ولكن المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة.

(١) رواه مسلم: رقم (٢٨٦٥) في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

(٢) المقصود بالحمّادَين: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة.

(٣) فتح الباري لابن حجر: (٣/ ٢٤٦). وانظر: شرح الزرقاني على الموطأ: (٢/ ١٣٠).

(٤) رواه البخاري: ١١ / ٤٣٢ في القدر، باب الله أعلم بما كانوا فاعلين، وفي الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم رقم (٢٦٥٩) في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

ينطق عن الهوى، وإنّما ينطق عن الوحي. ويحتمل قوله: (الله أعلم بما كانوا عاملين) أي على أي دين[1].

٣-يُمتحنون مع آبائهم يوم القيامة

قال ابن تيمية: كما أنَّا أيضا لا نشهد بالإيمان والجنة إلا لمن شهدت له الرسل، ومن لم تقم عليه الحجة في الدنيا بالرسالة كالأطفال والمجانين وأهل الفترات فهؤلاء فيهم أقوال، أظهرها ما جاءت به الآثار أنَّهم يمتحنون يوم القيامة، فيبعث الله إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب، وإن عصوه استحقوا العقاب[2].

واستدل أصحاب هذا القول بأحاديث لا تصح[3]. قال ابن بطال: وأما من قال: إنّهم يُمتحنون في الآخرة، فهو قول لا يصح؛ لأنَّ الآثار الواردة بذلك ضعيفة لا تقوم بها حجة[4].

ومما احتجوا به حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، وبالمعتوه، وبمن مات في الفترة، وبالشيخ الفاني، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب - تبارك وتعالى - لعنق من النار: ابرُز، فيقول لهم: إنّي كنت أبعث إلى عبادي رسلا من أنفسهم، وإنّي رسول نفسي إليكم، ادخلوا هذه. فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب أين ندخلها ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعا. قال: فيقول الله -تبارك وتعالى-:

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٣/ ٣٧٣). وانظر: شرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ١٣٠).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية: (٢/ ٢٩٨).

(٣) راجع: أنيس الساري (تخريج أحاديث فتح الباري) لنبيل البصارى: (١٠/ ٥٨٥). ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي: (٧/ ٢١٦). وجمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد لمحمد الردواني: (٣/ ٢٨٥). والإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء لنبيل جرار: (٢/ ٤٨٧).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٣/ ٣٧٤).

أنتم لرسلي أشد تكذيبا ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار[1].

وذكر ابن حجر هذه الروايات ولم أر له تصحيحا لشيء منها، وإنّما صحّح امتحان المجنون، ومن مات في الفترة، ولم يذكر الأولاد، فقال عقب الحديث السابق: وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون ومن مات في الفترة من طُرق صحيحة[2]. ثم أيّد كما سنرى قريبا قول من قال: إنّهم في الجنة.

٤- أطفال المشركين في الجنة

وهذا أقوى الأقوال، وعليه أقوى الأدلة وأصحها، وهو المنسجم مع: العقل، وأحكام الشريعة، ورحمة رب العالمين؛ فالمولود لا تكليف عليه حتى يبلغ، فإن مات قبل البلوغ مات بريئا، وخُتم له في الدنيا على البراءة، فلا يعقل أن يعذب بعد ذلك. قال النووي: ولا يتوجه على المولود التكليف ويلزمه قول الرسول: «حتى يبلغ»، وهذا متفق عليه[3]. وقد رجح هذا القول المحققون من العلماء، قال النووي: وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنَّهم من أهل الجنة[4].

واستدل أصحاب هذا القول بأحاديث في البخاري ومسلم أهمها:

- **عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، يَقولُ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عن ذَرَاري المُشْرِكِينَ، فقال: اللهُ أعلمُ بما كانوا عامِلِينَ[5].**

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي: (٧/ ٢١٦)، رقم: ١١٩٣٧. وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، والبزار بنحوه، وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٢) فتح الباري لابن حجر: (٣/ ٢٤٦).

(٣) شرح النووي على مسلم: (١٦/ ٢٠٨). وانظر: شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن للطيبي: (٢/ ٥٧٤). وشرح سنن أبي داود لابن رسلان (١٨/ ٢٧٤). وشرح السيوطي على مسلم (٦/ ٢٤). وتحفة الأحوذي: (٦/ ٢٨٨). ومرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري: (١/ ١٨٠).

(٤) شرح النووي على مسلم: (١٦/ ٢٠٨). و(١٥/ ١٤٥).

(٥) رواه البخاري: ١١ / ٤٣٢ في القدر، باب الله أعلم بما كانوا فاعلين، وفي الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين. ومسلم رقم (٢٦٥٩) في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

• عن أبِي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: كل مولود يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ، أو يُنَصِّرانِهِ، أو يمَجِّسانِهِ، كمثَلِ البَهيمةِ تُنْتجُ البهِيمَةَ هل تَرى فيها جَدْعاءَ[1].

• حديث الرؤيا - الحديث الطويل - عن سمُرة بن جندب: أنَّ الرسول ﷺ رأى إبراهيم عليه السلام، والصِّبْيَانُ حوله، فسأل الملكين عن الصبيان فأجيب: أولأدُ النَّاسِ[2]. وفي رواية عن سمرة أيضا جاء فيها: وأَمَّا الوِلْدَانُ الذين حوله فكل مَوْلُودٍ مات على الفِطْرَةِ. قال: فقال بعض المسلمين: يا رَسُولَ اللهِ، وأولأدُ المُشْرِكِينَ؟ فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: وأولاد المشرِكينَ[3].

قال ابن بطال: وهذه الحجة قاطعة، وهذه الرواية يفسرها ما جاء في حديث هذا الباب أنَّ الشيخ: إبراهيم، والصبيان حوله: أولاد الناس؛ لأنَّ هذا اللفظ يقتضي عمومه لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، وهذا القول أصح ما في هذا الباب من طريق الآثار وصحيح الاعتبار[4].

وقال ابن عبد البر: وهذا يقتضي ظاهره وعمومه جميع الناس والله الموفق[5].

وقال ابن الملقن: «والصبيان حوله: أولاد الناس»؛ لأنَّ هذا اللفظ يقتضي

---

(١) البخاري في الجنائز: ٣/ ١٧٦، باب إذا أسلم الصبي، و ١٩٧ - ١٩٩ فيه أيضاً، باب ما قيل في أولاد المشركين. وأخرجه مسلم رقم (٢٦٥٨) في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

(٢) صحيح البخاري: (٢/ ١٠٠)، رقم: ١٣٨٦كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين.

(٣) صحيح البخاري: ١٢ / ٣٨٥ و ٣٨٦ و ٣٨٧ و ٣٨٨ في التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، وفي صفة الصلاة، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، وفي الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين. ومسلم رقم (٢٢٧٥) في الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٣/ ٣٧٣).

(٥) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر: (١٨/ ١١٨). وانظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٨/ ٢١١).

عمومه لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، وقد أسلفنا أنَّ هذا القول هو المختار[1].

وقال محمد الخضري الشنقيطي: «فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال: وأولاد المشركين»: وظاهره أنَّه ألحقهم بأولاد المسلمين، ولا يعارض ذلك قوله: «هم من آبائهم»؛ لأنَّ ذلك حكم الدنيا[2].

ولو تأملنا الأحاديث الثلاثة السابقة لرأينا البخاري رتبها بتسلسل مقصود، يشير إلى اختياره في المسألة. وهذا التسلسل لفت انتباه ابن حجر فقال: وقد جزم البخاري في تفسير سورة الروم بما يدل على اختيار القول الصائر إلى أنَّهم في الجنة، وقد رتب أيضا أحاديث هذا الباب ترتيبا يشير إلى المذهب المختار، فإنّه صدّره بالحديث الدال على التوقف، ثم ثنّى بالحديث المرجّح لكونهم في الجنة، ثم ثَلّث بالحديث المصرح بذلك، فإنّ قوله في سياقه: «وأما الصبيان حوله فأولاد الناس» قد أخرجه في التعبير بلفظ: «وأما الولدان الذين حوله فكل مولود يولد على الفطرة. فقال بعض المسلمين: وأولاد المشركين؟ فقال: وأولاد المشركين». ويؤيده ما رواه أبو يعلى من حديث أنس مرفوعا: سألت ربي اللاهين[3] مِن ذرّية البشر ألا يعذبهم، فأعطانيهم. إسناده حسن[4].

ولا تعارض بين هذا القول، والقولين السابقين له لأنَّ:

- القول الثاني القائل: إنّهم في مشيئة الله سبحانه. لا يتعارض مع أنَّهم في الجنة؛ فهذا القول الرابع فيه أقوى الأحاديث الكاشفة لنا عن مشيئة الله التي

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن: (١٠/ ١٧٥).

(٢) كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري لمحمد الجكني: (١٢/ ١٦٩). وانظر: النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح لابن عاشور: - ٣٧. والبحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد الولوي: (٤١/ ٢٣٧).

(٣) اللاهين: يعني الأطفال.

(٤) فتح الباري لابن حجر: (٣/ ٢٤٦).

اختارها لهؤلاء الأطفال.

- أما القول الثالث: القائل بامتحانهم يوم القيامة، فيمكن ألا نعدّه كذلك مخالفا للقول الرابع؛ بمعنى أنَّ الله قد أوحى لرسوله بما ذكرت آنفا من الأحاديث الثابتة آخر حال الأطفال يوم القيامة، وأنَّهم سيفوزون بالامتحان في الآخرة، تقديرا لعدم تكليفهم، وعدم جنايتهم في الدنيا، ولرحمة الله التي عمّت الخلق، وغلبت غضبه.

وطالما أنَّ أطفال المشركين في الجنة، يهمّنا أن نعلم كم نسبتهم في قومهم المشركين؟ حتى نتخيل كم يخرج من بعث النار من المشركين.

وهذا أمر يصعب حصره، وخاصة أنَّنا نريد معرفة من مات منهم طفلا، وهؤلاء في حكم المنقرض بعد بعثة الرسول ﷺ ؛ لأنَّه بعث للناس عامة، فانتهت الفترات ببعثه؛ وصار بدلا منهم من في حكم أهل الفترات، نظرا لعدم وصول الدعوة إليه، أو وصلته مشوهة أو لأسباب أخرى، وأطفال من في حكم الفترات حكمهم نفس حكم أطفال أهل الفترات. ولمعرفة ولو تصَور بسيط عن أطفال المشركين يكفينا هنا تقدير نسبة تقريبية من خلال عصرنا تعين على الفهم.

فحسب تقارير منظمة الأمم المتحدة للطفولة (يونيسف) لعام: ٢٠٠٥م عدد الأطفال في العالم ٢,٢ مليار طفل[١]. وإذا كان عدد سكان الكوكب في نفس السنة ٦,٥٢ مليار نسمة. تكون نسبة الأطفال: ٣٣,٧٤٪، طبعا بالنسبة للشريعة هذه نسبة تقريبية؛ لأنَّ الطفل من منظور المنظمة أكبر من مجرد البلوغ المعتبر في الشريعة، فحسب اتفاقية حقوق الطفل المعتمدة من الجمعية العامة في الأمم المتحدة: الطفل: يعنى كل إنسان لم يتجاوز الثامنة عشرة، ما لم يبلغ

(١) https://www.unicef.org/arabic/publications/files/SOWC_O5_Arabic.pdf.

سن الرشد قبل ذلك بموجب القانون المنطبق عليه(١). ومن جهة أخرى لا بد من ملاحظة كثرة المواليد والوفيات من الأطفال في القديم، وقلة المواليد في الغرب والصين واليابان وبعض البلدان في زماننا.

ولو نظرنا إلى نسبة الأطفال في مصر مثلا، حسب الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء لعام: ٢٠١٧ لوجدناها نحو٤٠٪ من إجمالي سكان مصر من الأطفال (أقل من ١٨ سنة)، أي أكثر من ثلث سكان مصر(٢). ومثل هذه النسبة تقريبا في الهند(٣) وهي: ٤١٪. إذًا يمكن أن نعدّ الأطفال(٤) بشكل تقريبي نحو ثلث السكان، أي ثلث القوم المشركين كانوا أطفالا. ولو أخذنا على سبيل المثال نسبة الوفيات من الأطفال دون سن الخامسة في بنغلادش لسنة ١٩٩٠ لوجدناها ١٠٠ من كل ١٠٠٠ طفل وُلد حيا، يعني: ١ , ٠ هذا دون سن ٥ سنوات، ولو حسبنا دون سن ١٥ تقريبا وهو سن التكليف، لكانت النسبة أكبر بكثير، ولو أخذنا بعين الاعتبار من وُلد ميتا وكان حيا قبل الولادة،

(١) https://www.unicef.org/arabic/crc/files/crc_arabic.pdf

(٢) ttps://www.masrawy.com/news/news_economy/details/2018/5/30/1357035/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%AD%D8%B5%D8%A7%D8%A1-40-%D9%85%D9%86-%D8%B3%D9%83%D8%A7%D9%86-%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D8%A3%D8%B7%D9%81%D8%A7%D9%84-%D8%A3%D9%82%D9%84-%D9%85%D9%86-18-%D8%B9%D8%A7%D9%85%D8%A7

وانظر https://www.youm7.com/story/2018/11/19/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%AD%D8%B5%D8%A7%D8%A1-38-9-%D9%85%D9%84%D9%8A%D9%88%D9%86-%D8%B7%D9%81%D9%84-%D9%81%D9%89-%D9%85%D8%B5%D8%B1-%D8%A8%D9%86%D8%B3%D8%A8%D8%A9-40-1/4037349

(٣) https://ar.glosbe.com/ar/en/%D8%B9%D8%AF%D8%AF%20%D8%B3%D9%83%D8%A7%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85%20%D9%85%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B7%D9%81%D8%A7%D9%84

(٤) ويحسب معهم: المجانين، ومن مات قبيل الولادة، وأثناء الولادة، وبُعيد الولادة.

والأوبئة قديما والحروب والمجاعات وغيرها، لزادت النسبة أيضا. كل هؤلاء ماتوا دون سن التكليف، فهم في الجنة برحمة الله وفضله.

السبب الرابع: يوجد في أهل الفترة موحدون وهؤلاء بمشيئة الله في الجنة

الظاهر أنَّ الأرض لم تخل من موحدين لله سبحانه، ولكنهم لا يَعلمون تمام الدين وكماله، فهم محتفظون بما فهموه من التوحيد، باقون على ما وصلهم من أصل الدين، وحكمهم الظاهر من الشريعة أنَّهم ناجون يوم القيامة. فعن عياض بن حمار المجاشعي – رضي الله عنه – أنَّ رسولَ الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض، فمقَتَهم، عَرَبَهُم وعَجَمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب[1]. وكانت نظرة الله إلى الأرض في الفترة قبل مبعث الرسول ﷺ وقد سبق ذكر هذا.

وهذه البقية من أهل الكتاب هي التي بقيت على التوحيد بشكل إجمالي؛ لأنَّ التفاصيل لا تصمد مع طول الفترة. قال ابن الجوزي: وإنّما استثنى بقايا من أهل الكتاب؛ لأنَّهم لم يبَدلوا[2]. وقال القرطبي: وإنّما استثنى البقايا من أهل الكتاب؛ لأنَّهم كانوا متمسكين بالحق الذي جاءهم به نبيهم[3]. وقال النووي: والمراد ببقايا أهل الكتاب: الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل[4]. وطالما أنَّ الله لم يمْقت هذه الفرقة من أهل الكتاب؛ فهذا يعني أنَّها ناجية يوم القيامة، ومعها كل من كان في حكمها من الموحدين في أي زمن كانوا.

---

(١) رواه مسلم: رقم (٢٨٦٥) في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي: (٤/ ٢٤٣). وانظر: الميسر في شرح مصابيح السنة للتوربشتي: (٣/ ١١٢٧).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي: (٧/ ١٦٢).

(٤) شرح النووي على مسلم: (١٧/ ١٩٨).

ولا بد من ملاحظة أنَّ أهل الكتاب فيهم من حرّف الدين وتاجر به، وهؤلاء في النار بلا شك، لكنهم ليسوا الأكثر، فهذا عمل بعض علمائهم من الأحبار والرهبان. بينما الجمهور عادة يكون جاهلا، مقلدا، متبعا لا يعلم شيئا عن حقيقة الأمر، وقد ذكر سبحانه الفريقين فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٨-٧٩]. فانظر كيف سكت سبحانه عن الأميين، وأوعد علماءهم بجهنم!!

ولا بد أن يحصل هذا بسبب ضعف انتشار رسالة عيسى عليه السلام، وكثرة المحاربين والمحرفين لها، وفوق هذا الفترة الطويلة بين عيسى والرسول محمد عليهما الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [سورة الحديد: ١٦]. فطول الأمد هو طول الفترة بينهم وبين الرسول محمد ﷺ، قال الرازي: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن دينهم، رافضون لما في الكتابين، وكأنَّه إشارة إلى أنَّ عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق في آخر الأمر[1]. فالسخط والعذاب على من بدل الدين وتركه عمدا، وليس على الجاهل أو المتأول حسب وُسعه!

قال ابن تيمية: وأما من بعُد عهده بالمسيح، وبلغته بعض أخباره دون بعض، أو بموسى وبلغه أخباره دون بعض، فهؤلاء قامت عليهم الحجة بما بلغهم من

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: (٢٩/ ٤٦١). وانظر: تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٥/ ١٨٨). وتفسير القاسمي = محاسن التأويل: (٩/ ١٤٨). وفتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٠٧).

أخبارهم، دون ما لم يبلغهم من أخبارهم، وإذا اختلفوا في تأويل بعض التوراة والإنجيل **فمن قصد الحق واجتهد في طلبه لم يجب أن يُعَذَّبَ، وإن كانَ مخطئا** للحق جاهلًا به ضالّا عنه، كالمُجْتَهِدِ في طلب الحقِّ مِنْ أُمَّةِ محمد [1]. وهذا حال الجمهور في أي دين من الأديان.

لذلك العذاب على من تعمد محاربة الرسل، والتكذيب بالدين عن قصد وليس عن جهل! وفي هؤلاء المعاندين قال ابن تيمية: فأمَّا مَنْ تَعَمَّدَ تَحْرِيفَ الكتابِ لَفْظِهِ أو معْنَاهُ، **وعرف ما جاءَ به الرَّسُولُ فَعَانَدَهُ**، فهذا مُسْتَحِقٌّ للعقاب، وكذلك مَنْ فرَّطَ في طلب الحقِّ واتباعه، مُتَّبِعًا لِهَواهُ، مُشْتغلًا عن ذلك بدُنياهُ.

وعلى هذا فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرفوا بعض الكتاب، وفيهم آخرون لم يعلموا ذلك، فهم مجتهدون في اتباع ما جاء به الرسول، **لم يجب أن يجعل هؤلاء من المستوجبين للوعيد**، وإذا جاز أن يكون في أهل الكتاب من لم يعرف جميع ما جاء به المسيح، بل خفي عليه بعض ما جاء به، أو بعض معانيه فاجتهد، لم يعاقب على ما لم يبلغه، وقد تحمل أخبار اليهود الذين كانوا مع تُبّع، والذين كانوا ينتظرون الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - من أهل المدينة كابن التيهان وغيره على هذا، وأنَّهم لم يكونوا مكذبين للمسيح تكذيب غيرهم من اليهود[2]. وقال ابن حزم: أما من لم يبلغه ذكره ﷺ، فإن كان موحدا فهو مؤمن على الفطرة الأولى، صحيح الإيمان لا عذاب عليه.[3]

وقد ثبت عن الرسول ﷺ نجاة هؤلاء الموحدين، أمثال زيد بن عمرو بن نفيل، فقد قال ابن حجر عنه: هو ابن عم عمر بن الخطاب بن نفيل، وهو والد

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية: (٢/ ٣٠١).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية: (٢/ ٢٩٤).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: (٥/ ١١٧).

سعيد بن زيد أحد العشرة وكان ممن طلب التوحيد وخلع الأوثان وجانب الشرك لكنه مات قبل المبعث، فروى محمد بن سعد والفاكهي، من حديث عامر بن ربيعة حليف بني عدي بن كعب قال: قال لي زيد بن عمرو: إنّي خالفت قومي واتبعت ملة إبراهيم وإسماعيل وما كانا يعبدان، وكانا يصليان إلى هذه القبلة، وأنا أنتظر نبيا من بني إسماعيل يُبعث ولا أراني أدركه، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنَّه نبي، وإن طالت بك حياة فأقره مني السلام. قال عامر: فلما أسلمت أعلمت النبي ﷺ بخبره قال: فرد عليه السلام، وترحم عليه، قال: ولقد رأيته في الجنة يسحب ذيولا. وروى البزار والطبراني من حديث سعيد بن زيد قال: خرج زيد بن عمرو و ورقة بن نوفل يطلبان الدين حتى أتيا الشام، فتنصر ورقة وامتنع زيد، فأتى الموصل فلقي راهبا فعرض عليه النصرانية فامتنع، وذكر الحديث نحو حديث بن عمر الآتي في ترجمته، وفيه: قال سعيد بن زيد: فسألت أنا وعمر رسول الله ﷺ عن زيد فقال: غفر الله له، ورحمه، فإنّه مات على دين إبراهيم(١).

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - كان يُحدّث عن رسولِ الله ﷺ: أنَّه لقي زيدَ بن عمرو بن نُفَيْل بأسفل بَلْدَحَ، وذلك قبل أن ينزل على النبيِّ ﷺ الوحيُ، فقَدَّم إليه النبيُّ ﷺ سُفرة فيها لحم، فأبى أن يأكلَ منها، ثم قال زيد: إنّي لا آكلُ مما تذبحون على أنْصابكم، ولا آكلُ إلا ما ذُكِرَ اسمُ الله عليه. زاد في رواية: وإن زيدَ بنَ عمرو بن نفيل كان يعيبُ على قريش ذبائِحهم، ويقول: الشَّاةُ خلقها الله، وأنزل لها من السَّماءِ ماء، وأنْبَتَ لها من الأرْضِ، ثم أنتم تذبحونها على غير اسْمِ الله؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له. قال موسى: وحدثني

(١) فتح الباري لابن حجر: (٧/ ١٤٣). وانظر: شرح البخاري للسفيري = المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية: (٢/ ٤٤).

سالم – ولا أعلم إلا يُحدّث به عن ابن عمر – أنَّ زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدِّين ويَبْتَغيه، فلقيَ عَالماً من اليَهودِ، فسأله عن دِينِهم؟ فقال: إنّي لعلِّي أن أدِينَ دِينكم، فأخبرني، قال: لا تكون على دِيننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفِرُّ إلا من غضب الله، ولا أحْمِلُ من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيعُه؟ فهل تَدُلُّني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حَنيفاً، قال زيد: وما الحَنيف؟ قال: دِين إبراهيم، لم يكن يَهُوديّاً ولا نصرانيّاً، ولا يعبد إلا الله، فخرج زيد، فلقي عالماً من النَّصارى، فذكر مثله، فقال: لن تكون على دِيننا حتى تأخذَ بنصيبكَ من لعنة الله، قال: ما أفِرُّ إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنا أستطيع؟ فهل تدلّني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حَنيفاً، قال: وما الحَنيفُ؟ قال: دِينُ إبراهيم، لم يكن يهوديّاً ولا نصرانيّاً، ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما بَرَزَ، رفع يديه، وقال: اللهم اشهدْ أنّي على دين إبراهيم(١).

ولا يُستبعد أنَّه أصاب توحيد بعض أهل الفترات بعض التشوّه بسبب طول الفترة، وضياع الدين، فقد قصّ علينا الرسول ﷺ قصة نجاة أحد هؤلاء الموحدين الذين جهلوا الكثير عن الله سبحانه.

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنَّ النبيَّ ﷺ قال: كان رجل يُسْرِفُ على نفسه، فلما حضرَهُ الموتُ، قال لبنيه: إذا أنا مِتُّ فاحرقُوني، ثم اطحنوني، ثم ذرُّوني في الرِّيح، فوالله، لئن قَدَرَ عليَّ ربِّي لَيُعذِّبَنِّي عذاباً ما عذَّبَه أحداً. فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض، فقال: اجمَعي ما فِيك منه، ففعلتْ، فإذا هو قائم، فقال: ما حَمَلك على ما صَنَعْتَ؟ قال: خشْيَتُك يا ربِّ، أو قال: مخافتك،

(١) رواه البخاري: ٧ / ١٠٧ و ١١٠ في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل، وفي الذبائح والصيد، باب ما ذبح على النصب والأصنام.

فغُفِرَ له بذلِك[1]. فهذا الرجل كان ممن مات في الفترة[2] كما هو ظاهر من باقي روايات الحديث، وكان يؤمن بالله، ولكنه لم يكن يعلم كمال قدرة الله سبحانه، فظن أنَّه لو أحرق نفسه، ونُثرت رفاته، سيفلت من العقاب!! ولا شك أنَّ هذا كُفْر، ولكنه ليس شركا!! ومن كان في الفترات يُتوقع منه بعض الخلل في صفات الله سبحانه، بل يتوقع من بعض المؤمنين من غيرهم بعض الخلل في صفات الله سبحانه.

والظاهر أنَّ الله قد قبل منه توحيده على ما هو عليه، وعذره بجهله، وغفر ذنوبه، وكان من الناجين السعداء برحمة الله. ومثل هذا كثير في أتباع الديانات بعد أن يصيبها التحريف، أو بسبب وصول بعض الحجة الرسالية دون بعض، فتقوم الحجة بما وصل، ويعذر الإنسان عما لم يصله من الدين، أو لم يتضح له مع بذل وُسعه.

السبب الخامس: توقّع نجاة أصحاب الأخلاق من أهل الفترة

هذه المسألة من الأمور التي وقع فيها ظلم على غير المؤمنين، فعادة يصف المؤمنون غيرهم بأنَّهم كفار، ولهم عذاب النار وانتهى.. والحقيقة كما أنَّ المؤمنين ليسوا سواء، فكذلك غير المؤمنين ليسوا سواء، وكما أنَّ الجنة درجات حسب درجات أهلها، فالنار دركات حسب أعمال أهلها. وقد أعطى الرسول ﷺ لأصحاب الأخلاق أعلى المنازل، فعن عبد الله بن عمرو بن

---

(١) رواه البخاري: ١٣ / ٣٩٢ في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وفي الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ومسلم رقم (٢٧٥٦) في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، والموطأ ١ / ٢٤٠ في الجنائز، باب جامع الجنائز، والنسائي ٤ / ١١٣ في الجنائز، باب أرواح المؤمنين.

(٢) راجع: أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) للخطابي: (٣/ ١٥٧٣). وإكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض: (٨/ ٢٥٧).

العاص – رضي الله عنهما – قال: لم يَكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ فاحِشاً، ولا مُتَفَحِّشاً، وكان يقول: إنَّ مِنْ خِيَارِكم: أحسنكم أخلاقاً[١].

وقد بين لنا القرآن الكريم أنَّ من غير المؤمنين مَن هو عَدْل، ومنهم دون ذلك، فالمنافقون كفار ليسوا عدولا؛ لأنَّهم خونة كذابون مراؤون، قال تعالى فيهم: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٨٤]. قال الرازي: الكافر قد يكون عدلا في دينه. وقد يكون فاسقا في دينه خبيثا ممقوتا عند قومه، والكذب والنفاق والخداع والمكر والكيد أمر مستقبح في جميع الأديان، فالمنافقون لما كانوا موصوفين بهذه الصفات وصفهم الله تعالى بالفسق بعد أن وصفهم بالكفر[٢]. وقال الخازن: إنَّ الكافر قد يكون عدلا في نفسه بأن يؤدّي الأمانة، ولا يُضمر لأحد سوءا، وقد يكون خبيثا في نفسه، كثير الكذب والمكر والخداع، وإضمار السوء للغير، وهذا أمر مستقبح عند كل أحد[٣]. وقال القرافي: إنّ رحمة صاحب الشرع تأبى عقوبة من لم يقصد الفساد، ولا يسعى فيه بإرادته وقدرته، بل قلبه مشتمل على العفة والطاعة والإنابة، فمثل هذا لا يعاقبه صاحب الشرع رحمة ولطفا[٤].

فإذا جمع الإنسان بين العذر الشرعي بعدم وصول حجة الرسالة إليه، وبين

---

(١) البخاري: ١٠ / ٣٧٨ في الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وباب حسن الخلق والسخاء، وفي الأنبياء، باب صفة النبي ﷺ. ومسلم رقم (٢٣٢١) في الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ.

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: (١٦/ ١١٦). وانظر: اللباب في علوم الكتاب لسراج الدين الدمشقي: (١٠/ ١٦٤). والسراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للشربيني: (١/ ٦٣٩). وفتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي: (٥/ ٣٦٢). وتفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للهرري: (١١/ ٣٨٩).

(٣) تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل: (٢/ ٣٩٣).

(٤) الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق: (١/ ١٦٢).

تمتعه بحظ من الإنسانية وحسن الخُلق، توقّعنا له الفوز في الامتحان يوم القيامة؛ لأنَّ الأخلاق التي هي جوهر دعوة الرسل قد تحلى بها هذا الرجل، فعن أبي هريرة، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: إنّما بُعِثتُ لأتمم صالحَ الأخلاق[١].

وبقي على غير المؤمن الخلوق هذا الخُلق الذي بينه وبين خالقه، وهو معذور في عدم أداء هذا؛ لأنَّ حجّة الرسالة لم تصله، بسبب عدم وجود الرسول، أو عدم وصول حجته بالشكل المعتمد حسب الأصول التي ذكرتها سابقا.

(١) مسند أحمد: (١٤/ ٥١٢)، رقم ٨٩٥٢. وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح. وهو كذلك في الموطأ: ٢/ ٩٠٤.

شبهة وجواب على الكلام السابق انتفاع الكافر بأعماله الحسنة في الآخرة

ويُعكّر على ما ذكرت سابقا قول بعض العلماء: إنّ الكافر لا يستفيد من أعماله الحسنة!! وكان هذا نتيجة فهمهم لبعض الآيات والأحاديث:

الآيات: قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٣] وما في معناها من آيات، التي يظهر منها أنَّ الكافر لا يستفيد من أعماله الحسنة التي عملها في الدنيا.

الأحاديث: عن أنس بن مالك -رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الله لا يظلم مؤمناً حسنة: يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة. وَأَمَّا الكافر: فيُطْعَمُ بحسناتِ ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرةِ، لم تكُن له حسنةٌ يُجزى بها[١].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قُلتُ: يا رسول الله: إنَّ ابنَ جُدْعانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرحمَ، ويُطعم المسكينَ، فهل ذلك نافِعُهُ؟ قال: لا ينفعُهُ، إنّه لم يقل يومًا: رب اغفِرْ لي خطيئتي يوم الدين[٢].

ويحسن هنا أن أذكر أنَّ العلماء اختلفوا في انتفاع الكافر بعمله الحسن على أقوال أهمها:

١- ينتفع الكافر بعمله الصالح في الآخرة بتخفيف العذاب

قال ابن الجوزي: وقد يدْفع عن الكافر بعض العذاب، كما دفع عن أبي طالب فكان أخف أهل النَّار عذابا[٣]. وحديث أبي طالب المذكور هو: عن

(١) رواه مسلم: رقم (٢٨٠٨) في صفات المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة.

(٢) رواه مسلم: رقم (٢١٤) في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل.

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي: (٤/ ٦٥).

أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنَّه سمع رسولَ اللهﷺ وذُكر عنده عمُّه أبو طالب - فقال: لعله تنفعه شَفاعتي يوم القيامة، يُجعل في ضَحْضَاح مِن نار، يَبْلُغُ كعبيه، يغلي منه أمُّ دِمَاغه(١). وقال الصنعاني: نقل القرطبي عن بعض العلماء أنَّه قال: الكافر مطلقا لا ثواب له، ولا توضع حسنته في الميزان لقوله تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [سورة الكهف: ١٠٥]، ولحديث أبي هريرة في الصحيح: «الكافر لا يزن عند الله جناح بعوضة» (وأجيب) بأنَّ هذا مجاز عن حقارة قدره، ولا يلزم منه عدم الوزن. والصحيح أنَّ الكافر توزن أعماله إلا أنَّه على وجهين:

أحدهما: أنَّ كفره يوضع في كفة، ولا يجد حسنة يضعها في الأخرى لبطلان الحسنات مع الكفر، فتطيش التي لا شيء فيها. قال القرطبي: وهذا لظاهر قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٣] فإنّه وصف الميزان بالخفة.

والثاني: أنَّه قد يقع منه العتق والبر والصلة وسائر أنواع الخير المالية، مما لو فعلها المسلم لكانت له حسنات، فمن كانت له جُمعت ووضعت في الميزان، غير أنَّ الكفر إذا قابلها رجح بها. ويحتمل أنَّ هذه الأعمال توازن ما يقع منه من الأعمال السيئة، كظلم غيره وأخذ ماله وقطع الطريق، فإن ساوتها عُذب بالكفر، وإن زادت عذب بما كان زائدا على الكفر منه، وإن زادت أعمال الخير معه طاح عقاب سائر المعاصي، وبقي عقاب الكفر، كما جاء في حديث أبي طالب أنَّه في ضحضاح من نار(٢).

---

(١) رواه البخاري: ٧ / ١٤٩ في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قصة أبي طالب، وفي الرقاق، باب صفة الجنة والنار. ومسلم: رقم (٢١٠) في الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه.

(٢) سبل السلام للصنعاني: (٢/ ٧١٨).

٢- لا ينتفع الكافر بعمله الصالح في الآخرة أبدا

قال النووي: أجمع العلماء على أنَّ الكافر الذي مات على كفره لا ثواب له في الآخرة، ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا متقربا إلى الله تعالى. وصرّح في هذا الحديث بأن يُطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات؛ أي بما فعله متقربا به إلى الله تعالى مما لا يفتقر صحته إلى النية، كصلة الرحم والصدقة والعتق والضيافة وتسهيل الخيرات ونحوها[١].

وقال القرطبي صاحب التفسير: أفعال الكافر إذا كانت بِرا كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة الملهوف لا يثاب عليها، ولا ينتفع بها في الآخرة، بيد أنَّه يُطعم بها في الدنيا[٢]. وأدلتهم ما ذكرته سابقا في بداية الشبهة من الآيات والأحاديث.

وأجابوا عن أدلة القول الأول، وهو حديث أبي طالب بأنَّه من بناء الخاص على العام، فلا يُعمم على كل كافر[٣].

٣- يُخفف بأعمال الكافر الصالحة من عذابه على أعماله السيئة

فأصحاب هذا القول يقولون بأنَّ عذاب الكافر في جهنم ينقسم إلى قسمين:

الأول: عذاب الكافر على كفره، وهذا ثابت لا يتغير ولا يتعدل، وهو المقصود بالآيات والأحاديث التي جاء بها المانعون في القول الثاني.

---

(١) شرح النووي على مسلم: (١٧/ ١٥٠). وانظر: المعلم بفوائد مسلم (٣/ ٣٥٠). وإكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض: (٨/ ٣٤١). ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري: (٨/ ٣٢٢٨). والتيسير بشرح الجامع الصغير لابن تاج العارفين: (١/ ٢٦٤).

(٢) تفسير القرطبي: (٨/ ١٦١).

(٣) راجع: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد الولوي: (٥/ ٤٦٤). والكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم لمحمد الهرري: (٥/ ١٢٦). والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي: (١/ ٤٥٨).

والثاني: عذاب الكافر على أعماله السيئة، وهذا الذي يخفف عن الكافر بسبب أعماله الصالحة في الدنيا، ودليله حديث أبي طالب، والأحاديث التي ظاهرها استفادة الكافر من أعماله الصالحة في الدنيا. قال ابن حجر: واستشكل قوله ﷺ: «تنفعه شفاعتي» بقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [سورة المدثر: ٤٨] وأجيب بأنَّه خُصّ، ولذلك عدّوه في خصائص النبيﷺ.

وقيل: معنى المنفعة في الآية يخالف معنى المنفعة في الحديث، **والمراد بها في الآية: الإخراج من النار. وفي الحديث: المنفعة بالتخفيف**. وبهذا الجواب جزم القرطبي، وقال البيهقي في البعث: ووجهه عندي أنَّ الشفاعة في الكفار إنّما امتنعت لوجود الخبر الصادق في أنّه لا يشفع فيهم أحد، وهو عام في حق كل كافر، فيجوز أن يخص منه من ثبت الخبر بتخصيصه. قال: وحمَله بعض أهل النظر على أنَّ جزاء الكافر من العذاب يقع على كفره، وعلى معاصيه، فيجوز أنَّ الله يضع عن بعض الكفار بعض جزاء معاصيه، تطييبا لقلب الشافع لا ثوابا للكافر؛ لأنَّ حسناته صارت بموته على الكفر هباء. قلت: فيحتمل أن يكون التخفيف فيما يتعلق بعذاب معاصيه بخلاف عذاب الكفر(١). وأكد القرطبي المُحدّث أنَّ التخفيف في غير عقوبة الكفر بقوله: و(قوله في الكافر: لم تكن له حسنةٌ يجزى بها) أي: لا يتخلّص من العذاب بسببها، وأمّا التخفيف عنه بسببها، فقد يكون على ما قرّرناه، والله تعالى أعلم(٢).

وقال أبو عبد الله الحميدي: وأهل هذا القسم مختلفون في العذاب اختلافا كثيرا بحسب شدة المعاصي وكثرتها، فيكون عذاب الراهب منهم دون عذاب

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٤٣١). وانظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم ابن الحجاج لمحمد الولوي: (٥/ ٤٦٥).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي: (١/ ٤٦٠).

القاتل للنفوس الغاصب للأموال؛ لأنَّ الراهب إنّما يُعذب على كفره فقط، لا على إذايته للناس؛ لأنَّه بمعزل عن ذلك. والقاتل يُعذب على قتله وغصبه زائدا على عذاب كفره، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [سورة النحل: ٨٨]، فأخبر أنَّه زاد هؤلاء الكفار عذابا بإفسادهم وصدهم عن سبيل الله على العذاب الأصلي، الذي يكون للكافر بمجرد الكفر، ولذلك ساق العذاب الثاني بالألف واللام التي للعهد.

والمجازاة هكذا لابد منها، فإنّ التخليد في النار إذا كان شاملا لجميع الكفار على تباين أعمالهم فلا يبقى للفرق بين طبقاتهم إلا تضعيف العذاب، أو شدته لمن هو أشد ذنبا وأعظم جرما، وتخفيفه على من هو في الجرائم دون ذلك[1].

الترجيح:

لا يظهر فرق جوهري بين القول الأول والثالث؛ فالقولان متفقان على التخفيف من العذاب عن الكافر بسبب أعماله الصالحة، والخلاف: هل يُخفف من عذاب كفره أم من عذاب أعماله السيئة؟ ويبدو لي أنَّ هذا الخلاف شكلي؛ لأنَّه في النهاية تم تخفيف العذاب عن الكافر بسبب عمله الصالح بشكل ما. وكلا القولين لا يقول بخروج الكافر من النار بسبب أعماله الصالحة، وإنّما مجرد التخفيف من العذاب فقط.

أما القول الثاني الذي يقول بعدم انتفاع الكافر بتاتا في الآخرة من عمله الصالح، فهو متعارض مع العقل والشرع، **أما العقل**: فلأنَّ لازم هذا القول أن يكون أهل الخير من الكفار بمستوى واحد من العذاب مع أهل الشر من

---

(١) تحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمآل: ١/ ٣٣٢.

الكفار!! **وأما الشرع**: فهناك نصوص تفيد بانتفاع بعض الكفار مثل أبي طالب. ثم إنّ أصحاب هذا القول مضطربون في قولهم، إذ إنّهم يصرحون أيضا بما عليه القول الثالث من الانتفاع، ولو عبروا عنه بطرق مختلفة مثل: تخفيف عذاب، اختلاف دركاتهم في جهنم بحيث يكون بعضهم أكثر عذابا من بعض. وكل هذه العبارات مردها واحد.

ولتحرير مصداقية أصحاب القول الثاني أريد أن أقارن قول النووي الذي اقتبسناه في القول الثاني مع هذا القول له:

معنى هذا الحديث أنَّ ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة لكونه كافرا، وهو معنى قوله ﷺ: «لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»؛ أي لم يكن مصدقا بالبعث، ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل. قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: وقد انعقد الإجماع على أنَّ الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب، **لكن بعضهم أشد عذابا من بعض بحسب جرائمهم** هذا آخر كلام القاضي، وذكر الإمام الحافظ الفقيه أبو بكر البيهقي في كتابه: (البعث والنشور) نحو هذا عن بعض أهل العلم والنظر. قال البيهقي: وقد يجوز أن يكون حديث بن جدعان وما ورد من الآيات والأخبار في بطلان خيرات الكافر إذا مات على الكفر، ورَد في أنَّه لا يكون لها موقع التخلص من النار وإدخال الجنة، **ولكن يخفف عنه من عذابه الذي يستوجبه على جنايات ارتكبها سوى الكفر** بما فعل من الخيرات هذا كلام البيهقي[1].

ويبدو لي أنَّ النووي هنا لا يمانع عما انتهى إليه القاضي عياض والبيهقي في جواز التخفيف.

---

(١) شرح النووي على مسلم: (٣/ ٨٧).

ويبدو أنَّ القول الثالث هو مآل الجميع في القولين قبله، إذ يجمع بين كل النصوص التي ظاهرها عدم الانتفاع، والتي أثبتت الانتفاع. وهذا يصح عقلا، وواقعا، وشرعا.

أما العقل: فقد ذكرت بأنَّ الكفار إن تساووا بالكفر فهم ليسوا سواء في أعمالهم. والله أعدل العادلين، ولا يجيز العقل أن يساوي الإله بين الصالحين وغير الصالحين وإن كانوا جميعا غير مؤمنين. حتى الديانة الهندوسية لم تتقبل هذه المساواة ففرقت بين الناس في جهنم حسب أعمالهم، يقول البيروني عن عقائد الهندوس: وهم من جهة الأخبار يكثرون عدد جهنّمات وصفاتها وأساميها، ويفردون لكل ذنب منها محلا، وقيل في (بشن پران): إنّها ثمانية وثمانون ألفا. ونحكي منه ما ذكر فيه، قال: إنّ المدّعي بالكذب والشاهد بالزور والمعاون لهما، والمستهزئ بالناس، يصيرون إلى (رورو) من الجهنّمات، وسافك الدم بغير حقّ، وغاصب حقوق الناس والمغير عليهم، وقاتل البقر يصيرون إلى (روده)...[1].

وأما الواقع: فثابت أنَّ الكفار في النار في دركات مختلفة وليست متساوية، وأنَّه لكل ضعف كما قال تعالى، وأنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ولا شك أنَّ بعضهم أخف عذابا من بعض، أو قُل: بعضهم أشد عذابا من بعض، بسبب أعمالهم. والحاصل: على الواقع قد انتفع الكافر بعمله وانتهى!! وقد ذكرت هذا المعنى سابقا.

وأما الشرع: فما أكثر النصوص من الكتاب والسنة التي تقول إنّ حساب الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. قال تعالى: في سورة الزلزلة مخاطبا

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة لأبي ريحان الخوارزمي: ٤٥. ولا يلاحظ حسب تعاليم النصارى اليوم أن جهنم دركات.

جميع الناس في المحشر كما هو ظاهر الآيات: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: ٦-٨]. فقال سبحانه: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ بكل أديانهم، حيث هم في المحشر قبل بدء الفرز، فخاطبهم: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، فالخطاب للبشرية جمعاء وليس للمؤمنين!! وتورط بعض العلماء بتأويل هذه الآيات عن ظاهرها مع أنَّها أوضح من الشمس وقت الظهيرة، وما ذلك إلا لعجزهم عن الجمع بين النصوص، فانتصروا لبعضها بليّ أعناقها، فخرجوا عن أصول التفسير وقواعده التي تقضي إمرار النص على ظاهره ما أمكن، فالظاهر هو مراد المتكلم، ما لم يثبت غير ذلك.

وكون الخير لا يسمى خيرا مالم يكن لله فغير معقول، فالخير هو الخير بغض النظر عن النوايا، فمن ربى يتيما خير ممن ذبح يتيما بعد أن اغتصبه ونهب ماله!! ومن نصر الضعفاء وضحى من أجلهم، خير ممن تسلط عليهم فاستحيا نساءهم وذبح أولادهم!! فالفعل الأول خير، والفعل الثاني شر، وفاعل الأول محسن، وفاعل الثاني مجرم، وجزاء الأول ليس كجزاء الثاني عند كل العقول مهما صغرت!!

إلا أنَّ المنطق أيضا ألا تطلب أجرك من غير مَن عملته له!! النية تصلح للأجر، فإن عملت لفلان كان على فلان أن يأجرك، فإن عملت لغير الله، فلماذا يأجرك الله؟؟ **هنا سرّ المسألة، فالله لا يأجرك على خير لم تفعله له؛ ليس لأنَّه ليس خيرا؛ بل لأنَّه عُمل لغير الله!!** فالخير هو الخير حيثما حل وارتحل، سواء في الدنيا أو الآخرة. لكن ضل عمل الكفار؛ لأنَّه لم يجد من عُمل لأجله ليأجره عليه، قال تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [سورة محمد: ١]. تاهت أعمالٌ خيرة عظيمة، تبحث عمّن عُملت له ليأجرها فلم تجده، واعتذر سبحانه عن أجرهم عليها؛

ببساطة لأنَّها لم تُعمل له، فالله سبحانه ليس معنيا بتعويض المشركين عن خسائرهم في صفقات لم تُبرم معه، وليس طرفا فيها، هذا منطق عاقل سليم. فهذا قد انتهى. والذي بدأ هو ما يخص الله سبحانه، فالكل عباده، وهو يفرزهم الآن حسب أحوالهم. فهل يتساوى عنده كافر محسن ولعله كان أحسن سلوكا من كثير من المؤمنين الفجار، مع كافر خبيث القلب والسلوك، وقد فعل في البشرية ما فعل؟!! لو جمعنا عقول البشرية وسألناها هذا السؤال هل تختلف في الإجابة عنه؟ هل من الحكمة أن نتناقض مع الشريعة بمثل هذه البدهيات، ونتمترس خلف نصوص شوهناها بفهمنا!!

نعم سيُدخل الله الكفار نار جهنم بسبب شركهم وكفرهم، وأعمالهم الصالحة لا تنفعهم في عدم العذاب على الكفر؛ لأنَّ الكفر إساءة لله سبحانه الذي خلقهم (والحديث هنا عمن أقيمت عليه الحجة)، ولا بد من الجزاء عليها منه سبحانه، فهذا حقه سبحانه عليهم طالما وصلتهم دعوة الرسل بشكل كاف لإثباتها عليهم.

وهذا لا علاقة له باختراع التناقض بين الآيات: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٣] وبين: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: ٧-٨] ثم البدء بلي أعناق النصوص وصرفها عن ظاهرها، فهذا عمل سلبي، والقول الثالث كان منطقيا في حل هذا الإشكال، فلا بد من التأويل لكل فرع يصطدم بقاعدة كلية أثبت من الجبال، ملخصة في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ قاعدة كلية مطلقة. ولا تعارض بين هذه الكلية وبين عدم أجر الله لكافر على عمله الذي عمله لغير الله؛ لأنَّ هذا ليس من باب الأجر بمعنى الثواب!! وإنّما من باب العدل، ووضع كل

إنسان فيما يليق به، فالإسلام ميز بين غير المؤمنين، وقسمهم في الدنيا إلى أهل كتاب وغير أهل كتاب، وعامل أهل الكتاب معاملة أحسن من غيرهم، حتى أنَّه جعلهم أخوالا لأولاد المسلمين. مع أنَّهم ليسوا مسلمين كغيرهم!! وهذا من العدل، وكذلك من العدل عدم المساواة بين الكفار في الآخرة.

والذي يبدو لي أنَّ فكرة العذاب الواحد لكل الكفار في جهنم هي مما أصاب الأديان من تحريف، فحسب اطلاعي لم أجد في كتب الديانات السماوية من فاضل في العذاب في الآخرة إلا الإسلام، وهو الدين الذي نحمد الله على حفظه لنا.

فلا بد من التركيز على أنَّ عذاب الأعمال غير عذاب الكفر، فالكافر لا تنفعه أعماله فيما يخص كفره، بمعنى إن كانت سيئة تزيد من عذابه فوق عذاب كفره، وإن كانت حسنة تنقص من عذابه ويبقى عذابه على الكفر كما هو، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [سورة النحل: ٨٨]، فنص سبحانه على وجود عذابين: واحد على الكفر، والآخر على الإفساد في الأرض وسوء الأخلاق. قال الرازي: المعنى أنَّهم زادوا على كفرهم صدّ غيرهم عن الإيمان، فهم في الحقيقة ازدادوا كفرا على كفر، فلا جرم يزيدهم الله تعالى عذابا على عذاب، وأيضا أتباعهم إنّما اقتدوا بهم في الكفر، فوجب أن يحصل لهم مثل عقاب أتباعهم لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [سورة العنكبوت: ١٣]. ولقوله ﷺ: من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة[١]. وهذا متفق مع قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧].

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: (٢٠/ ٢٥٧). وانظر: تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٣/ ٢٣٧).

ثم إنّ الله يقتص يوم القيامة للحيوانات من بعضها البعض[1]؛ ليس لأنَّ بعضها عبد لله والآخر عدو له!! بل لمجرد العدل، وإن كانوا غير مكلفين أساسا، فحتى الحيوانات سترى أعمالها ولو مثقال ذرة!! هذا هو العدل الإلهي المطلق، وهذا هو الإله الذي يُحَبّ فيُعبد، ما أجمل الإسلام عندما نحسن فهمه. وإلى الله المشتكى.

تفسير الشريعة ينبغي أن يكون منطقيا، فهذه الشريعة لا تتعارض مع أولي الألباب والنهى.. ولذلك قال ابن تيمية: «العقل الصحيح لا يتعارض مع الدين الصحيح». واختراع المتناقضات بين الشريعة والعقل والواقع بسبب فهم بعض النصوص بشكل غير لائق بهذه الشريعة، لا يخدم الشريعة ولا يحافظ عليها، بل يُبطلها!! قال الغزالي: اعلم أنَّ العقل لن يهتدي إلا بالشرع والشرع لم يَتبيّن إلا بالعقل، فالعقل كالأُسّ، والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس[2].

فمناط التكليف العقل، ومن جهة أخرى طالما ثبت على الواقع أنَّ النار منازل ليست سواء، فالتناقض مع هذا الواقع بحجة فهمه لبعض النصوص، لا يُبطل الواقع؛ لأنَّه واقع!! مشاهد محسوس ملموس، وإنّما يُبطل النصوص!! واختراع مثل هذه المتناقضات بسوء فهم في أيامنا سبّب رِدّة تنتشر وتتسع، فإذا ما ثبت الواقع فعلى العلماء ليس مناقضته!! بل تفسير النصوص لتتناسب هي معه، أما الواقع فلن يتحرك من مكانه؛ لأنَّه واقع!! وكذلك تجنب التناقض مع عقول جماعة العقلاء - وليس هلوسات بعض الأفراد - فإنّما الشريعة ثبتت عند الناس بالعقل، والذي أثبتها يُبطلها إن تم تشويهها، فيكون من شوّهها هو

(١) في مسند أحمد: (٣٥/ ٣٤٥): عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان، فقال: «يا أبا ذر هل تدري فيم تنتطحان؟ قال: لا. قال: لكن الله يدري، وسيقضي بينهما». وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) معارج القدس في مدارج معرفه النفس للغزالي: ٥٧.

من صد الناس عن سبيل الله، وهكذا فقدت الديانات السابقة الحجة على الناس بسبب التشويه الذي طال أصولها وفروعها.

وكل ما ذكرته في هذه الشبهة كان عن الكافر الذي أقيمت عليه حجة الرسالة فعاند وكذب، وكان لا بد من ذكره مع أنَّني أتحدث عن أهل الفترة ومن في حكمهم ممن لم تقم عليهم حجة الرسالة؛ وما فعلت ما فعلت إلا لأثبت فائدة واحدة لأبني عليها وهي: **الكافر ينتفع من عمله الحسن في الآخرة.**

والآن نعود لمتابعة حسن خُلق غير المؤمنين من أهل الفترة ومن في حكمهم، وأنَّهم يستفيدون في الآخرة من حُسن خُلقهم هذا؛ لأنَّ الشريعة نصت على تبجيل الأخلاق وأهلها، ومن أمثلة ذلك:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: بينما رجلٌ يمشي بطريق اشْتَدَّ عليه العطشُ، فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلبٌ يَلهَثُ، يأكل الثَّرَى من العطش، فقال الرجلُ: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطشِ مثل الذي كان بلغَ مني، فنزل البئر، فملأ خُفَّهُ ماء، ثم أمْسَكه بِفيهِ، حتى رَقِيَ، فسقى الكلبَ، فشكرَ اللهُ له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله، إنَّ لنَا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل كَبِدٍ رطبَةٍ أجرٌ. وفي رواية: أنَّ امرأة بَغِيّاً رأت كلباً في يوم حارٍّ يُطيفُ ببِئرٍ، قد أدْلَعَ لِسانهُ من العطشِ، فنزَعتْ له مُوقَهَا[1]، فَغُفِرَ لها. وفي أخرى: بينما كلبٌ يُطيف برَكيَّةٍ[2]، قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بَغِيَّةٌ مِن بَغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقَهَا، فاستَقتْ له به، فسقتْهُ إيَّاهُ، فغُفِرَ لها بهِ[3].

---

(١) الموق: الخُفّ.

(٢) الركية: البئر.

(٣) رواه البخاري: ٥ / ٣١ في المزارعة، باب فضل سقي الماء، وفي الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان، وفي المظالم، باب الآبار على الطرق إذا لم يتأذ بها، وفي الأدب، باب رحمة الناس والبهائم. ومسلم: رقم (٢٢٤٤) في السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها.

وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما –: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: دخلت امرأةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ: ربطتها، فلم تُطعمها، ولم تَدَعْها تأكُلِ مِن خَشاشِ الأرض[1].

فالرسول ﷺ ما حدثنا عن عبادات هؤلاء، بل حدثنا أنَّ بعضهم بغايا!! وليس بالضرورة أن تكون كل بغي عديمة الإنسانية، ولا زلت أذكر دموع شفقتي على بغيّ ذكر المنفلوطي قصتها الأليمة في كتابه: العبرات. الدين القويم يضع كل عمل في ميزانه ومكانه المناسب، من غير أن يطغى شيء على شيء.

وغير قصص الأفراد السابقة، هناك قرى مشركة نجت من عذاب الله في الدنيا بعدلها وصلاحها، فأخبرنا سبحانه بأنَّ الشرك بنفسه لا يكفي لعذاب الأمم إن كانت صالحة في سلوكها!! قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [سورة هود: ١١٧]. والظلم هنا بمعنى الشرك، أي أنَّ صلاح الأمة يمنع من عذابها حتى لو كانت مشركة!!

قال الرازي: المراد من الظلم هاهنا الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان: ١٣] والمعنى: أنَّه تعالى لا يُهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم. والحاصل أنَّ عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنّما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم. ولهذا قال الفقهاء: إن حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة، وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح. ويقال في الأثر: المُلك يبقى مع الكفر، ولا يبقى مع الظلم. فمعنى الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ [سورة هود: ١١٧]:

---

(١) رواه البخاري: ٦ / ٢٥٤ في بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، وفي الشرب، باب فضل سقي الماء، وفي الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ومسلم رقم (٢٢٤٢) في البر، باب تحريم تعذيب الهرة.

أي لا يهلكهم بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضا على الصلاح والسداد. وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية، قالوا: والدليل عليه أنَّ قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إنّما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق[1].

وقال أبو المظفر السمعاني: في الآية قولان:

أحدهما: أنَّه لا يُهْلِكهم بمجَرَّد الشّرك إذا تعاطوا الإنصاف فيما بينهم، ولم يظلم بعضهم بعضا.

والثاني: هو أنَّ الله لا يظلم أهل قرية فيهلكهم بلا جِناية. والأول أشهر[2].

وقال البغوي: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾، أي: لا يهلكهم بشركهم، وأهلها مصلحون، فيما بينهم يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضا، وإنما يهلكهم إذا تظالموا[3].

فإذا كانت هذه الأقوام قد وصلتها دعوة الرسل فعاندتها، فمن المؤكد أنَّها تحاسب على كفرها في الآخرة، وإن كانت صالحة في الدنيا. ولكن إن كانت لم تصلها دعوة الرسل في الدنيا كأهل الفترة، أو مَن في حكمهم ممن أدرك الرسل، ولكن لم تقم عليه حجة الرسالة لسبب من الأسباب، فيكون هؤلاء قد حازوا النجاة في الدنيا، وتعطلت أسباب تعذيبهم في الآخرة؛ لكونهم لم تقم

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: (١٨/ ٤١٠). وانظر: تفسير القرطبي (٩/ ١١٤). ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم: (١/ ٢٥١). والتفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٥٩٧). وتفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ١٧٥). والتفسير البسيط: (١٧/ ٤٣١). والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة: (٢/ ٥٦٦). وفتح القدير للشوكاني: (٢/ ٦٠٥). وتفسير القاسمي = محاسن التأويل: (٦/ ١٤٠).

(٢) تفسير السمعاني: (٢/ ٤٦٧).

(٣) تفسير البغوي: (٢/ ٤٧١).

عليهم حجة الرسالة. بل يُتوقع من أصحاب الأخلاق أنَّهم لو أدركوا الرسل أن يكونوا سباقين إلى الإسلام، فإن الخير متأصل في النفس التي تفعله وهي لا تعتقد جزاء عليه، أكثر من النفس التي تفعله وتريد عليه مقابلا!! وقد ذكر الله أنَّه يصرف المتكبرين عن آياته فقال: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٦]، وفي هذا إشارة إلى أنَّ أصحاب الأخلاق سيكون مرحب بهم، وأقرب إلى رحمة الله والفوز بامتحانه. فعن حكيم بن حزام - رضي الله عنه - قال: يا رسولَ الله: أرأيتَ أمُورًا كنت أتحنَّثُ بها في الجاهلية: من صلاة، وعَتاقَة، وصدقة، هل لي فيها أجرٌ؟ قال رسولُ الله ﷺ: أسْلَمتَ على ما سلَفَ لك من خير[١].

فهذا الصحابي كان خُلقه الكريم قبل الإسلام سببا في إسلامه عندما أدرك الرسول ﷺ، فتَقبل حجة الرسالة ولم يعاندها أو يكذب بها. ويفهم من هذا أنَّ أصحاب الأخلاق من أهل الفترة ومن في حكمهم ممن لم تقُم الحجة عليهم، كان من المتوقع أن يكونوا مؤمنين لو أدركوا الرسل[٢]، وإذا كان فوز هذا الصحابي بالإسلام بسبب أخلاقه أولا، ثم بسبب إدراكه بعثة الرسول ﷺ، فيمكن أن نتوقع نجاة أصحاب الأخلاق من أهل الفترة ومن في حكمهم، في امتحان الآخرة بما تمتعوا به من أخلاق كريمة، هي لبّ الإسلام بعد التوحيد الذي لم يدركوه. وعليه فيفوزون برحمة الله وقد قال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٦].

(١) رواه البخاري: ٤/ ٤٤ في الزكاة، باب من تصدق في الشرك ثم أسلم، وفي البيوع: باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه، وفي الأدب، باب من وصل رحمه في الشرك ثم أسلم. وأخرجه مسلم: رقم (١٢٣) في الإيمان، باب حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده.

(٢) وجود قلة من أصحاب الأخلاق الذين أدركوا الرسل ثم لم يؤمنوا لا يلغي القاعدة الثابتة بكثرة المؤمنين من أصحاب الأخلاق، وأسبقيتهم لغيرهم إلى تلبية دعوة الرسل، كما سيأتي في الأدلة القادمة.

ومعلوم معنى الإحسان في المصطلح، إلا أنَّ الآية عامة تشمله وتشمل كل محسن حسب حاله، وبما يليق به. وقد ذكرت سابقا أنَّ قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ شامل لكل الخلق حسب أحوالهم. قال الماتريدي: إنّ الإحسان يجوز أن يكون الفعلَ الحسن نفسَه؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، استوجبوا هذا بالفعل الحسن، لا بالإحسان إلى الله تعالى، وفعلُ الحسن فرضٌ واجبٌ على كل أحد[1].

ويؤكد هذا المعنى حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: إنَّما يَرحمُ اللهُ مِن عباده الرُّحماءَ[2]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: الرَّاحِمُونَ يرحمهم الرحمن، ارحَمُوا مَن في الأرض، يرحمْكم من في السماءِ، الرَّحِمُ شِجْنَةٌ مِن الرحمنِ، فَمَن وصلَهَا وَصَلهُ الله، ومن قطعها قطعهُ الله[3].

قال ابن هبيرة: وفيه أيضًا من الفقه: أنَّ لطف الله عز وجل ورحمته عباده، تبلغ إلى أنَّ بغيًا من البغايا المسرفات على نفوسهن بفجورهن مدة عمرها، رَحمت في وقت واحد كبدًا رطبة، جرى مكان ذلك لها وسيلة إلى الله عز وجل، فأسقط عنها ما كان منها في عمرها؛ لإنابة لحظة في رحمة دابة غير كريمة، فكيف رحمة الآدميين المسلمين؟![4].

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة: (١/ ٥٠٣).

(٢) رواه البخاري: ٣ / ١٢٤ و ١٢٥ في الجنائز، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، وفي المرض، باب عيادة الصبيان، وباب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. ومسلم رقم (٩٢٣) في الجنائز، باب البكاء على الميت.

(٣) رواه الترمذي: رقم (١٩٢٥) في البر والصلة، باب في رحمة الناس، وأبو داود رقم (١٤٩٤١) في الأدب، باب في الرحمة. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح لابن هبيرة: (٦/ ٤١٢).

وحديث أبي هريرة – رضي الله عنه –: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: الناسُ معادِنُ، خِيارُهمْ في الجاهلية خِيارُهم في الإسلام، إذا فَقُهُوا، تَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ، أَشَدَّ النَّاسِ كراهية لهذا الشَّأنِ حتى يَقَعَ فيه[1]. والمعنى أَنَّ أصحاب الأخلاق هم أحسن الناس قبل أن يؤمنوا، وخيرُهم بعد أن يؤمنوا، ومهما كرهوا الدين لسبب من الأسباب، لا بد أن يرجعوا إليه؛ لأَنَّه الأقرب لقيمهم ومبادئهم. قال النووي: قال القاضي يحتمل أَنَّ المراد به الإسلام، كما كان من عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وغيره من مسلمة الفتح، وغيرهم ممن كان يكره الإسلام كراهية شديدة، لمّا دخل فيه أخلص وأحبه وجاهد فيه حق جهاده[2].

السبب السادس: صفات أهل النار تفيد أَنَّهم قلة

ذكرت سابقا أَنَّ الداخلين إلى النار قسمان: موحدون عصاة لم يغفر الله لهم، يدخلون جهنم عقوبة لفترة ثم يخرجون منها إلى الجنة. وهؤلاء غير مقصودين بهذا العنوان، والمقصود هو النوع الثاني: المعاندون للرسل المكذبون بالرسالة، فهؤلاء هم أهل النار أصالة، ونجد في القرآن الكريم والسنة النبوية صفات لأهل النار، لا تدل على أَنَّهم كثرة من الخلق، وإنّما تدل على أَنَّهم الأقل. ولا أقصد وصفهم بالكفر والشرك فهذا معلوم، وإنّما أقصد صفاتهم الأخلاقية السلوكية، ومن هذه الصفات:

(١) رواه البخاري: ٦ / ٣٨٥ في الأنبياء، باب المناقب، ومسلم رقم (١٨١٨) في الإمارة، باب الناس تبع لقريش.

(٢) شرح النووي على مسلم: (١٦/ ٧٩). وانظر: شرح السيوطي على مسلم (٥/ ٤٧٧). وشرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: (٦/ ٤٨).

أولا: صفاتهم في القرآن الكريم

- عدم الصدقة على الفقراء: قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [سورة المدثر: ٤٢-٤٤]. والمسكين يستعطف كل القلوب شفقة ورحمة، ولكن القلة من البشر ليست كذلك.

- زجر اليتيم والإساءة إليه، وعدم تشجيع الناس على الإحسان، والمراآة، وعدم التعاون. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [سورة الماعون: ١-٧]. والذين يجمعون هذه الصفات: زجر اليتيم الذي ترق له القلوب عادة، وليس لا يطعم المسكين فحسب بل لا يحض غيره كذلك!! ولا يقدّم العون لمن يحتاج، ولو كان قِدرا لطعام. لا شك أَنَّ هؤلاء ليسوا أكثر الناس.

- الظلم: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [سورة الجن: ١٥] والقاسطون هم الجائرون الظالمون.

- احتقار الناس: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [سورة هود: ٢٧].

- الكبر: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٧٣].

- الكذب، إشاعة الفتن بين الناس، ومنع الخير، وغلظة في الطبع: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٨-١٣].

وهذه تسع صفات وإن قيل إنّها في الوليد بن المغيرة، إلا أنَّها من صفات غيره من أهل النار مجتمعة أو متفرقة.

- الهزء: قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٠] والاستهزاء خُلق ذميم.
- قتلة: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: ٢١] يقتلون أهل الخير والهداية، وهم الرسل والدعاة، وهذه من أسوأ الصفات.
- ألسنتهم سليطة في الشر والسوء: قال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [سورة الأحزاب: ١٩].

وغير هذا كثير، والملفت للانتباه من خلال صفات أهل النار هذه، أنَّه سبحانه ربط بين الكفر وسوء العاقبة بسوء الخلق، فيكون الربط في المقابل بين الإيمان وحسن الخاتمة بحسن الخلق.

ثانيا: صفاتهم في السنة المطهرة

هناك تطابق بالصفات، فالسنة شارحة للقرآن الكريم، ومما جاء من صفات أهل النار في السنة المطهرة:

- عن حارثة بن وهب - رضي الله عنه - أنَّه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: ألا أُخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوَّاظ مستكبر(١). والجواظ: الغليظ الفظُّ.

---

(١) رواه البخاري: ٨ / ٥٠٧ في تفسير سورة (ن)، باب قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]، وفي الأدب، باب الكبر، وفي الأيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩]. ومسلم رقم (٢٨٥٣) في صفة الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

• عن عياض بن حمار المجاشعي - رضي الله عنه - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال ذات يوم في خُطبته: أهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له (لا عقل له، غير متماسك)، الذين هم فيكم تبعاً، لا يَتبعون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يَخْفى له طمع وإن دَقَّ إلا خانه، ورجل لا يُصبح ولا يُمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب، والشِّنْظِير. وهو الفَحَّاش[1]. وهذه الصفات بهذه المبالغة ليست في أكثر الناس، وإنّما في القلة منهم.

السبب السابع: إحباط مشروع إبليس وفشل تحدّيه، وانتصار المشروع الإلهي

عندما رفض إبليس السجود لآدم عليه السلام، غضب الله عليه وأراد أن يضعه في جهنم، إلا أنَّ إبليس التمس منه سبحانه أن يؤخر تعذيبه، وأن يأذن له بتحدي الإنسان، محاولا صرفه عن عبادة ربه الذي خلقه، وجره ليكون من أتباع إبليس، وكأنَّه لا يزال مُصرا على أنَّه هو الأفضل وليس آدم، وأنَّ عدم سجوده لآدم كان في مكانه!!

قبِل سبحانه عرض إبليس، وليبدأ التحدي أهبط الله سبحانه أطراف الصراع إلى مسرح الابتلاء في الكوكب، أهبط آدم وحواء، وأهبط لهم إبليس لإغوائهم، وفي المقابل أرسل لهم رسلا لهدايتهم. ثم أعلن إبليس عن مشروعه وخطته المتمثلة بإغواء البشرية جمعاء إلا القليل منها.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

(١) رواه مسلم: رقم (٢٨٦٥) في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الحجر: ٣٢-٤٣].

إذًا اتضح مشروع إبليس؛ فهو سحب أكثرية البشرية ليكونوا من أتباعه؛ لأنَّ المعهود لغة في الاستثناء أنَّ القليل يستثنى من الكثير، قال الطوفي: اعلم أنَّ استثناء الأقل صحيح(١). وقال الخازن: وهذا استثناء القليل من الكثير(٢). فإبليس قال: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الحجر: ٣٩-٤٠] فما بعد (إلا) وهم (المخلصين) هم القلة، قال مقاتل: يعني أهل التوحيد(٣). وقال الواحدي: قال المفسرون: يعني المؤمنين(٤). وقال البغوي: المؤمنون الذين أخلصوا لك الطاعة والتوحيد(٥). فيكون الإغواء للأكثرية.

وفي سورة الإسراء أظهر سبحانه عدم اكتراثه بتحدي إبليس، وقال له استعمل كل الوسائل، ولا تدخر وسعا، لكنك لن تستطيع إغواء عبادي، فليس لك عليهم سلطان. قال سبحانه عن إبليس: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٦٢-٦٥].

---

(١) الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية لنجم الدين الطوفي: ٣٦٧.
(٢) تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل: (١/ ٤٢٩).
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: (٢/ ٤٢٩).
(٤) التفسير البسيط: (١٢/ ٦٠٦).
(٥) تفسير البغوي: (٤/ ٣٨١).

وفي هذا المقطع زيادة ذات فائدة عظيمة، إذ أظهر سبحانه أنَّه سيتولى بنفسه حماية عبادة المؤمنين فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾. قال ابن أبي زمنين: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾: يعنى حرزا ومانعا لعباده المؤمنين[١]. وقال الزجاج: أي كفى باللَّهِ وكيلا لأوليائه، يعصمهم من القبول من إبليس[٢]. وقال أبو زهرة: أي كفى ربك وكيلا يتوكلون عليه، ويكفيهم غرور الشيطان[٣].

وطالما اتضح مشروع إبليس في إضلال عباد الله، واتضح أنَّ أكثر الناس من غير المؤمنين، وأنَّ أكثر غير المؤمنين هم من أهل الفترة، أو من في حكمهم الذين لم تقم عليهم حجة الرسالة أصلا، فعندها لو دخل أكثر هؤلاء جهنم خالدين فيها، سيكون النصر لمشروع إبليس اللعين!! والمستحيل أقرب من هذا إلى العقول المؤمنة!! فظنُّنا بالرحمن بل يقيننا!! أنَّ هذا لن يكون أبدا، وهو مستحيل في حق الإله الحق، الرحمن الرحيم، فقد اتفقت الديانات السماوية على أنَّ الخير أقوى وأدوم من الشر، بل أبت حتى الديانات الأرضية التي عددت الآلهة، إلا أن تتفق على أنَّ إله النور الذي يخلق الخير أقوى من إله الظلام الذي يخلق الشر[٤]، والإله ثور حامي البشر أقوى من الإله المخادع[٥]، والخلاص بالاتحاد بالإله براهما الذي يحميهم من الشر[٦]، وإله الخير أقوى من إله الشر[٧]. وعليه فيستحيل أن يقلب إبليس الموازين وهو مَن هو، وعليه

(١) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (٣/ ٣١). وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان: (٢/ ٤٢٩).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٣/ ٢٥١).

(٣) زهرة التفاسير لمحمد أبو زهرة: (٨/ ٤٤١٨).

(٤) من عقيدة المجوس الثنوية.

(٥) هذا في الأساطير النرويجية القديمة.

(٦) من عقائد الهندوس.

(٧) من عقائد الزردشتية.

فنتوقع أن يكون أكثر أهل الفترة ومن في حكمهم من أهل الجنة، إما معذورين كما أسلفت من الأطفال والمجانين والموحدين ومن على شاكلتهم، فيدخلون الجنة مباشرة، أو ممتحَنين فائزين بأخلاقهم وإنسانيتهم، وقلة سيئون مجرمون تخسر وتدخل جنهم. هذا ظننا بربنا الذي عرفناه وأحببناه، وهكذا يصدق قوله: «إنَّ رحمتي غلبت غضبي». والحُكم له لا معقب لحكمه، إلا أنَّنا نتكلم بما فهمنا، والله أعلم.

قال ابن القيم: وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة، وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل[1]. وقال أيضا: ورحمته سابقة على غضبه، غالبة له، وكل ما كان من صفة الرحمة فهو غالب لما كان من صفة الغضب؛ فإنّه سبحانه لا يكون إلّا رحيما، ورحمته من لوازم ذاته، كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه، فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك، وليس كذلك غضبه، فإنّه ليس من لوازم ذاته، ولا يكون غضبانا دائما غضبا لا يُتَصور انفكاكه، بل يقول رسوله وأعلم الخلق به يوم القيامة: «إنَّ رَبّي قد غضب اليوم غضبا لم يغْضب قبله مثله ولنْ يغضب بعده مثله»، ورحمته وسعت كل شيء، وغضبه لم يسع كل شيء، وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، ولم يكتب على نفسه الغضب، ووسع كل شيء رحمة وعلما، ولم يسع كل شيء غضبا وانتقاما، فالرحمة وما كان بها ولوازمها وآثارها غالبة على الْغَضَب[2].

والنقطة التي قصدها ابن القيم من استدلاله بالحديث: أنَّ الله غضب بعد أن لم يكن غضبان، بمعنى أنَّ الغضب من قبل كان قد انفك عن الله سبحانه، وتجدد يوم القيامة، ثم سينفك عنه، وإن جاء بعده غضب فلن يكون مثله. أي

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم: ٤١٤.

(٢) الفوائد لابن القيم: ١٢٥.

أنَّ الغضب يذهب ويأتي بدلالة الحديث، وهذا الحال لا يكون صفة ذات؛ لأنَّ صفات الذات لا تنفك عنه سبحانه، فهي ملازمة لذاته. مثل صفة الرحمة فهي ملازمة لذات الله سبحانه، لا تنفك عنه.

السبب الثامن: لأنَّ رحمة الله سبقت غضبه

والترجمة الواقعية لهذه القاعدة أن يكون أهل الجنة أكثر من أهل النار، والمكافئين أكثر من المعاقبين، والمنَعّمين أكثر من المعذبين، والمقرّبين أكثر من المبعدين. وسبق هذا المعنى بالتفصيل في بداية الكتاب في الركائز العقدية. وإذا كان دخول النار بالعدل، ودخول الجنة بالفضل، والفضل كرم ورحمة، والعدل قصاص، والمفهوم من صفات الإله الحق، أن يغلب الفضلُ العدلَ في نهاية المطاف، وتغلب الرحمةُ الغضب.

ملاحظة: يُحسب للدين الإسلامي أنَّه انفرد بأحكام أهل الفترات وأطفال المشركين، بينما أهملتهم الديانات الأخرى، فجعلت مصيرهم مع مصير الكفار المعاندين.

والترجمة الواقعية لهذه القاعدة أن يكون أهل الجنة أكثر من أهل النار، والمكافئين أكثر من المعاقبين، والمنَعّمين أكثر من المعذبين، والمقرّبين أكثر من المبعدين. وسبق هذا المعنى بالتفصيل في بداية الكتاب في الركائز العقدية. وإذا كان دخول النار بالعدل، ودخول الجنة بالفضل، والفضل كرم ورحمة، والعدل قصاص، والمفهوم من صفات الإله الحق، أن يغلب الفضل العدل في نهاية المطاف، وتغلب الرحمة الغضب.

ملاحظة: يُحسب للدين الإسلامي أنه انفرد بأحكام أهل الفترات وأطفال المشركين، بينما أهملتهم الديانات الأخرى، فجعلت مصيرهم مع مصير الكفار المعاندين.

ملخص الفرز الثالث للبشرية

نخلص بعد هذا العرض والتفصيل في الفرز الثالث، إلى أن البشرية انشطرت فيه إلى شطرين، ولكل شطر أقسام:

١ – المؤمنون الصادقون: انقسموا إلى:

أ – فائز: إلى الجنة مباشرة

ب – مستحق للنار معفو عنه، إلى الجنة بعد العفو، لا يعذب

ت – مستحق للنار لم يُعْف عنه، يُعذب لفترة في جهنم

٢ – غير المؤمنين الجهال، الذين لم تقم عليهم حجة الرسالة: انقسموا إلى:

أ – كمية كبيرة تذهب إلى الجنة مباشرة: من الأطفال والمجانين والموحدين، ومن على شاكلتهم من أهل الأعذار.

ب – مشركين يُمتحنون يوم القيامة فينقسمون إلى قسمين:

- الأكثر: فائزون بالامتحان بأخلاقهم، يدخلون الجنة بلا عذاب.
- الأقل: خاسرون، سيئون مجرمون، يدخلون جهنم.

* * *

الفرز الرابع والأخير للبشرية
استقرار أهل الجنة في الجنة، واستقرار أهل النار في النار

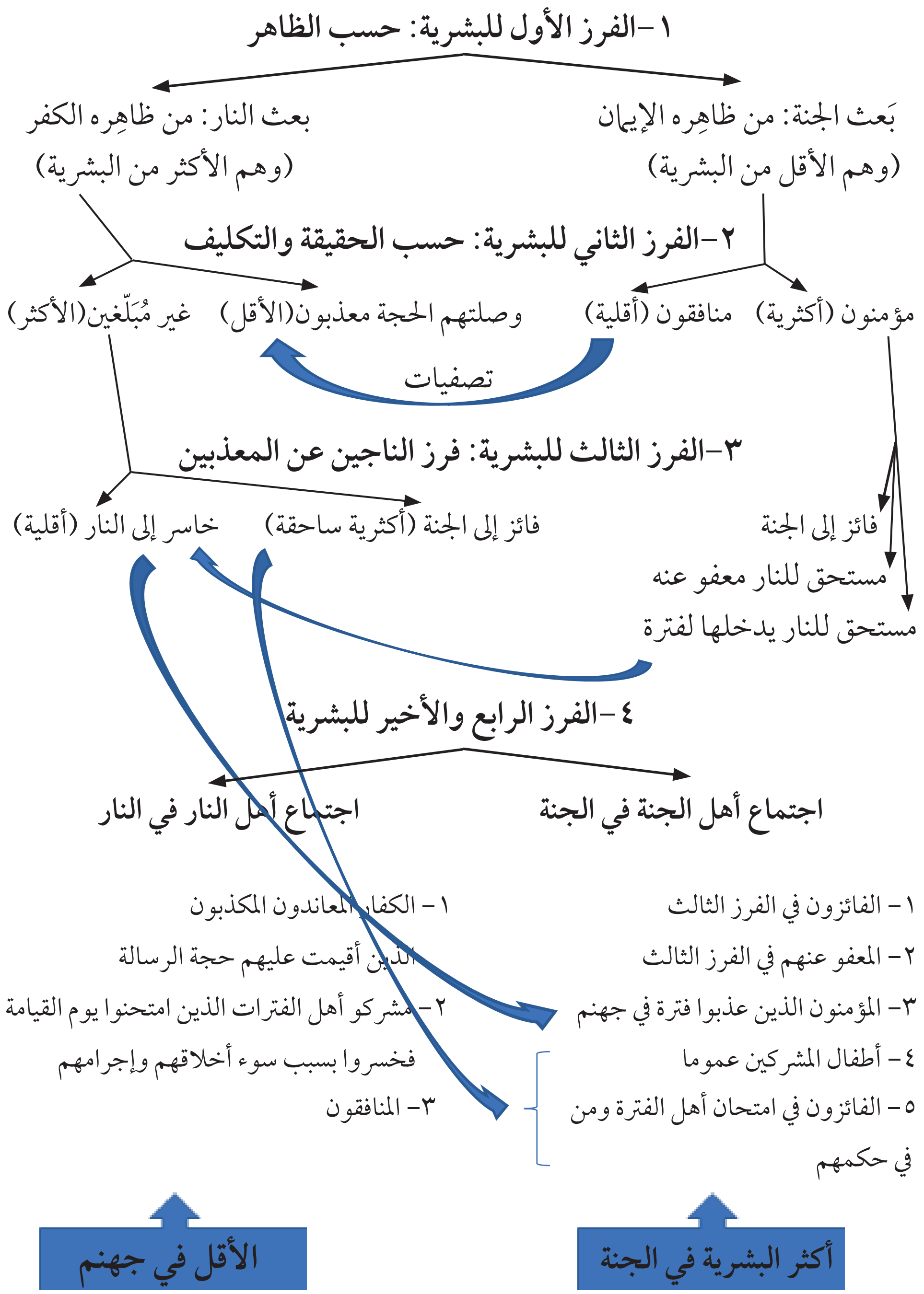

الفرز الرابع هو عبارة عن أخذ كل إنسان مكانه الدائم من الجنة أو النار، بعد انكشاف كل الحقائق، وتحقيق العدالة الإلهية في محاكمة الجميع، الجاهل والعالم، والمؤمن والكافر بكل أنواعهم وأحوالهم، ثم بعد هذا الفرز يتفضّل الله جل جلاله بإدخال أهل الجنة إلى الجنة معززين مكرمين، وسحب أهل النار إلى النار مهانين محقرين. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [سورة مريم: ٨٥-٨٦]. المتقون يُستقبلون بمراسم الوفود معززين مكرمين. والمجرمون يساقون سوقا إلى جهنم عطشى.

ويتضح من خلال ما سبق من فرز على مراحل أربع أنَّ أهل الجنة هم:

١- المؤمنون الفائزون في الفرز الثالث: وهم الذين فاقت حسناتهم سيئاتهم، ولم يرتكبوا موجبا للنار.

٢- المعفو عنهم في الفرز الثالث: وهم المؤمنون الذين استحقوا النار لقلة حسناتهم، أو لارتكابهم موجبا للنار، إلا أنَّه سبحانه تغمدهم بلطفة فعفا عنهم.

٣- المؤمنون الذين عذبوا فترة في جهنم: وهؤلاء المؤمنون الذين نقصت حسناتهم، أو ارتكبوا موجبا للنار، ولم يعف عنهم سبحانه، فيدخلون النار فترة من الزمن لتطهيرهم، ثم يرجعون إلى مكانهم في الجنة.

٤- أطفال المشركين عموما: فهؤلاء أطفال من جهة، ولم يدركوا الرسول من جهة ثانية، فهم ناجون.

٥- الفائزون في اختبار أهل الفترة ومن في حكمهم: وهؤلاء المشركون من أهل الفترات، الذين فازوا في اختبار يوم القيامة بما تمتعوا به من إنسانية وأخلاق.

ويتضح من خلال ما سبق من تفصيل أنَّ أهل الجنة يشكلون أكثرية ساحقة من البشرية.

أما أهل النار فهم:

١- الكفار المعاندون المكذبون، الذين بلغتهم دعوة الرسل، وأقيمت عليهم حجة الرسالة.

٢- مشركو أهل الفترات، ومن في حكمهم: الذين امتحنوا يوم القيامة، وخسروا لسوء أخلاقهم وإجرامهم.

٣- المنافقون: لأنَّهم في الحقيقة كفار معاندون مكذبون، بل هم الأسوأ في الكفار.

ويتضح من خلال ما سبق من تفصيل أنَّ أهل النار يشكلون أقلية من البشرية.

وهكذا تتجلى رحمة الله سبحانه على العالمين، وتكون كما أخبرنا رسولنا فيما يرويه عن ربه: «رحمتي غلبت غضبي»، ويكون ظهور هذه الرحمة واضحا للجميع.

وبعد هذا الفرز تحديدا، يُذبح الموت بين الجنة والنار، ليرمز بذلك إلى عدم موت الفريقين بعد اليوم، فقد مات الموت!! وقُلت بعد هذا الفرز تحديدا؛ لأنَّه قبل هذه الوقت لا يكون قد استقر أهل كل دار في دارهم، وعليه فكيف يقال لأهل كل دار: خلود فلا موت؟

فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسولُ الله ﷺ: يُؤتى بالموت كهيئة كبْش أملح، فينادي منادٍ: يا أهلَ الجنة، فيَشرئبُّون وينظرون، فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي مُنادٍ: يا أهل النار، فيشرئبُّون وينظرون، فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟

فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيُذبحُ بين الجنّة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة مريم: ٣٩] وأشار بيده إلى الدنيا[١].

ملاحظة:

أود أن ألفت الانتباه بأنَّنا وإن سمّينا هذا بالفرز الأخير والنهائي، فلا نقصد على الإطلاق!! وإنّما هذا فرز بعث النار، يمر بهذه المراحل المعلومة، إلا أنَّ هناك مراحل غير معتادة، وغير متوقعة سندرسها بإذن الله في المحور الثاني والثالث وهي: مصير الكفار في النار، ومصير يأجوج ومأجوج.

(١) رواه البخاري: ٨ / ٣٢٥ في تفسير سورة مريم، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾. ومسلم رقم (٢٨٤٩) في الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

خلاصة المحور الأول: بعث النار

- اتضح من خلال هذه التفصيل بما لا يدع مجالا للشك، بأنَّ حديث بعث النار كان فرزا أوليا اختلط فيه أهل النار بأهل الجنة؛ لأنَّ الفرز كان على الظاهر، وليس على حقيقة دين الإنسان.
- واتضح أنَّ الشطرين الأساسيين: شطر بعث الجنة وشطر بعث النار، كل منهما ينقسم إلى أقسام كثيرة، ويتعرض لتصفيات ثابتة بالكتاب والسنة، لم تكن مذكورة ببعث النار، ولا يمكن تجاوزها لثبوتها، مما يؤكد أنَّ بعث النار كان فرزا أوليا، قائما على ثقافة الدنيا وليس الآخرة!؛ لأنَّه حسب الظاهر الذي تعارف عليه الناس في الدنيا.
- وتبين أنَّ بعض المؤمنين في بعث الجنة ثبتت فيهم أحكام بدخول النار لعدم العفو عن بعض معاصيهم الكبيرة، فأخرجوا من بعث الجنة، وانتقلوا إلى بعث النار لفترة، ثم عادوا أدراجهم إلى أماكنهم في بعث الجنة.
- كما أُخرج من بعث الجنة أيضا وبشكل نهائي المنافقون الذين حُشروا فيه أولًا حسب ظاهرهم، ففي الفرز الثاني تم فضحهم، فسيقوا إلى أماكنهم المعدّة لهم في بعث النار، وكان ذلك بدلالة الكتاب والسنة الثابتة.
- كما ثبت بالدليل أنَّ مَن مات من أطفال المشركين عامة، فهو في الجنة بلا حساب ولا عذاب، فيخرج من بعث النار إلى بعث الجنة.
- وتبين بالكتاب والسنة أنَّ الأغلبية الساحقة من بعث النار كانت غير مؤمنة كباقي البعث؛ ولكنها لم تكن قد أقيمت عليها حجة الرسالة؛ لأنَّه إما لم يأتها رسول أصلا، وإما لعدم وصول دعوة الرسول سليمة قوية إليها،

وذكرنا الأدلة الثابتة على أنَّ هؤلاء لا يساقون إلى جهنم بهذه الحال، فقد صح إخراج أطفالهم إلى الجنة، وكذلك الموحدين منهم، والمجانين ومن في حكمهم، ولم يبق إلا المشرك، فحال شركه بينه وبين دخوله الجنة بغير إيمان بالله سبحانه، وحال بينه وبين جهنم أنَّه لم يأته رسول، أو أدرك الرسالة ولكن لم تصله الدعوة سليمة قوية مقنعة، فكان الحلّ بامتحانهم في عرَصات يوم القيامة، ففاز جمهورهم بإنسانيتهم وأخلاقهم، وانتكس مجرموهم وسيّئوا الأخلاق، فخسروا الامتحان وسيقوا إلى جهنم، بعد أن كفروا بالله وعصوا أمره في الوقت الذي ظهر الحق لكل البشر، وظهرت حكمة الله لكل الخلق.

إلا أنَّه بقي في هذا الفرز أن نقول: اتضح أن نسبة أهل النار من بعث النار قليلة بالنسبة لأهل الجنة، وأنَّ أهل الجنة الأكثرية بفضل الله ورحمته، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ نسبة يأجوج ومأجوج والجن في بعث النار كانت كبيرة جدا كما في الحديث، فعندئذ سيكون المعذبون من الإنس قلة قلية. وقد قال ابن حجر عند حديثه عن بعث النار: والغرض منه هنا ذكر يأجوج ومأجوج، والإشارة إلى كثرتهم، وأنَّ هذه الأمة بالنسبة إليهم نحو عُشر عُشر العُشر(١). بمعنى: ٠,٠٠١ كما في نص حديث بعث النار.

وسنرى - بإذن الله - أنَّ هذا الكلام في الحديث الشريف عن يأجوج ومأجوج، أيضا ليس على ظاهرة، وفيه تفاصيل كثيرة سندرسها في المحور الثالث. ومن الله التوفيق.

انتهى المحور الأول ولله الحمد.

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (٦/ ٣٨٦).

المحور الثاني
أبدية الكفار في النار
وأثره على العدالة الإلهية

وينقسم هذا المحور إلى قسمين:

القسم الأول: أبدية النار وأثره على العدالة الإلهية

القسم الثاني: مصير الكفار بعد النار وأثره على العدالة الإلهية

القسم الأول

أبدية النار وأثره على العدالة الإلهية

اختلفت أقوال العلماء في مسألة أبدية النار لثلاثة أسباب:

الأول: اختلاف ظواهر النصوص كما سنرى عند عرض أدلة كل فريق

الثاني: التعارض الظاهري بين القاعدة الكلية التي أثبتناها سابقا والواردة في الحديث: «رحمتي غلبت غضبي»، وبين ظواهر بعض النصوص التي تمنع الرحمة عن أهل النار.

الثالث: عدم ملاحظة الفرق بين القول بأبدية مبنى النار (جهنم) نفسها، والنار وعذابها في داخلها. وسيتضح هذا من خلال ذكر أقوال العلماء ومناقشتها بإذن الله.

القول الأول: القائلون بأبدية عذاب جهنم لأهلها وعدم فناء نارها

يُنسب هذا القول للجمهور، قال ابن أبي العز الحنفي: هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف. وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها[1]. قال المناوي: (ونؤمن بالجنة والنّار) أي بأنَّهما موجودتان الآن وأنَّهما باقيتان لا تفنيان[2].

---

(١) شرح الطحاوية: ٤٢٤. وانظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: ٣٦٢. والرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية: ص٥٢. وفتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٢١). وجلاء العينين في محاكمة الأحمدين لنعمان الآلوسي: ٤٨٦، وقال: قال بفناء النار جمع من الظاهرية، وفرقة من الحنابلة.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير لابن تاج العارفين: (١/ ٤٢٧). وانظر: فيض القدير (٣/ ١٨٤). والسراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير: (٢/ ٢٥٧).

والحقيقة أنَّ هذه المسألة لم تأخذ حقها من البحث في كتب العقائد أصلا، وما قيل فيها بعد حذف المكرر شيء قليل لا يحسم المسألة، والدليل حَكَمٌ على الجميع كما سنرى.

استدل أصحاب هذا القول بما فهموا من الكتاب والسنة، وأهم أدلتهم:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [سورة النساء: ١٦٨-١٦٩]. وباقي الآيات في خلود الكفار في النار وهي كثيرة.

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٢٧-٢٨]. فكفرهم مستحكم لا يزول، وهذا يبرر عذابا لا ينتهي.

٣- ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [سورة الحج: ٢٢].

٤- حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -قال: قال رسولُ الله ﷺ: أمَّا أهلُ النار الذين هم أهلها، فإنّهم لا يموتون فيها ولا يحيون[١].

قال الطبري: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [سورة النساء: ٥٧]، يقول: مقيمين فيها أبدًا[٢].

وقال الواحدي: ﴿أَبَدٗا﴾ على الظرف، وهو في المستقبل نظير قط في الماضي، نحو: لا أراه أبدًا، وما رأيته قط[٣].

---

(١) رواه مسلم: رقم (١٨٥) في الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار.

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان: (٩/ ٤١١). وانظر: تفسير السمرقندي = بحر العلوم: (١/ ٣٥٩). وتفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٢/ ١١٠).

(٣) التفسير البسيط: (٧/ ٢٠١).

ورأى أصحاب هذا القول أنَّ كلمة ﴿أَبَدًا﴾ جاءت مع الخلود لتفيد التأبيد أو تأكيده، وليس المكث الطويل. قال الشوكاني: وهو لدفع احتمال أنَّ الخلود هنا يراد به المكث الطويل(١).

كما يرى أصحاب هذا المذهب في كلمة ﴿أَبَدًا﴾ ردا على الجهمية التي تقول بفناء الجنة والنار، وانتهاء نعيم الجنة وعذاب جهنم بفنائهما. قال أبو الحسن الأشعري: يقول الجهم بن صفوان: إنّ الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وأنَّ الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به فقط، وأنَّه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده؛ وأنَّه هو الفاعل، وأنَّ الناس إنّما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز(٢). وسبب قول الجهمية بهذا القول اعتقادهم بامتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث في الماضي والمستقبل(٣).

ثم إني لم ألحظ لأصحاب هذا القول أي تفريق بين النار والدار، يعني بين النار التي تُعذب الكفار، وبين الدار التي تحويها.

القول الثاني: القائلون ببقاء جهنم، وفناء نارها وانتهاء عذابها

وقد اشتهر هذا القول عن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وإن كان هذا القول له سلف فمَن بعده كما سنرى. وقد قال به من المعاصرين: رشيد رضا والقرضاوي(٤).

ولا بد من التفريق بين فناء النار وانعدام جهنم!! وابن تيمية وابن القيم لا

---

(١) فتح القدير للشوكاني: (١/ ٦٢٢). وانظر: روح البيان لإسماعيل حفي: (٢/ ٣٢٥).

(٢) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري: ٢٧٩. وانظر: شرح الطحاوية: ٤٢٤. ومباحث التفسير لابن المظفر الرازي: ١٧٥. تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (١٤/ ٤٥٨).

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: (٨/ ٣٤٥).

(٤) دروس في التفسير، تفسير جزء عم ـ القرضاوي: ٤٦. وتفسير المنار ـ رشيد رضا: ٨/ ٨٦.

يقولان بفناء النار بمعنى انعدامها، وهو ما يقول به الجَهم بن صفوان كما ظن من لم يستوعب قولهما!! وكال لهما سوء الألفاظ!! وهما مع أهل السنة في عدم فناء الجنة والنار بمعنى انعدامها، وهو منقول عنهما بأشد العبارات، بل لابن تيمية كتاب اسمه: (الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك)[1]. **ومن أقوال ابن تيمية في عدم فناء النار وانعدام جهنم:** وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة، على أنَّ من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية، كالجنة والنار والعرش وغير ذلك. ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين كالجهم بن صفوان، ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله، وإجماع سلف الأمة وأئمتها[2].

ومن أقوال ابن القيم في عدم فناء النار وانعدام جهنم: الجنة والنار داران قد خلقتا، وأعدت الجنة للمتقين المؤمنين، والنار للكافرين الجاحدين. لا تفنيان ولا تبيدان[3].

وقال: فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [سورة القصص: ٨٨] وبنحو هذا من متشابه القرآن قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا[4].

وقال: لما كان الناس على ثلاث طبقات: طيب لا يشينه خبيث، وخبيث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيب، دورهم ثلاثة: دار الطيب المحض،

---

(١) الكتاب تحقيق: محمد بن عبد الله السمهري، دار بلنسية – الرياض، ط١، ١٤١٥، هـ – ١٩٩٥م.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٨/ ٣٠٧). وانظر: درء تعارض العقل والنقل: له أيضا: (٨/ ٣٤٦).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم: (٢/ ١٥١).

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: ٤٨.

ودار الخبيث المحض، وهاتان الداران لا تفنيان، ودار لمن معه خبث وطيب وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة[1].

وإنّما يفرق ابن تيمة وابن القيم بين جهنم كدار للكافرين، وبين عذابها ونارها التي في داخلها، فالكفار معذبون خالدون في هذا العذاب طالما هو باق في داخلها!!، فلا يخرجون من النار طالما هي موجودة كما قال تعالى، فلا يقولان بفناء الدار، وإنّما يقولان بفناء النار وانتهاء عذابها. والفرق بين هذا وبين قول جَهم كبير جدا، فإنّ جهم بن صفوان عندما قال بفناء النار كان بناء على مبدئه باستحالة حوادث لا نهاية لها في الماضي والمستقبل، وبناء على هذا قال بفناء الجنة والنار معا، بمعنى انعدامهما مع أهلهما. وهذا القول أنكره العلماء، وكُفّر جهم عليه، وأشدهم إنكارا وتفصيلا في الرد عليه ابن تيمية وابن القيم، والأقوال السابقة عنهما في عدم فناء النار كانت في الرد عليه، وقد ذكراه صراحة، فقال ابن تيمية: امتناع وجود ما لا يتناهى في الماضي والمستقبل. وهذا قول أبي الهذيل والجهم بن صفوان، وعن هذا الأصل قال الجهم بفناء الجنة والنار، واشتد إنكار سلف الأمة عليه ذلك[2].

وقال ابن القيم: قول من يقول: النار تفنى بنفسها لأنَّها حادثة بعد أن لم تكن، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وأبديته. وهذا قول جهنم بن صفوان وشيعته[3]. والتفصيل في كتبهما.

والمطلع على مجموع أقوال ابن تيمية وابن القيم يشعر بأنَّهما يقولان حينا بعدم فناء النار كما أسلفت، وأحيانا يقولان بفنائها!! لذلك نشأ إشكال

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم: ٢٠.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: (٨/ ٣٤٥).

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: ٣٥٤.

عند كثيرين في فهم أقوالهما، إلا أنَّنا لو تتبعنا كل أقوالهما لرأينا أنَّهما وضّحا قصدهما بما لا يدع مجالا للشك، وهو أنَّهما **يقصدان لا تفنى جهنم وإنّما تفنى نارها، فلا تفنى جهنم كدار، وتفنى نارها!!** يعني يفنى ما فيها من نار، وينتهي عذاب الكفار فيها، ومما يزيد هذا الإشكال أنَّ الكتاب والسنة والتراث الإسلامي درج على تسمية جهنم باسم بعضها أو ما حل فيها وهي: (النار) فالنار في داخل جهنم، والدار مع النار اسمه جهنم. فأحيانا يقول العالم: (النار)، ويقصد جهنم، وأحيانا يقصد النيران التي يُعذب فيها الكفار. وهذا ما يحتاج منا إلى تدقيق لمعرفة مقصود الكلام. ومما يوضح قصدهما ما يأتي:

قال ابن تيمية في فناء نار جهنم: فهم لا يخرجون من جهنم، بل هم خالدون في جهنم كما أخبر الله سبحانه وتعالى. لكن إذا انقضى أجلها، وفنيت **كما تفنى الدنيا،** لم يبق فيها عذاب، وذلك أنَّ العالم **لا يعدم،** وجهنم في الأرض، **والأرض لا تعدم بالكلية** ولكن **فناؤها بتغير حالها، واستحالتها من حال إلى حال** كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦]، وهم لا يعدمون بل يموتون[١]، ويهلكون[٢].

لا بد من ملاحظة دقة ابن تيمية، فقد قال: (وفنيت **كما** تفنى الدنيا) قصده، أنَّها لا تفنى بمعنى تنعدم!! لأنَّ الدنيا معلوم أنَّها لا تنعدم في الآخرة، بل يتغير حالها وتبدل الأرض غير الأرض، وعليه فيتغير حال النار؛ لأنَّها فيها -حسب رأيه-، فلا تبقى للعذاب، وتزول نارها، ولا تفنى الدار بنفسها!! فقال: (وذلك أنَّ العالم لا يعدم)، (فناؤها بتغير حالها، واستحالتها من حال إلى حال).

إذًا التناقض ليس في كلام ابن تيمية، بل في فهم من لم يستوعب كلامه.

---

(١) لا يقصد بمن يموت ويهلك أهل النار، وإنما يقصد ما ذكرته الآية: مَن على الأرض.

(٢) الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية: ٥٦.

وعلى هذا الرأي سار تلميذه ابن القيم تماما، لذلك عندما نقلنا عنه القول بعدم فناء النار، كان قصده كما قصد ابن تيمية، الرد على معنى الفناء في رأي الجهم ابن صفوان.

قال ابن القيم في زوال نار جهنم: وأما فناء النار **وحدها** فقد أوجدنا كم من قال به من الصحابة، وتفريقهم بين الجنة والنار، فكيف يكون القول به من أقوال أهل البدع، مع أنَّه لا يُعرف عن أحد من أهل البدع التفريق بين الدارين، فقولكم أنَّه من أقوال أهل البدع كلام من لا خبرة له بمقالات بني آدم، وآرائهم واختلافهم[1].

قبل قليل نقلت عن ابن القيم في كتابه: (حادي الأرواح) أنَّه سمى من يقول بفناء النار زنديقا!! والآن وفي نفس الكتاب هو يقول به!! وهذا ليس تناقضا منه، وإنّما على مذهب شيخه؛ ففناء النار على طريقة جهم بن صفوان هو زندقة عند كل العلماء، وليس عند ابن تيمية وابن القيم فقط، والفناء المقصود بكلامه وكلام شيخه رأي آخر، يجيز حوادث لا نهاية لها في المستقبل، وعليه فلا داعي لأن تفنى الجنة والنار **بمعنى تنعدمان**، ولكن تفنى النار (**بمعنى يتغير حال جهنم** كما تتغير الأرض)؛ وهذا لأنَّ عذاب الكفار قد انتهى بانتهاء عقوبتهم!! وهذه النار التي في جهنم خُلقت لتعذيبهم ومعاقبتهم، فإذا انتهت العقوبة تتحول، ولا تبقى دارا للعذاب، وأما مصير أهلها فهذا ما سندرسه بعد أن ننتهي من هذا القول.

أدلة القائلين بفناء نار جهنم وانتهاء التعذيب، وبقاء جهنم بغير نار

استدل هذا الفريق بأدلة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة أهمها:

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: ٣٦٤.

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [سورة النبأ: ٢١-٢٣].

قال الطبري: إنّ هؤلاء الطاغين في الدنيا لابثون في جهنم، فماكثون فيها أحقابا. وأما الأحقاب فجمع حُقْب، وقد اختلف أهل التأويل في مبلغ مدة الحُقْب(١). ثم روى الطبري الأقوال في مدة الحقب، فروى عن بشير بن كعب أنَّ مدته ثلاث مئة سنة. وقال: وقال هلال الهجري وأبو هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس: بل مدة الحُقْب الواحد ثمانون سنة. وعن الحسن سبعون ألف سنة.

وظاهر هذه الآية أنَّ مُكث أهل النار في النار يكون مدة هذه الأحقاب، وهي مدة محدودة تنقضي مهما كانت طويلة.

• قال ابن تيمية: وقد نُقِل هذا القول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم. وقد روى عبد بن حميد [ت٢٤٩هـ] - وهو من أجل علماء الحديث - في تفسيره المشهور، قال: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن البصري، قال: قال عمر: «لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج(٢)، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه»(٣). وقال: أنبأ حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، أنَّ عمر بن الخطاب قال: «لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج، لكان لهم يوم يخرجون فيه، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان: (٢٤/ ١٥٩).

(٢) قال أبو عبيد الله السكوني: عالج رمال بين فيد والقريات، ينزلها بنو بحتر من طيّء، وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة لا ماء بها، وهو مسيرة أربع ليال: معجم البلدان: (٤/ ٧٠).

(٣) مسند الفاروق لابن كثير: (٢/ ٥٤١). وقال: فيه انقطاع بين الحسن وعمرَ، فإنَّه لم يَسْمع منه، وفيه غرابة جدًّا. قال ابن حجر: وهو منقطع: فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٤٢٢).

﴿فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾. وهذا يبين أنَّ مثل هذا الشيخ الكبير (يعني عبد بن حميد) من علماء الحديث والسنة يروي عن مثل هؤلاء الأئمة في الحديث، والسنة مثل سليمان بن حرب والذي هو من أجل علماء السنة والحديث، ومثل حجاج بن منهال في كلامهما عن حماد بن سلمة مع جلالته في العلم، والسنة، والذي يروي من وجهين: من طريق سلمة مع جلالته في العلم، والسنة، والذي يروى من وجهين: من طريق ثابت، ومن طريق حميد هذا عن الحسن من بعض التابعين، فسواء كان هذا قد حفظ هذا عن عمر، أو لم يحفظ، كان مثل هذا الحديث متداولاً بين هؤلاء العلماء الأئمة لا ينكرونه، وهؤلاء كانوا ينكرون على من خرج عن السنة من الخوارج، والمعتزلة، والمرجئة، والجهمية.

وكان أحمد بن حنبل يقول: «أحاديث حماد بن سلمة هي الشجا في حلوق المبتدعة». فهؤلاء من أعظم أعلام السنة الذين ينكرون من البدع ما هو دون هذا، لو كان هذا القول عندهم من البدع المخالفة للكتاب والسنة، والإجماع، كما يظنه طائفة من الناس. وعبد بن حميد ذكر هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾. ليبين قول من قال: الأحقاب لها أمد ينفذ، ليست كالرزق الذي ماله من نفاذ، ولا ريب أنَّه من قال هذا القول، قول عمر، ومن نقله عنه، إنّما أرادوا بذاك جنس أهل النار الذين هم أهلها. فأما قوم أصيبوا بذنوب، فأولئك قد علم هؤلاء، وغيرهم، بخروجهم منه، وأنَّهم لا يلبثون فيها قدر رمل عالج، ولا قريبا من ذلك(١).

وقد تبنى ابن القيم كلام شيخه هذا وكرره في مؤلفاته(٢).

---

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية: ٥٣ وما بعدها.

(٢) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: ٣٥٤ وما بعدها. وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم: ٢٥٧ وما بعدها.

• ومما استدل به ابن تيمية أيضا، قال: وفي المسند للطبراني(1): ذكر فيه «أنَّه ينبت فيها [في أرض جهنم بعد زوال نارها] الجرجير»، وحينئذ فيُحتج على فنائها بالكتاب والسنة، وأقوال الصحابة - مع أنَّ القائلين ببقائها ليس معهم كتاب، ولا سنة ولا أقوال الصحابة(2).

وذكر هذا الحديث بدر الدين العيني، ولكن جعله خاصا بنار العصاة وليس لكل جهنم فقال: وإنّما تخلى جهنم وهي الطبقة العليا التي فيها عصاة أهل التوحيد، وهي التي ينبت على شفيرها الجرجير، وقد بين ذلك موقوفا عبد الله بن عمرو بن العاص: يأتي على النار زمان تخفق الرياح أبوابها ليس فيها أحد. وهذا وإن كان موقوفا فإنّ مثله لا يقال بالرأي(3).

وكلام العيني هذا مبني على أنَّ قول الصحابي لو لم يكن من قبيل الاجتهاد فله حكم المرفوع إلى الرسول ﷺ، ومن المؤكد أنَّ أحوال جهنم وأخبارها لا يكون إلا بالوحي، فهذا دليل قوي على فناء النار، إلا أنَّ قصْر الحديث على طبقة من طبقات جهنم غير ظاهر منه، فالصحابي قال: «يأتي على النار»: بعمومها، والنار المعهودة هي نار جهنم، والتخصيص يحتاج إلى دليل، ولا دليل، فيبقى على عمومه. ومن جهة أخرى فإنّ جهنم وإن كانت دركات إلا أنَّنا لا نعلم بالضبط أين نار الموحدين داخل جهنم بالضبط. والعيني وغيره أدرجوا في الحديث كلمة (من الموحدين) كتفسير، وهي ليست من الرواية.

---

(1) لم أجده في مسند الطبراني، وسيأتي تخريجه عند سرد الأدلة قريبا جدا.

(2) الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية: ٦٧.

(3) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني: (١٩/ ٥٢). وأيضا ذكر هذا الحديث ابن الملقن واستدل عليه بالموقوف على طريقة العيني، وقال: مثله ليس من قبيل الرأي: التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن: (٢٢/ ٥٩٦). وقال إسماعيل حقي: حديث صحيح: روح البيان لإسماعيل حقي: (١٠/ ٣٠٤).

ويكفينا قول الصحابي، وبه الحجة.

- وقال ابن حزم: وروينا عن عبد الله بن عمرو بن العاص: لو أقام أهل النار في النار ما شاء الله أن يبقوا لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه منها[١].
- وقال ابن بشكوال: عن مالك بن أَنَسٍ قال: جاءني رجل يستأذن عليَّ وزعم أَنَّه قَدِمَ من الشَّام في مسألة فأذنت له فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في أكل الجرجير؛ فإنّه يُتحدث عندنا أَنَّه يُلْبِثُ في شَفِير جهنم؟ فقلت له: لا بأس به فقال: أستودعك اللهَ وأقرأ عليك السلامُ[٢].
- ومما ذكر من أحاديث ليست بقوة ما سبق: عن واثِلَةَ بن الأسْقَع - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: الجرجير بقلة خبيثة كأَنّي أَراها نابتة في النار[٣].
- حديث أبي أُمامة: يأتي على جهنم يوم ما فيها مِنْ بني آدمَ أحدٌ -تَخْفُقُ أبوابها[٤].
- عن ابن مسعود: ليأتين عليها زمان ليس فيها أحد[٥]. يقصد على جهنم.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم: (٤/ ٧١).

(٢) الآثار المروية في الأطعمة السرية لابن بشكوال: ٣٢٥. وذكره القرطبي: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة: ٩٢٦. وقال: ذكره الخطيب أبو بكر أحمد رحمه الله، وذكر أبو بكر البزار، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: يأتي على النار زمان تنفق الرياح أبوابها، ليس فيها أحد. هكذا رواه موقوفاً من قول عبد الله بن عمرو وليس فيه ذكر النبي ﷺ. ومثله لا يقال من جهة الرأي، فهو مرفوع.

(٣) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة لأبي العباس الكناني: (٨/ ٢٢٥)، وقال: رواه الحارث عَنْ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ وَاقِدٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ. وانظر: الطب النبوي لأبي نعيم الأصفهاني (٢/ ٦٣٢).

(٤) جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير» للسيوطي: (١٢/ ٧٩٥). وقال: الحديث رواه الخطيب في تاريخ بغداد، ٩/ ١٢٢ في ترجمة «سهل بن عبد الله البخاري» رقم ٤٧٣٨.

(٥) فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٤٢٢). ولم يعلق عليه.

وقد نسب ابن أبي العز الحنفي هذا القول لجماعة من السلف، كما عده من أقوال أهل السنة[1]. وقال أيضا: وهذا القول - أعني القول بفناء النار دون الجنة - منقول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم[2].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٨].

٣- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: ١٠٦-١٠٧].

قال ابن تيمية: وفي تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي، وهو معروف مشهور، ينقل منه عامة المفسرين الذين يسندون كابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وعثمان بن سعيد الدارمي، والبيهقي والذين يذكرون الإسناد مجملا، كالثعلبي، والبغوي، والذين لا يسندون كالماوردي، وابن الجوزي، قال: عن ابن عباس، قوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٨] قال: وفي هذه الآية إنّه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارا.

قال الطبري[3]: وروي عن ابن عباس أنَّه كان يتأول في هذا الاستثناء الوارد في الآية: أنَّ الله تعالى جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابه إياهم إلى مشيئته. حدثنا عبد الله حدثنا معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قال: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: ٤٢٨.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: ٤٢٩.

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٢/ ١١٨).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾. في هذه الآية: إنّه لا ينبغي لأحد أن يَحكُم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارا[1]. أي الحُكم لله، يضع خلقه حيث يشاء.

وقال ابن القيم: إذا دخل [الكفار] النار لبثوا فيها مدة دوام السماوات والأرض إلا ما شاء الله، وليس المراد الاستثناء قبل الدخول، هذا ما لا يفهمه المخاطب... والمقصود أنَّ قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عائد إلى هؤلاء المذكورين، مختصا بهم، أو شاملا لهم ولعصاة الموحدين[2].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وغير مجذوذ يعني: غير مقطوع، فخص سبحانه بهذا الوصف الجنة، ولم يقل عن عذاب الكفار غير مقطوع.

٥- واستدلوا بحكمة الله ورحمته وبالعقل: قال ابن القيم: قد دل العقل والنقل والفطرة على أنَّ الرب تعالى حكيم رحيم، والحكمة والرحمة تأبى بقاء هذه النفوس في العذاب سرمدا أبد الآباد، بحيث يدوم عذابها بدوام الله؛ فهذا ليس من الحكمة والرحمة[3]. وقال ابن تيمية: فالنعيم من موجب أسمائه التي هي من لوازم ذاته، فيجب داومه بدوام معاني أسمائه وصفاته. وأما العذاب فإنّما هو من مخلوقاته، والمخلوق قد يكون له انتهاء مثل الدنيا وغيرها، لاسيما مخلوق خُلق لحكمة تتعلق بغيره[4].

---

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية: ٥٧ وما بعدها. وانظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: - ٣٥٥. وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم: ٢٥٩.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: ٣٥٧.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم: ٢٥٤.

(٤) الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية: ٨١.

الترجيح

بالنسبة للقول الأول: القائل بأبدية عذاب جهنم لأهلها

فلا شك أنَّه مخالف للعقل والعدل الإلهي والحكمة الإلهية، إذ لا يتصور أن يعصي الإنسان ربه في حياة لا تكاد تساوي صفرا بالنسبة لمدة عقابه، فيعذبه الله عذابا لا ينتهي دائما بدوام الله سبحانه!! وللتوضيح أشرحها رياضيا: لو افترضنا أنَّ الإنسان عاش ٢٠٠ سنة كلها كفر وإجرام، وسيعذب حسب هذا القول بسبب ذلك إلى ما لانهاية من الزمان، فلو وزعنا عمره على زمن عذابه لكانت النتيجة صفرا، يعني كأنَّه عاش صفرا من السنين: ٢٠٠÷ ما لانهاية = صفر. لنفرض أنَّه عاش ١٠٠٠٠٠ سنة كلها كفر وإجرام، هل ستتغير النتيجة السابقة: ١٠٠٠٠٠÷ ما لانهاية= صفر. مهما كان طول زمان كفر الإنسان إذا قورن بدوام هذا العذاب الذي هو نفسه دوام الله ستكون حياته صفرا. أيُعقل أن يعذبَ الكافر على هذا الصفر عذابا هو الأشد يدوم بدوام الله!! أيعقل ألا نكتفي بعذاب هذا المجرم أشد العذاب لمدة تصل إلى: مليار مليار مليار مليار مليار مليار مليار مليار مليار مليار سنة، يحرق فيها ويقطع ويشوى ووو ولا ينتهي عذابه؟!! أيعقل أنَّ من يُعذِّب هذا العذاب هو الرحمن الرحيم، الحكيم الخبير، الذي أخبرنا أنَّه خلق الخلق والأكوان على أساس أنَّ رحمته غلبت غضبه، وقد سبق الحديث في ذلك، وهو القائل سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]. قال: بالناس!! بالمؤمنين والكفار!! ليس بالمؤمنين فحسب!!. ثم إذا دام نعيم المؤمنين برحمة الله على أحسن حال، ودام عذاب الكفار بعقابه على أشد حال. فمن يستطيع أن يقول بعد هذا التساوي أنَّ رحمة الله غلبت غضبه!!

قال ابن تيمية: قد أخبر سبحانه أنَّ رحمته وسعت كل شيء، وأنَّه ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢]، وقال: «سبقت رحمتي غضبي»، «وغلبت رحمتي غضبي». وهذا عموم، وإطلاق، فإذا قُدّر عذاب لا آخر له، لم يكن هناك رحمة ألبتة(١).

وأما استدلالهم بالأبد ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [سورة النساء: ٥٧] على عدم زوال التعذيب، فهذا مقيد ببقاء السماوات والأرض، ومشيئة الله في الآيات التي ذكرها أصحاب القول الثاني. كما أنَّ الراغب الأصفهاني قال بأنَّ الأبد يمكن أن يُعبّر به في لغة العرب عن طول المكث، فقال: الأبد: ويُعبّر به عما يبقى مدة طويلة(٢). ويؤيد هذا ما جاء في السنة من ذكر العذاب الأبدي لبعض مقترفي الكبائر، ومعلوم أنَّهم لا يخلدون في النار، لكنه المكث الطويل. فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم–: «من تَرَدَّى مِن جبل فقتلَ نفسَه، فهو في نار جهنم يتردَّى فيها، خالداً مُخلداً فيها أبداً، ومَن تَحَسَّى سُمَّاً فقتلَ نفسه، فَسُمُّه في يده يتحسَّاه في نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً، ومَن قتل نفسَهُ بحديدة، فحديدتُه في يده، يتوجَّأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مُخلداً فيها أبداً(٣).

إنّ الخطأ الذي وقع فيه أصحاب هذا القول خطأ منهجي ما كان ينبغي أن يقعوا فيه، فهم نظروا إلى آيات التعذيب فوجدوا ظاهرها الخلود في النار، وغابت عنهم أمور:

---

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية: ٨٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني: ٥٩.

(٣) رواه البخاري ١٠ / ٢٦١ في الطب، باب شرب السم والدواء به وما يخاف منه والخبيث. ومسلم رقم (١٠٩) في الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه.

الأول: أنَّ الخلود في النار مرتبط بوجود النار داخل جهنم، بمعنى أنَّهم خالدون في النار ما دامت موجودة، والله تكلم عن خلودهم داخلها، لكنه لم يقل إنّ النار لا تفنى. وعليه فحتى تنتهي عقوبتهم من غير خلل في خلودهم المرتبط بوجود النار، كان لا بد من فناء النار، وعندها ينتهي العذاب.

الثاني: إنّ الآيات التي استدلوا بها تتحدث عن عقوبة الكافر، وسجنه في جهنم. وعليه فكل ما يقال حول هذا السجين، ينبغي أن يُفهم ضمن حدود عقوبته، ومبررات وجود سجنه. فالله لا يحب التعذيب ولا بناء السجون، والتعذيب عنده عارض لمجرد العقوبة، والسجين يُمنع من الخروج إذا حاول حتى تنتهي مدته، وكذلك كل التهديدات مثل التعهد بالمزيد من العذاب، تفهم ضمن المدة المقررة، وهكذا غيرها.

وأما أن يقال هو محكوم عليه بالمؤبد الذي ينتهي بالموت، فهذا في الدنيا لعدم سيطرة الدولة على الجاني وعظم خطره وإبعاده عن الناس، أما في الآخرة فكل شيء تحت السيطرة، والزمان مفتوح بلا موت، وخطر الجاني كان في الدنيا، وأما في الآخرة فهو يعذب والمؤمنون ينعمون بأمان بعيدا عنه. ولا حاجة لأحد باستمرار عذابه، ولا داعي لردعه عن العدوان؛ لأنَّه في الآخرة لن يستطيع أن يوقع الضرر على أحد. كل ما هنالك أنَّه يعاقب للعدل، وبعد ذلك فتعذيبه يصبح مصدر إزعاج لا أحد يعرف له حكمة، ولا أحد يستطيع أن ينسبه إلى الرحمة.

قال الرازي: قيل الخير مطلوب بالذات، والشر مطلوب بالعرض، وما بالذات راجح غالب(١). قال الآلوسي: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: (١٥/ ٣٧٩).

الأعراف: ١٥٦] إنسانا كان أو غيره، مطيعا كان أو غيره، فما من شيء إلا وهو داخل فيها، سابح في تيارها أو سايح في فيافيها[١]. ثم إنّنا لا نجد لأصحاب هذا القول استدلالا صريحا بأقوال الصحابة على أنَّ النار لا تفنى، ولذلك قال ابن القيم في الرد على من ادعى الإجماع على أنَّ النار لا تفنى: لو كُلف مدعي الإجماع أن ينقل عن عشرة من الصحابة فما دونهم إلى الواحد أنَّه قال إنّ النار لا تفنى أبدا لم يجد إلى ذلك سبيلا[٢].

الثالث: إحداث التناقض بين الفرعيات والكليات

فقد سبق أن بينت في الركائز أنَّ رحمة الله غلبت غضبه، وأنَّ هذه الكلمات في الحديث الشريف تُعدّ قاعدة كلية عقدية، يصطبغ بها الدين، بل والكون كما سبق أن ذكرت. فعندما نصطدم بآيات ظاهرها بعيد عن الرحمة ينبغي أن نجد لها تأويلا مناسبا، ينسجم مع رحمة الله سبحانه، ولا يسيء إلى تصور الناس عن عدله!!، وذكرت أنَّ الله لم يقتصر على الاستفتاح لكتابه بالبسملة، والمقصود منها: (الرحمن الرحيم) حتى افتتح بها سور كتابه[٣]، حتى يذكّرنا بأنَّ تعاليمه في كتابه محكومة بهذه القاعدة التي حَكمت وتحكم كل ما خلق الله وما سيخلق، فهي فوق الأكوان، مكتوبة في كتاب فوق عرش الرحمن!! بل حَكمت غضب الله جل جلاله فغلبته كما أخبرنا سبحانه!!

والإشكال أنَّ نفس الآيات التي تمسكوا بها لم تنص على أنَّ النار لا تفنى! بل هذا مجرد اجتهاد لهم، كل ما فيها أنَّ الكفار خالدون فيها، ولا يخرجون منها،

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني: (٥/ ٧٤).

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: ٣٦٢.

(٣) حتى سورة التوبة التي ليس فيها بسملة في أولها، لا تخرج عن القاعدة العامة في رحمة الله في كل شيء، فتشريعات هذه السورة لا شك كلها رحمة وعدل.

وعذابهم في ازدياد، ومعلوم أنَّ هذا كله يُفهم وبدون أي تعسف، وهو الأصل في التفسير أنَّ هذا كله ضمن فترة العقوبة!! قال ابن القيم: ما شرعه الله في هذه الدار وقدّره من العذاب والعقوبات؛ فإنّما هو لتهذيب النفوس وتصفيتها من الشر الذي فيها، ولحصول مصلحة الزجر والاتعاظ، وفطما للنفوس عن المعاودة، وغير ذلك من الحِكم التي إذا حصلت خلا التعذيب عن الحكمة والمصلحة فيبطل؛ فإنّه تعذيب عليم حكيم رحيم، لا يعذب سدى، ولا لنفع يعود إليه بالتعذيب، بل كلا الأمرين محال، وإذًا لا يقع التعذيب إلا لمصلحة المعذَّب أو مصلحة غيره، ومعلوم أنَّه لا مصلحة له، ولا لغيره في بقائه في العذاب سرمدا أبد الآباد(١).

ومما زاد الطين بلة أنَّهم عندما اصطدموا بنصوص صريحة تتجلى فيها رحمة الله وتحدد مدة للعذاب، وهي التي أحضرها أصحاب القول الثاني، بدلا من أن يَسْعدوا بها كونها تتسق مع صفات الله ورحمته وعدله، وتنسجم مع عقول البشر قاطبة!!! وهي المتوقعة من عقوبات رب العالمين، وكونها في هذا الحال هي المخرج الذي تشرق منه رحمة الله وعدالته، أغلقوا هذا الباب! وتعسفوا في صرف النصوص عن ظاهرها!! فخالفوا أصول التفسير وقواعده، وشوهوا -بغير قصد- رحمة الله وعدله!! وها نحن نعيش في رِدّة تتسع يوما بعد يوم، ولمثل هذه الأقوال سهم فيها.

وأما بالنسبة للقول الثاني: القائل ببقاء جهنم، وفناء نارها وانتهاء عذابها

فلا شك أنَّه يفسر حسب الأصول، فلم يقع في تضارب بين القواعد التي تحكم التشريع وبين فروعه، ولا بين المنقول والمعقول، وكلامهم يمكن أن تفسر به كل الآيات التي قال بها القول الأول دون أي إشكال، بل لا يظهر

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم: ٢٥٤.

جمالها وكمال صفات منزلها إلا بما قال هؤلاء، فقولهم يُعيد الأمور إلى نصابها، فتهدأ النفوس وتطمئن إلى الدين الذي اختارته، وإلى عدالة خالقها وسعة رحمته، فتزداد حبا له وإجلالا. وقد ظهر أثناء عرض أدلة هذا القول أنَّهم استدلوا بكل أنواع الاستدلال من آيات وأحاديث، وأقوال صحابة، ومعقول، وقواعد كلية، وغير ذلك، فمن اطلع على تفاصيل أقوالهم في كتبهم، لانشرح صدره أيما انشراح.

وتفسيرهم للأحقاب بأنها مدة منقضية من الزمن متناسب مع لغة العرب، فقد قال ابن فارس: فأما الزَّمَانُ فهو حِقْبَةٌ، وَالْجَمْعُ: حِقَبٌ. والحُقْبُ ثمانون عامًا، والجَمْعُ: أَحْقَابٌ، وذلك لما يَجْتَمِعُ فيه مِن السِّنِين والشُّهُورِ[1].

وقال اللَّيْث: الحُقُب: ثَمَانُون سنة والجميع أحقابٌ. أبو عُبيد عَن الْكسَائي: الحُقُب السِّنون، واحدتها حِقْبة، والحُقُب: ثمانون سنة. وقال الفرَّاء: الحُقُب فِي لُغة قيس سنةٌ. وَجَاء في التَّفْسِير أَنه ثَمَانُون سنة. وقال الزجّاج: الحُقُب: ثَمانُون سنة[2].

وفي لسان العرب: الحُقْبُ والحُقُبُ: ثمانون سنةً، وقيل أكثرُ من ذلك؛ وجَمْعُ الحُقْبِ حِقابٌ، مثل: قُفٍّ وقِفافٍ، وحكى الأزهري في الجَمْعِ: أَحْقَاباً[3].

وقد كان لبعض العلماء تفسيرات تتعارض مع ما قال به هؤلاء منها:

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [سورة النبأ: ٢١-٢٦] قال الطبري: فإذا انقضت تلك الأحقاب، صار لهم من العذاب أنواع

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/ ٨٩).

(٢) تهذيب اللغة (٤/ ٤٦).

(٣) لسان العرب (١/ ٣٢٦).

غير ذلك(١). فحسب قول الطبري تكون الأحقاب هي المدة التي لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا، وإنّما الحميم والغساق فحسب. إلا أنَّه يلزم من قول الطبري أنَّهم بعد هذه الأحقاب سيذوقون البرد والشراب!! وهذا ممتنع حتما؛ لأنَّه نعيم محرم على أهل النار. ولذلك خطَّأ ابن تيمية هذا القول فقال: قال الزجاج: «وبيانه: أنَّ الأحقاب حدّ لعذابهم بالحميم والغساق، فإذا انقضت الأحقاب عذبوا بغير ذلك من العذاب». وهذا الذي قاله الزجاج شاذ، خلاف ما عليه الأولون والآخرون، وهو خلاف ما دل عليه القرآن، فإنّ هذا يقتضي أنَّهم يبقون بعد الأحقاب فيها، ولكن يذوقون البرد والشراب حينئذ، وهذا باطل قطعا، ثم إذا ذاقوا البرد والشراب فهذا نعيم، فكيف يكونون معذبين فيها؟(٢).

ومن جهة أخرى هذا مخالف لظاهر الآية وما يتبادر من معناها، والأصل أنَّ الظاهر مقصود لا يحاد عنه إلا بدليل معتمد، غير تأويلهم السابق المرجوح. فكيف إذا كان الظاهر الذي حادوا عنه هو ما يتناسب مع رحمة الله وعدله!

كما أنَّ الآيات قالت: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [سورة النبأ: ٢٦]. وقد روى الطبري عن الربيع قال: بحسب أعمالهم. وروي هذا عن: ابن عباس وقتادة وابن زيد وقتادة ومجاهد(٣). إلا أنَّ العذاب إلى ما لا نهاية لا يكون وفاقا مع الأعمال مهما كانت سيئة، ولا يتناسب هذا مع رحمة الله لعباده، وهي أكبر قاعدة كلية في تفسير كلام الله.

ومنهم من جعل اللبث كل هذه الأحقاب لعصاة المؤمنين!! قال ابن الفرس الأندلسي: وذهب قوم إلى أنَّ المراد بالآية عصاة المؤمنين، وهذا ضعيف؛ لأنَّ

(١) تفسير الطبري = جامع البيان: (٢٤/ ١٦٣).

(٢) الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية: ٦٤.

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان: (٢٤/ ١٦٧).

ما بعده من الآيات مفسر[1]. وقال ابن عطية: وقال آخرون الموصوفون باللبث أحْقاباً عصاة المؤمنين، وهذا أيضا ضعيف، ما بعده في السورة يدل عليه[2].

فحتى يصرفوا النص عن المشركين، وضعوا المؤمنين مكانهم أحقابا في جهنم!!، وسياق الآيات واضح أنَّه في الطاغين الكافرين، فقد قال سبحانه بعدها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [سورة النبأ: ٢٧-٢٨].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٨].

فسر الطبري هذه الآية على غير ما قال أصحاب القول الثاني: قال الطبري: يعني: إلا ما شاء الله من قدر مدة ما بين مبعثهم من قبورهم إلى مصيرهم إلى جهنم، فتلك المدة التي استثناها الله من خلودهم في النار[3].

وكلام الطبري هنا غريب جدا؛ فالاستثناء في الآية حسب سياقها واضح أنَّه من مثواهم وخلودهم: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٨] وأما قبل دخول النار فهم ما كانوا فيها، وهذه معلومة معروفة لجميع الخلق، لا يشك فيها أحد، وذكرها في الآية لا يضيف أي فائدة على الإطلاق، فكيف تصرف الآية إلى هذا المعنى؟! وبعدها مباشرة روى قول ابن عباس المخالف له، عن ابن عباس قال: إنّ هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ألا ينزلهم جنة ولا نارا. فبنى ابن عباس عليها أنَّ الله يضع خلقه أين يشاء، بغض النظر عن دينهم، فلا يُسأل عما يفعل.

---

(١) أحكام القرآن لابن الفرس الأندلسي: (٣/ ٦١١).

(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٥/ ٤٢٦).

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان: (٩/ ٥٥٧).

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [سورة هود: ١٠٦-١٠٨] هناك من جعل الاستثناء في أهل التوحيد من أهل الكبائر(١).

وواضح من سياق الآية أنَّها فرزت الناس إلى شطرين شقي وسعيد، فوضع الأشقياء في جهنم لهم فيها زفير وشهيق، ومثل هذا الكلام لا يُصرف على الموحدين؛ لأنَّ الموحدين ذكرهم بعدها بأنَّهم سعدوا وهم في الجنة، والآية الكريمة تتحدث عن أهل النار وأهل الجنة بعد الاستقرار، وليس أثناء التصفيات!! والاستثناء وارد على الفريقين، السعداء والأشقياء، إلا أنَّه وصف عطاء السعداء بأنَّه غير مقطوع.

وقد روى الطبري الكثير عمن يخالف هذا الفهم فقال: وروي عن ابن عباس أنَّه كان يتأول في هذا الاستثناء: أنّ الله جعل أمرَ هؤلاء القوم في مبلغ عذابه إيّاهم إلى مشيئته. وروي عنه أيضا: إنّ هذه الآية: آيةٌ لا ينبغي لأحدٍ أن يحكم على الله في خلقه، ألا ينزلهم جنَّةً ولا نارًا(٢). وعن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: هذه الآية تأتي على القرآن كلِّه، يقول: حيث كان في القرآن ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، تأتي عليه. قال: وسمعت أبا مجلز يقول: هو جزاؤه، فإن شاء الله تجاوز عن عذابه(٣). وعن ابن عباس: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، لا يموتون، ولا هم منها يخرجون ما دامت السموات والأرض،

(١) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٥/ ٤٨٤).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٢/ ١١٨).

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٥/ ٤٨٣).

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، قال: استثناءُ الله. قال: يأمر النار أن تأكلهم. وقال ابن مسعود: ليأتين على جهنَّم زمان تخفِقُ أبوابُها، ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابًا. وعن الشعبي قال: جهنم أسرع الدارين عمرانًا وأسرعهما خرابًا(١).

وقال الطبري: وقال آخرون: أخبرنا الله بمشيئته لأهل الجنة، فعرَّفنا معنى ثُنْياه بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، أنَّها في الزيادة على مقدار مدَّة السموات والأرض. قال: ولم يخبرنا بمشيئته في أهل النار. وجائز أن تكون مشيئته في الزيادة، وجائز أن تكون في النقصان. قال ابن زيد في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، قال: وأخبرنا بالذي يشاء لأهل الجنة، فقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار(٢).

ومن خلال هذا العرض والمناقشة، تبين أنَّ البون شاسع بين القولين، وكان للقول الأول أثر سلبي على فهم عدالة الله ورحمته، مما كان له الأثر البالغ في سوء فهم الكثيرين لرحمة الله وعدالته، فتبع ذلك رِدّة عن الدين الإسلامي، وسوء صورة عن الإسلام لمن هم خارجه. وعليه فلا يسعني إلا أن أرجح القول الثاني، لكونه منسجما مع باقي الشريعة ومقاصدها، ويربط بين الفروع وكلياتها بعبقرية رائعة، يخدم الحقيقة ولا يجافي العقل، ويساهم إلى درجة كبيرة في حل اللغز الذي يعاني منه الشباب في أيامنا؛ وهو كيفية فهم عدل الله ورحمة التي لم تتضح في القول الأول وهو الشائع مع الأسف.

(١) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٥/ ٤٨٤). وتفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (٥/ ١٩٠).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٥/ ٤٨٤).

القسم الثاني

مصير الكفار بعد فناء النار وأثره على العدالة الإلهية

مر في القسم الأول أنَّ عذاب أهل النار له نهاية، وهي انتهاء مدة عقوبتهم، بانتهاء النار وفنائها، ولكن يا ترى أين يذهب الكفار بعد ذلك؟ ما مصيرهم؟ هذه مسألة لم يحدثنا عنها سبحانه، ولا رسوله، ولا تكلم فيها العلماء، ومن جزم فيها بشيء فقد جازف وتكلم بما لا يعلم، فالصورة غير واضحة، فهنا قد تشرد الفكرة، ويخيب الحدس، ويزلّ القلم، فمن وقف سلم، فقد رأينا من ربنا ما جعلنا نثق به، وشعرنا بعدله ورحمته فأحببناه، وذلّت جباهنا ساجدة لجلاله.

وما أكتبه هنا من باب دفع الشبهات، فالأمر في أيامنا لم يعد بهذه البساطة، فقد نشأ من بني جلدتنا من لا يتمتع بتلك الثقة بربه، وما أحبه ذلك الحب الذي يليق به، وثار علينا آخرون من الطرف الثاني يوسوسون لشبابنا بمثل هذه الشبهات، ليصدوهم عن سبيل الله، وقد قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣٢]، فلما شعرت بترنح المسلم الضعيف بدينه، واشتداد الشبهات على بعض الشباب، توكلت على الله في محاولة تبيين ما يمكن فهمه من كتاب الله وسنة رسوله حول هذا الموضوع، وما أكتبه في هذا القسم هو من باب التأملات والخواطر، مفوضا الجزم بشأن أهل النار لخالقها وخالقهم، سائلا المولى أن يسدد فكرتي ويعصم قلمي، ويبلغني ما قصدت من كتابتي هذه.

فأقول: إذا خرج المعذبون بعد فناء نارهم ما مصيرهم؟

أما احتمال موتهم فقد روى الطبري عند قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا

دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: ١٠٧] عن ابن عباس قال: (إلا ما شاء ربك): استثنى الله. قال: يأمر النار أن تأكلهم(١).

إلا أنَّ الموت قد ذُبح منذ زمن بعيد، منذ أن استقر أهل النار في النار، بعد عودة الموحدين منها إلى الجنة، واستقر أهل الجنة في الجنة. فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: يُؤتى بالموت كهيئة كبْش أملَح، فينادي منادٍ: يا أهلَ الجنة، فيَشرئبُّون وينظرون، فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي مُنادٍ: يا أهل النار، فيشرئبُّون وينظرون، فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيُذبحُ بين الجنَّة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت(٢).

فهذا الحديث يدل على أنَّ الدور اثنتان، وعلى أنَّ الموت أصبح شيئا من الماضي، لا يتوقع حدوثه لأحد من الدارين. قال أبو عبد الله الحميدي: وأيضا فقد قلنا: إنّه ليس في القيامة موضع استقرار حاشا هاتين الدارين، فمن لم يكن في إحداهما لزم أن يكون في الأخرى(٣).

هل يبدلهم الله مكانا آخر يليق بكفرهم؟

ورد أنَّ الله لا يعطي الكفار شيئا من النعيم مهما كان، ولو كانوا خارج الجنة. قال تعالى:

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٥/ ٤٨٤).

(٢) رواه البخاري: ٨ / ٣٢٥ في تفسير سورة مريم، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ [مريم: ٣٩]. ومسلم رقم (٢٨٤٩) في الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

(٣) تحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمآل لعقيل بن عطية وأبو عبد الله الحميدي: (١/ ٤٢٣).

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٠-٥١].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٤٠].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٣].

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

ويمكن أن يقال: إنّ هذه الآيات تتحدث عن الكفار المعاندين الذين فعلوا الكفر في الدنيا، فهؤلاء لا شك لا رحمة لهم ولا نعيم حتى تنتهي عقوبتهم، فعندئذ كما في الدنيا: الحدود كفارات. فرب العالمين أخذ حقه منهم، وعذبهم بأشد النيران فترات طويلة. إلا أنّه يعكر على هذا الكلام شيء آخر، فقد تمت عقوبتهم، إلا أنّهم كفار مشركون. وفي هذا نظر!! نعم هم لم يؤمنوا في الدنيا وكفروا بأركان الإيمان. لكنهم اليوم يؤمنون بالله سبحانه، فهم عنده، ويؤمنون بالرسل، ويؤمنون بالبعث، فهم بأنفسهم بُعثوا. وكذلك كل شيء، هذه المعلومات بالنسبة لهم صارت من الضروريات التي لا يسع أحد جهلها.

وقد يقال بأنّ الله أخبرنا أنّ هذا من الكذب، فقال إنّهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر. قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٢٧-٢٨].

والجواب: إنّ الصحيح من تفسير الآية أنَّهم لم يدخلوا النار بعد، وإنّما على وشك أن يدخلوها، لكنهم أيقنوا أنَّهم واردوها، فتحسروا على أبوابها بكلمات الندم هذه. قال أبو الليث السمرقندي: قال الكلبي: يعني: حبسوا على النار. وقال مقاتل يعني: عرضوا على النار. وقال الضحاك: يعني: جمعوا على أبوابها. ويقال: وقفوا على متن جهنم والنار تحتهم[1]. وقال الشوكاني: ذكره علماء المعاني، ووقفوا معناه حُبسوا[2]. وقال الماتريدي: يحتمل قوله (وقفوا على النار) أي: حبسوا إذ لو وقف حبس، والنار لا يوقف عليها، بل يكون فيها ما قال - عز وجل -: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [سورة الزمر: ١٦]، وقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [سورة الأعراف: ٤١]. وقال الواحدي: وقال أصحاب المعاني في هذه الآية: وقفوا على مسألة ربهم، لتقريرهم بما فيه توبيخ لهم على ما سلف من جحودهم، فخرج الكلام مخرج ما جرت به العادة من وقوف العبد بين يدي سيده، لما في ذلك من البلاغة[3]. وقال تاج القراء: أي عاينوها[4]. وقال ابن عطية: حبسوا[5]. وقال القرطبي: أي هم فوقها على الصراط[6].

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (١/ ٤٤١). وانظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون: (٢/ ١٠٥).

(٢) فتح القدير للشوكاني: (٢/ ١٢٤).

(٣) التفسير البسيط للواحدي: (٨/ ٨١).

(٤) غرائب التفسير وعجائب التأويل لتاج القراء: (١/ ٣٥٦). وانظر: تفسير العز بن عبد السلام (١/ ٤٣٤). وتفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (١/ ٤٩٨). والتفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم ٢٤١.

(٥) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٨١). وانظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٢/ ٥٠٨). وتفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل: (١/ ٢٥٨).

(٦) تفسير القرطبي: (٦/ ٤٠٨).

وعلى كل حال من المعلوم في ديننا أنَّه لا يجوز أن يعذَّب الإنسان في الآخرة على عمل لم يعمله. قال ابن حجر: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟﴾ [سورة الأنعام: ٢٨]: ولكن لم يُرِد سبحانه أنَّهم يجازون بذلك في الآخرة؛ لأنَّ العبد لا يجازى بما لم يعمل(١).

والسبب في كذبهم أنَّهم لا زالوا محملين بالخبث في قلوبهم، ولم تطهرهم النار وتحرق خبثهم، فأما بعد أن يدخلوا النار لفترة طويلة، فلا بد أن يرجعوا إلى الإيمان بلا خبث؛ فالخبث والعناد الشديد ليس في أصل خلقتهم، وإنّما اكتسبوه، وتم حرقه مع العذاب الشديد والطويل. فلو قلنا: إنّهم مع كل ما شاهدوه يوم القيامة، ومع كل هذا التعذيب لم يؤمنوا!! ستكون هذه إشارة سلبية على أصل التكليف، إشارة خفية بأنَّ هؤلاء المعذبين إلى ما لا نهاية، ما كانوا على شاكلة الآخرين من بني آدم في المواصفات الخَلْقية!! بحيث كل هذا العذاب مهما طال وبهذه العظمة الهائلة لم يُطهّرهم!! ولم يقتلع الشر والكفر من قلوبهم!! وهذا يعود بشبهة على أصل تكليفهم، فهل كانوا مخيرين حقيقة في الدنيا؟ أم خلقوا للشر كما خُلقت يأجوج ومأجوج(٢)؟ وبالتالي على أي أساس يحاسبون ويعذبون؟ إن لم يكن بمقدورهم أن يؤمنوا!!

قال ابن تيمية: والنفوس الشريرة الظالمة التي رُدّت إلى الدنيا قبل العذاب لعادت لما نهيت عنه، لا يصلح أن تسكن دار السلام التي تنافي الكذب والظلم والشر، فإذا عُذبوا بالنار عذابا يُخلص نفوسهم من ذلك الشر كان هذا معقولا في الحكمة، كما يوجد في تعذيب الدنيا، وخَلْق من فيه شر يزول بالتعذيب من تمام الحكمة، وأما خَلْق نفوس تعمل الشر في الدنيا، وفي الآخرة لا تكون

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (٣/ ٢٤٧).

(٢) إشكال يأجوج ومأجوج قادم في المحور الثالث.

إلا في العذاب، فهذا تناقض يظهر فيه من مناقضة الحكمة والرحمة ما لا يظهر في غيره[1].

وقال ابن القيم: فهذا قبل مثابرتهم للعذاب قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٢٧-٢٨] فتلك الخبائث والشرور قائمة بنفوسهم لم تُزلها النار، فلو رُدّوا لعادوا لقيام المقتضى للعود، **ولكن أين أخبر سبحانه أنَّه لو ردهم بعد العذاب الطويل السّرمدي لعادوا لما نهوا عنه؟** وسِر المسألة أنَّ الفطرة الأصيلة لا بد أن تعمل عملها كما عمل الطارئ عليها عمله، وهذه الفطرة عامة لجميع بني آدم كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» وفي لفظ «على هذه الملة» وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حماد المجاشعي عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «قال إنّي خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا» فأخبر أنَّ الأصل فيهم الحنيفية، وأنَّهم خلقوا عليها، وإن صدها عارض فيهم باقتطاع الشياطين لهم عنها فمن الممتنع أن يعمل أثر اقتطاع الشياطين، ولا يعمل أثر خلق الرحمن جل جلاله عمله، والكل خلقه سبحانه فلا خالق سواه[2].

وقد قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: ٧-١٠]. قال ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ علّمها الطاعة والمعصية[3]. وقال مقاتل: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية: ٨٢.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم: ٢٦١.

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان: (٢٤/ ٤٥٤).

﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ يعني: وعلمها الضلالة والهدى(١). قال الماتريدي: دساها: أي: أخفاها وأخملها(٢). قال الواحدي: والأصل: دسّسَها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء(٣).

فالآيات الكريمة ذكرت أنَّ الخير والشر علما ومعرفة مركوز في الفطرة التي خلق الله الخلق عليها، والإنسان الفالح من قوّى جانب الخير فزكاها، والإنسان الخاسر من دساها، يعني غطاها عن رؤية الخير، ومنعها من أن تنمو على الخير. والذي أريد أن أقوله: إنّ الإنسان مهما كان شريرا لا يقوى على قتل الخير الذي خلقه الله في نفسه!! وكل ما يستطيع فعله هو أن يدسها في التراب، يغطيها، يجهلها. وإذا كان الأمر كذلك فبالإمكان رفع الغطاء عن هذه النفس ليظهر الخير من جديد، وإذا لم يحصل هذا في الدنيا، فلم يبق إلا أن يحصل في الآخرة في النار، ولا يوجد احتمال ثالث؛ لأنَّ موت الخير في النفس لتبقى شريرة لا تعرف خيرا أبد الآبدين، وبكل الوسائل مستبعد كما في الآيات. ولذلك قال ابن تيمية عن العرب: لكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير، معطلة عن فعله، ليس عندهم علم منزل من السماء، ولا شريعة موروثة عن نبي، ولا هم أيضا مشتغلين ببعض العلوم العقلية المحضة، كالطب والحساب، ونحوها(٤).

ويقوّي هذا المعنى حديث ميثاق الذر المشهور الوارد في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: (٤/ ٧١١).

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة: (٢/ ٥٢٢). وانظر: تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (١٠/ ٢١٣).

(٣) التفسير البسيط للواحدي: (٢٤/ ٥٧).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية: (١/ ٤٤٧).

﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢-١٧٣]، ولا أريد أن أدخل هنا في خلاف العلماء حول تفسير هذا الميثاق، لكن المتفق عليه أنَّ في الإنسان شيئا ليكن العقل أو الفطرة أو معنى آخر في الإنسان، شيء يرجح عنده جانب التوحيد، مهما كان حال هذا الإنسان؛ لأنَّ الله ساق الآيات دليلا على المشركين، ولا يصح الاستدلال بها ما لم يُقِر المشركون بوجود هذا الشيء، وإن كان الله تعهد بأن لا يعذب أحدا ما لم يرسل إليه رسولا، ولكن الهدف أنَّ الإنسان لا يخلوا من نداء يشجعه على التوحيد والخير، ويمكن أن يرجع إليه في حين من الزمن في الدنيا أو الآخرة، قبل التعذيب أو بعده. ومثل هذا في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٣٠].

ثم إنَّ الإيمان الاضطراري وارد في الدنيا على الكفار بأقل مما يحصل معهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٤]. قال الزجاج: فأمَّا لو أنْزَل على كل من عَنَدَ عن الحق عذابا في وقْت عُنُودِه لخضع مضطرًا، وآمن إيمان من لا يَجِدُ مَذهبا عن الإيمان[١]. وقال قتادة: لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون بها، فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية الله. وقال ابن جريج: معناه لو شاء الله لأراهم أمرا من أمره لا يعمل أحد منهم بعده معصية[٢].

إلا أنَّ الله لم يجعل هذا من سُنن الدنيا؛ لأنَّ الإيمان الاضطراري لا فضل فيه

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٤/ ٨٢).

(٢) تفسير البغوي: (٣/ ٤٦٢).

للمؤمن، وهذا يعني أنَّ الإيمان الاضطراري وارد في جهنم بكل معنى الكلمة، وبكل وضوح، ولا مفر منه، ولا يقال لا فضل فيه، فهم هنا لا يطلبون جزاء إيمانهم حتى لا يعذبوا؛ لأنَّهم قد عُذبوا وتمت عقوبتهم، فصاروا مؤمنين تم تكفير خطاياهم. وقد شهد الله بإيمان المضطر وأنَّه يكون مخلصا فيه في القرآن الكريم فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة يونس: ٢٢-٢٣]. إذًا الإيمان يمكن أن يدخل في قلوبهم، لكنه في الدنيا لا يثبت فيها!! وهذا المرض الخبيث هو ما تعالجه النيران، فإذا ما خلت قلوبهم من الخبث في دهر طويل من العذاب، خرجوا من جهنم صادقين مطهرين من خبث الشرك. وهذا ما قصده ابن القيم في كلامه السابق.

فالله سبحانه يغير أحوال الإنسان، فإن ثبت على كفره في حال ما، غير له سبحانه حاله إلى حال يمكن أن يؤمن فيه رحمة بالإنسان، فمنهم من يكفيه تغيير الحال في الدنيا فيتوب ويؤمن، ومنهم من يكون أشد فينتقل إلى حال الآخرة ليكون إيمانه بعد أحقاب من العذاب. وقد بين سبحانه أنَّهم لو عذبوا لآمنوا فقال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٠١].

وقد يقال: أين الرحمة بهم وقد عذبهم أحقابا؟

أقول: إنّ هذه الأحقاب تراها كثيرة نظرا إلى عمر الإنسان، والسنين المعروفة في الدنيا، أما لو قارنت هذه الأحقاب بما بعدها بعد النجاة سيصبح هذا العذاب كأنَّه صفر.

فلو فرضنا أنَّ الله عذبهم مليون سنة، فلو وزعناها على حياتهم الأبدية القادمة: ١٠٠٠٠٠٠ ÷ ما لانهاية = صفر، فمهما طال عذاب الإنسان لا يعد شيئا أبدا بالنسبة لما يستقبل من دهور لا تنتهي بعد هذا العذاب، وهكذا تغلب رحمة الله غضبه، ولو عذبهم أحقابا كثيرة، بل يكون غضبه صفرا مقارنة برحمة لا نهاية لها.

وأحب أن أضرب مثالا كيف أنَّ الله يغير حال المعاندين إذا ثبتوا على عنادهم رحمة بهم ليؤمنوا، وهذا المثال عن مكة المكرمة

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[سورة النحل: ١١٢].

قال مجاهد: يعني مكة[١]. ولا خلاف بين المفسرين على أنَّها مكة.

وقال تعالى في أهل مكة: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٠-٩٣].

وحسم سبحانه الأمر أنَّهم لن يؤمنوا، وعذاب المعاندين قانون لا يتخلف، فقال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [سورة الحجر: ١٣-١٥]. ثم أخبر الله رسوله أنَّ ساعة الصفر المدمرة قادمة على هؤلاء، فقال: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [سورة مريم: ٨٤].

---

(١) تفسير مجاهد: ٤٢٦.

فهل يظن بشر أنَّ هذه القرية بعد كل هذا العناد، وبعد كل هذا التهديد لن تدمر، ويتم استئصالها؟؟

والذي حصل أنَّ رحمة الله كانت أسرع من غضبه، فما حصل إلا جوع نزل بهم بدعاء الرسول ﷺ، وخوفتهم سراياه بعد الهجرة!! فكل تلك الآيات كانت مرحلية، بمعنى أنَّ هذه القرية التي هي مكة لن تؤمن يا محمد أبدا مهما فعلتَ **ما لم يتغير حالها**، إذًا رحمة بها لا نستأصلها وإنّما نغير حالها.

فأحيانا يكون الكلام حاسما تماما، ولكن المقصود أنَّه ضمن هذه الحدود هو حاسم، فكل الآيات تُفهم كما هي فيما لو بقيت حال مكة على هذا العناد، والله أخبرنا أنَّها باقية عليه!! إذًا سيحق عليها عذاب الاستئصال كغيرها، فقد قال إنّها سنة الأولين. وهنا تغلب رحمة الله غضبه، فنقل العرب لحال أخرى أقرب لهم إلى الإسلام، فصارت مكة عاصمة الإسلام بعد سنين قليلة جدا من هذه التهديدات، فعندما قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ ما كان القصد أن يقنطنا من دعوتهم!! وإنّما تشخيص حالتهم، وأنَّهم هكذا في هذه المرحلة، لذلك استمر الرسول بدعوتهم، وعندما تغير حال الدعوة من الضعف إلى التمكين في الأرض **تغير حالهم، فأسلموا بفتح مكة**. لا بد من التفكير السليم للوصول إلى نتائج سليمة.

آمن هؤلاء الذين ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ لقد علم الله سبحانه أنَّ فتح أبواب مكة لتقتحمها كتائب الرسول ﷺ أنفع لهؤلاء من فتح باب إلى السماء، يعرجون فيه ثم يرجعون أشد كفرا!! هذه طريقة التعامل مع الملأ الذين يتحكمون بالجمهور الضعيف، ولولا هذا النصر والتمكين في الأرض لكانت دعوة الرسول ﷺ كغيرها من الرسالات، قصة آلام له ولقلة

آمنت به، تنتهي بدمار قومه!! وقد أشار إلى هذا سبحانه في الآيات السابقة، وأخبر أنَّه لم يبق شيء بينهم وبين الدمار إلا أن تغلب رحمة الله غضبه، فكان ذلك فنعموا بالإسلام، وبالفوز في الآخرة.

وبتغيير الحال آمن قوم الرسول يونس عليه السلام كلهم برحمة الله، بعد أن يئس منهم رسولهم وتركهم مغاضبا، فالتقمه الحوت وآمن قومه!! ومثل هذا حصل لبني إسرائيل عندما عاندوا وأراد الله أن يرحمهم بدل أن يستأصلهم، فرفع فوقهم جبل الطور فآمنوا، اختار لهم رحمة ظاهرها خشن وباطنها أرق من النسيم، إذ أطاعوا من غير أن يتأذى أحد منهم. هكذا رحمة الله لها أشكال غير متوقعة، فطوبى لمن أغمض عينيه واثقا بربه، وبئست حياة من شك بربه عند كل كلمة.

وكفار الأمم أغلبيتهم الساحقة ما حصل لأنبيائهم تمكين، فكان حالهم أصعب، وليس غريبا أنَّ الحال الذي سيغيره سبحانه لهم هو في الآخرة، فتكون جهنم حالهم الجديدة، فيدخلونها بشركهم فيتغير حالهم فيؤمنون، فتكون رحمة الله قد غلبت غضبه، وتكون جهنم من خلال هذا المنظور دارا لرحمة الله!! إذ تكون سببا في تخليص أعتى المجرمين من كفرهم وخبثهم؛ ليتأهلوا بعدها لما يريد الله أن يفعل بهم، فلم يعد عليهم ذنب لم يعاقبوا عليه، وهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين. وقد ذكرت سابقا بأنَّ رحمة الله تحكم كل الأكوان التي خلقها الله، فهي تذييل للكتاب الذي كتب الله فيه مقادير كل الخلق، فقد ذكرت حديث الصحيحين سابقا وفيه: «لما خلق اللهُ الخَلقَ - كتب في كتابه، فهو عنده فوقَ العرش: إنَّ رَحْمَتي تَغْلبُ غضبي». فهذه القاعدة الكلية تحكم كل الخلق، ولا شك أنَّ جهنم ضمن هذا الخلق المحكوم برحمة الله، ولذلك لا يجوز أن يكون فيها تعذيب لا نهاية له!!. فسبحان الله ما أعدله وما أرحمه.

وقال ابن القيم: فإذا عذبوا في النار عذابا تخلص نفوسهم من ذلك الخبث والوسخ والدرن، كان ذلك من حكمة أحكم الحاكمين ورحمته[1].

إلا أنَّه قد يقال: نعم آمنوا، ولكن هذا الإيمان اضطراري لا يُقبل، فقد آمن فرعون عند الغرق ولم ينفعه إيمانه.

قبول إيمان المعذبين

ما معنى لا يُقبل الإيمان وقت الغرغرة، أو الاضطرار، أو خروج الشمس من مغربها أو ما شابه ذلك؟

ليس المقصود ظاهر الكلام؛ بل المقصود لازمه؛ بمعنى أنَّ الإنسان في دار التكليف والابتلاء مكلف بالإيمان الاختياري لينجو من عذاب جهنم، فلو آمن اضطراريا لا يكون له فضل في هذا الإيمان؛ لأنَّه فُرض عليه كونه صار معلوما بالضرورة، ومن قوانين الابتلاء في دار التكليف أنَّ الإنسان يحاسب على ما يختار فقط. فلو آمن الإنسان بوقت الاضطرار يكون أشبه بالإجبار كونه لا يستطيع دفع هذا الإيمان بإرادته، فيحصل الإيمان في قلبه بغير عزم منه عليه، وبالتالي لا يؤجر على هذا الإيمان، مع أنَّه يصْدق فيما ادعى والله أعلم بسريرته، ولكن لا ينفعه في النجاة من العذاب؛ لأنَّ العذاب ترتب على الأعمال التي عملها باختياره، وأما الإيمان فلم يكن باختياره. إذًا هو مؤمن معذب عقوبة على ما سبق قبل الإيمان.

والله سبحانه لم يَرُد إيمان فرعون، وإنّما الاعتراض كان على التوقيت، فعندما آمن قال له سبحانه: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة يونس: ٩١]، بمعنى لا ينفعك إيمانك في دفع العذاب طالما عصيت قبل

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: ٣٧٩.

هذا الإيمان الاضطراري. والله أعلم بمدى صدق فرعون في ادعائه هذا.

أما في الآخرة فيحصل هذا الإيمان الاضطراري بسبب معاينة أشياء تضطره للإيمان لكونه يشاهد كل شيء، أو يتعذب بجهنم، وكذلك هنا لا ينفعه إيمانه بالخروج من النار، وإنّما ينفعه بعد انقضاء مدة عقوبته، وقد صار مؤمنا صادقا. فالكفار صرحوا في جهنم بإيمانهم، وقد ذكر الله لنا هذا عنهم فقال: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [سورة الشعراء: ٩٤-٩٩]. وظاهر هذه الآية أنّهم كانوا صادقين؛ لأنَّ الحوار كان فيما بينهم ونقله الله سبحانه لنا. ومثل هذه الآية كثير، وفي آية أخرى بين سبحانه أنَّ الكفار في الآخرة يعلمون أنَّ الحق لله فقال: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص: ٧٥]. إلا أنَّه لا مفر من قضاء فترة العقوبة قبل النظر في إيمانهم.

وهناك من يقول: إنّ الله أوعد الكفار بالعذاب الدائم، وإيعاده حق.

إخلاف الوعيد مكرمة

يستدل أصحاب هذا القول على ضرورة إنفاذ الوعيد بقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [سورة ق: ١٢-١٤]. وبقوله تعالى لأهل النار: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [سورة ق: ٢٧-٢٩].

وهنا لا بد من تحديد الشيء الذي أوعدهم الله به، ولماذا؟

١- هل أوعدهم بالخلود في جهنم؟

ثبت فيما سبق أنَّ الله أوعدهم بذلك، ونفّذ وعيده، وبينا أنَّ الصحيح أنَّ هذا الوعيد بالخلود كان مرتبطا ببقاء النار، وقد فنيت مع انتهاء مدة عقوبتهم.

٢- هل أوعدهم بعدم فناء النار؟

لم يثبت أنَّ الله أوعدهم بذلك، وكل من قال بعدم فناء النار فلا يعدو عن كونه اجتهادا، وفهما للنصوص، وقد بينا أنَّ النصوص صحت بفناء النار، وبالتالي فناء النار ليس إخلافا للوعيد.

ومن جهة أخرى، فإنّ العلماء يُفرقون بين الإخلاف بالوعد، وهو بالخير عادة، وبين الإخلاف بالوعيد وهو عقوبة بالشر عادة. فيَمنعون الخُلف في الأول، بينما يعدّون إخلاف الوعيد رحمة ومكرمة وكمالا!! يليق بجلال الله.

ومن الأمثلة على ذلك ما أوعد الله به المنافقين في المدينة، فقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦٠-٦٢].

فكان تهديدا مرعبا حاسما إن لم يكف المنافقون عن نفاقهم، وينته الفجرة عن فجورهم وشرهم، فهددهم: بالقتل الشديد المؤكد ﴿تَقْتِيلًا﴾، والإخراج من المدنية، والغضب عليهم أينما حلوا وارتحلوا. وزاد التأكيد إلى درجة عالية بربطه بسنن الله التي لا تتخلف ولا تتبدل.

والصحيح أنَّ المنافقين لم ينتهوا عن نفاقهم، وأنَّ الله لم يُنفذ وعيده فيهم، فبقوا مع الرسول ﷺ في المدينة كما هو معلوم، ولم يقتلهم[١]. قال مكي بن

(١) حاول كثير من المفسرين صرف هذه الآية عن ظاهرها، لعلمهم بأنها من أدلة من يقول بفناء النار =

أبي طالب: وبقاء المنافقين مع النبي ﷺ في المدينة إلى أن توفي، يدل على أنَّ الله لم ينفذ الوعيد فيهم؛ لأنَّ من تمام وعيده فيهم قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهو مذهب أهل السنة. إذ المعروف من عادات الكرماء وأهل الفضل والشرف إتمام وعدهم، وتأخير إنفاذ وعيدهم بالعفو والمعروف بالإحسان، ولا أحد أكرم من الله ولا أبين فضلاً وشرفاً منه(١). وقال المهدوي: وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات. والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم(٢).

وقال ابن القيم: وأما الوعيد فمذهب أهل السنة كلهم أن إخلافه كرم وعفو وتجاوز، يُمدح الرب تبارك وتعالى به، ويُثنى عليه به؛ فإنّه حق له إن شاء تركه، وإن شاء استوفاه، والكريم لا يستوفي حقه فكيف بأكرم الأكرمين(٣).

وقال الرازي: إنّه تعالى في كثير من آيات الوعد صرح بأنَّ هذا وعد الله، وأنَّه لا يخلف وعده، ولم يذكر في آيات الوعيد ألبتة مثل هذا التأكيد والتقوية، وذلك يدل على أنَّ جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد، بخلاف ما يقوله

= وخروج الكفار، والأولى تركها على ظاهرها؛ فواقع السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي شاهد عليها، وذكرت سابقا أن مواجهة الواقع بمثل هذه التفسيرات الضعيفة لا يبطل الواقع، وإنما يبطل النصوص! ويشكك البعض بالدين!!؛ لأن الواقع لا يتزحزح من مكانه، إذ تراه العين، ويشمه الأنف، وتسمعه الأذن، وتلمسه الجوارح.

(١) الهداية الى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب: (٩/ ٥٨٧٢). وانظر: أحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٢٧٧). وتفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٩٥). وتفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (٣/ ٣٦٢).

(٢) تفسير القرطبي: (١٤/ ٢٤٨). وانظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي: (٨/ ٥٠٦). وتفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٣٩٩). وتفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل: (٢/ ١٥٩).

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: ٣٨٤.

المعتزلة، فإن قالوا: أليس أنَّه قال في جانب الوعيد: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة ق: ٢٩] قلنا: قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ ليس تصريحا بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين؛ أعني الوعد والوعيد، فثبت أنَّ الترجيح الذي ذكرناه حق. والله أعلم(١).

وقال أيضا: لأنَّ الوعد حق عليه، والوعيد حق له، ومن أسقط حق نفسه فقد أتى بالجود والكرم، ومن أسقط حق غيره فذلك هو اللؤم، فظهر الفرق بين الوعد والوعيد... وعندي جميع الوعيدات مشروطة بعدم العفو، فلا يلزم من تركه دخول الكذب في كلام الله تعالى(٢). وقال الأصمعي: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يُخلف الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد، فقال له: أمن العجم أنت؟ إنّ العرب تعُدّ الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما، أوما سمعت قول الشاعر:

لا يرهبُ ابن العمّ مني صطوتي ... ويأمن مني صطوة المتهدّد
فإنّي وإن أوْعدْته أو وَعدته ... لمُخلِف إيْعادي ومُنجز مَوعدي(٣)

قال الواحدي: والذي ذكره أبو عمرو بن العلاء –رحمه الله– مذهب الكرام، ويستحسن عند كل أحد خلف الوعيد كما قال السري الموصلي:

إذا وعَد السر أنجز وعده ... وإن أوْعد الشَّر فالعفو مانعه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: (٢٦/ ٤٣٩). وانظر: اللباب في علوم الكتاب لسراج الدين الدمشقي: (١٦/ ٤٩٦).

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: (٧/ ١٥٢).

(٣) تفسير ابن كثير: (٥/ ٤٣٩). وانظر: تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (٣/ ٢٣٤). وانظر: تفسير السمعاني (١/ ٤٦٤). وتفسير البغوي: (١/ ٦٧٩).

وأحسن يحيى بن معاذ في هذا الفصل حيث قال: الوعد والوعيد حق، فالوعد حق العباد على الله، ضَمِن لهم إذا فعلوا كذا أن يعطيهم كذا، ومَن أولى بالوفاء مِن الله؟ والوعيد حَقّه على العباد، قال: لا تفعلوا كذا فأعذبكم. ففعلوا، فإن شاء عفا وإن شاء أخذ؛ لأنَّه حقه، وأولاهما بربنا الكرم والعفو؛ إنّه غفور رحيم[1].

وعليه فأمْر ما أوعد الله به خاضع للمشيئة الإلهية والعفو والكرم، فإن شاء الله أنفذه، وإن شاء لم ينفذه كرما وعفوا، وهذا ليس من صفات النقص كما يفهم البعض، بل اتضح أنَّه من صفات الكمال التي يتسابق إليها الكرام، وربنا أكرم الأكرمين. وقد مر معنا قول ابن عباس: لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارا.

التلطف بأهل الجنة من مبررات انتهاء تعذيب الكفار

الله أعلم حيث يضع من عذبهم وإن آمنوا، وإن انتهت عقوبتهم، فهو الحكيم الخبير، الرحمن الرحيم، وما أقوله من باب التأملات والخواطر، والله يفعل في خلقه ما يشاء. إلا أنَّ إبعاد من انتهت عقوبته عن كل عذاب فيه تلطف بأهل الجنة، فهم أهلهم، والبشرية أسرة واحدة في النهاية.

ولله الأمر من قبل ومن بعد، يفعل ما يشاء في خلقه، ويمكن أن يرضي أهل الجنة بما شاء من العطاء والسعادة، بحيث لا يلتفتون إلى قريب أو بعيد، وإنّما نحن نتأمل في أحوال أهل الجنة، فإنّ الدين قدّر الأنساب، وأمر ببرِّها مهما كان دينها، وهذا كان تجاوبا من الدين مع نفس الإنسان التي اعتادت تكريم القرابات بشكل عام، ووصلها وحمايتها والتعاطف معها وحبها. قال تعالى:

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي: (٢/ ١٠١).

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ [سورة العنكبوت: ٨]، بل أمر ببرهما وإن أشركا وأمراه بالشرك فقال: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [سورة لقمان: ١٥]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [سورة النساء: ١]. وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [سورة التحريم: ٦].

ولفرط محبة إبراهيم عليه السلام الخير لأبيه دعا له قبل أن يعلم أنَّه مات ولم يُسلم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة التوبة: ١١٤]. ولما أخبر الله سبحانه إبراهيم أنَّه سيجعله إماما تذكر ذريته فورا فسأل عن حالها. قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤]. وهذا أمر طبيعي فقد خلق الله الناس مؤمنهم وكافرهم من نفس واحدة، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [سورة النساء: ١].

وهذا رسولنا محمد ﷺ يبكي على أمه المشركة بكاء أبكى فيه من حوله، إذ لم يأذن الله له بالاستغفار لها، وسمح له بزيارتها. عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسولُ الله ﷺ: استأذنتُ ربي أن استغفرَ لأمي، فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزورَ قبرها، فأذن لي. وفي رواية أبي داود والنسائي قال: أتى رسولُ الله ﷺ قبر أُمِّه، فبكى، وأبكى مَن حوله، فقال رسولُ الله ﷺ: استأذنتُ ربّي عز وجل أن أستغفرَ لها، فلم يأذن لي، فاستأذنتُه أن أزورَ قبرها، فأذن لي، فزوروا القبور(١).

---

(١) رواه مسلم: (٩٧٦) في الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، وأبو داود رقم (٣٢٣٤) في الجنائز، باب في زيارة القبور، والنسائي: ٤ / ٩٠ في الجنائز، باب زيارة قبر المشرك.

والمؤمنون في المدينة كانوا يقاتلون أهلهم المشركين في مكة إرضاء لله سبحانه، ولعلم الله أنَّ النفوس تنفر من هذا، وما فعلته إلا طاعة لأمر الله بسبب عداوة المشركين، طمّعهم سبحانه بجمع الشمل بإيمان أهل مكة ليفرحوا، فقال لهم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة الممتحنة: ٧].

وعلم الأنساب لا ينساه الناس في الآخرة، فيعرفون الأقارب والأرحام والأصدقاء

والنصوص التي نفت الأنساب يوم القيامة، المقصود منها قبل الاستقرار في الجنة بالاتفاق. قال تعالى مُحببا الجنة للمؤمنين بوجود الأقارب بشرط الإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [سورة الطور: ٢١]. وقد طمّعنا الله بجنته وجمع الأقارب الصالحين فيها فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ [سورة الرعد: ٢٣]. ولعلم الملائكة بجمال الجنة مع الأقارب كانت تدعو الله أن يجمع شمل المؤمنين في الجنة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة غافر: ٧-٨]. فالرحمة بالقرابات جبلت عليها النفوس وبخاصة أنَّ الله علَّم أهل الجنة عندما كانوا في الدنيا صلة الرحم، والاهتمام بالأقارب.

فها هو آدم عليه السلام يرى أنَّ ذريته تشتتت ما بين الجنة والنار، فيبكي على أهل النار من ذريته حنانا وشفقة من أب لأولاده، ففي حديث الرؤيا عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان أبو ذرٍّ يُحدّث أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:... فلما جئنا إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح، قال: من

هذا؟ قال: هذا جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد، قال: فأُرسل إليه؟ قال: نعم، ففتح، قال: فلما عَلَوْنا السماء الدنيا، فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدة، وعن يساره أَسْوِدة، قال: فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضَحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى، قال: فقال: مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح، قال: قلتُ: يا جبريل مَن هذا؟ قال: هذا آدم عليه السلام، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بَنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسوِدة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قِبَل يمينه ضَحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى[1].

وقد تأخر في الدنيا إيمان الظالمين، لكنهم عندما آمنوا تقبلهم المظلومون، مع أنَّ هؤلاء لم يأخذوا جزاءهم على جرائمهم، فتابوا وبدّل الله سيئاتهم حسنات، فكيف إذا كان الظالمون في الآخرة لم ينجوا بإجرامهم؟ بل تم تعذيبهم بأشد ألوان العذاب أحقابا!! وإذا كان قد صَلُح الحال بمجرد إسلام الظالمين، مع أنَّ الدنيا دار الغِلّ والحسد والحقد والثأر، فكيف سيكون الحال بعد أن نزع الله الغل من المؤمنين، وملأها خيرا لا شر فيه، فصار الأعداء إخوانا. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [سورة الحجر: ٤٧].

وإذا كان المعذبون الخارجون من النار لا يستحقون الخير، ألا يستحقه أهل الجنة؟ فيسعد آدم بانتهاء عذاب بنيه، ويسعد الأنبياء بأهلهم، فقد طهرتهم النيران من أدران الشرك وخبثه، وتمت تصفية الحسابات.

استغربت قول البعض بأنَّ أهل الجنة ينسون أقاربهم وأصدقاءهم، وينشغلون

---

(١) رواه البخاري: ١ / ٣٨٨ – ٣٩٢ في الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، وفي الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام. ومسلم رقم (١٦٣) في الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات وفرض الصلوات.

بالتنعم. أقول: إنّ الله يفعل ما يريد، ويمكن أن يُذهب حزنهم بحكمته، فيفعل لهم ما يعوضهم ويزيد في نعيمهم ولا يكون حزن ولا أسى، وما نحن إلا نتأمل ضمن حدود معارفنا من الشريعة.

قال ابن الملقن مخاطبا أهل النار:... وغضِب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، **ونسيكم أهل الجنة**، فامكثوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين[1].

وهذا غريب، إذ إنّه محض رأي ما عرفت عليه دليلا، بل هو مخالف للنصوص من الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [سورة الطور: ٢٥-٢٦]. فأهل الجنة يتذكرون أهلهم، وأحوالهم.

وهاهم أهل النار، مع أنَّ أدمغتم تغلي، وأجسادهم تشوى وتقطع إلا أنَّهم مع ذلك يتخاصمون ويتحاورون، ويتذكرون أناسا كانوا يرونهم في الدنيا من الأشرار صاروا في الجنة. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص: ٦٢-٦٤].

وكذلك يتذكر أهل الجنة من كانوا يعادونهم، وقد صاروا إلى النار. قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [سورة الصافات: ٥٠-٥٦].

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن: ١٩/ ٣٤٧.

بل هناك موقف بين إبراهيم وأبيه يوم القيامة جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ إبراهيم عليه السلام يرى أباه يومَ القيامةِ، عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ». وفي رواية: قال: «يَلْقى إبراهيم أباه آزرَ يوم القيامة وعلى وجهِ آزرَ قَتَرة وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا ربِّ، إنّك وعدتَني أن لا تخْزِيني يوم يُبْعَثون[1]، فأيُّ خِزْيٍ أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إنّي حرَّمتُ الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فنظر، فإذا هو بِذَيخ مُتَلطِّخ، فيؤخذ بقوائمه، فيُلْقى في النار[2].

فإبراهيم لم ينس أباه، بل يحاول أن يشفع له مع أنَّه مشرك. وعدّ إبراهيم عليه السلام دخول أبيه النار من الخزي الذي يَسأل المولى أن يرفعه عنه. ولا شك أنَّ هذا الشعور عند كثيرين ممن في الجنة. ولكن للكرماني هنا تفسير في أنَّ الله رفع الخزي عن إبراهيم بتحويل أبيه إلى ضبع، فقال: فإن قلت: إذا أدخل الله أباه النار فقد أخزاه، لقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٢] وخزي الوالد خزي الولد، فيلزم الخُلف في الوعد وهو محال، ولو لم يدخل النار لزم الخُلف في الوعيد، وهو المراد بقوله: إنّ الله حرم الجنة على الكافرين. والجواب إنّه إذا مُسخ في صورة ضبع، وألقي في النار، لم تبق الصورة التي هي سبب الخزي[3].

---

(١) يقصد قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٦، ٨٧].

(٢) رواه البخاري: ٦ / ٢٧٦ في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وفي تفسير سورة الشعراء، باب ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]. والذيخ: ذكر الضبع.

(٣) فتح الباري لابن حجر: (٨/ ٥٠١).

وهذا الحلّ من الكرماني غريب؛ بل يمكن أن يقال: هكذا تم خزي إبراهيم مرتين، الأولى: بجعل أبيه حيوانا، بل حيوانا مبغوضا. والثانية: بحمله من قوائمه كالحيوانات إلى النار!!

والحل برأيي: إنّ إبراهيم عليه السلام طلب يوم القيامة عدم تعذيب والده، ولم يكن هذا الطلب من حقه؛ لأنَّ الشرك إساءة لرب العالمين، وتعذيب الجاني حق لله سبحانه، وليس لإبراهيم أن يطلب العفو عن أبيه إذا تمسك صاحب الحق بحقه. وإبراهيم لا يكره العدل، وقد أخبر الله إبراهيم بأنَّ أباه لا يمكن أن يدخل الجنة في حال إشراكه، وأما دعاء إبراهيم لله بأن لا يخزيه يوم يبعثون، فمعلوم بأنَّ هناك أدعية تتعارض مع أمر الله وقضائه، وتلك الأدعية يستجيبها الله بإبدال الداعي شيئا آخر لا يتعارض مع أمر الله. ولا شك أنَّ الله سيعوض إبراهيم عليه السلام.

والأحسن من ذلك كله أن يُقال: إنّ الله يعذب آزر على شركه، فلا تبقي جهنم من خبث شركه شيئا، وستنتهي عقوبته، فيخرج من جهنم وقد ترك فيها خبث الكفر والشرك الذي كان يحمله، وهكذا يتم القصاص على كفر آزر، وينتهي عذابه كما ينتهي خزي إبراهيم عليه السلام.

رحمة الله غلبت غضبه

فقد ذكرت سابقا بأنَّ للغضب نهاية، والرحمة من لوازم ذات الله لا نهاية لها، ويقتضي ذلك انتهاء العذاب، وعدم استمراره ليبقى ببقاء الله سبحانه، وقد بينت هذا في ركائز العقيدة في مطلع هذا الكتاب، والله أدرى بمواطن رحمته، فهو أعلم بمن خلق، ومن يستحقها ومن لا يستحقها، وأما البشر فلجهلهم بأسرار حُكم الله قد يرون بسوء فهمهم الرحمة ظلما، والظلم رحمة، وما نقوله هنا مجرد خواطر وتأملات فيما علمنا ضمن حدود الشريعة، وعلم الله هو الأوسع وحكمه هو الأعدل.

فالذي فهمناه أنَّ المعذبين تركوا شركهم داخل جهنم وعرفوا حق الله وجلاله، وانتهت عقوبتهم، ولم يعملوا لله عملا في دنياهم، فلو أراد الله ألا يدخلهم الجنة، فلا شك أنَّهم لا يستحقونها بعملهم، وأما أن يعذبهم مرة أخرى فغير وارد بعد انتهاء عقوبتهم، وليس لله نفع بعذابهم فقد قال: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٤٧].

وعن أبي هريرة قال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: إنَّ الله خَلق الرَّحمة يومَ خلَقَها مائة رحمةٍ، فأمسَك عندهُ تسعة وتسعينَ رحمة، وأرسلَ في خَلقِه كلِّهم رحمة واحدة، فَلو يَعلمُ الكافرُ بكلّ الذي عند اللهِ من الرحمة لم يَيْأسْ مِن الجنة، ولو يعلم المُؤمن بكل الذي عندَ اللهِ من العذابِ لم يأمَن من النار(١).

وقد ذكر ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مرارا أنَّ النار تُخرج خبث الكفار وشركهم، وتنتهي عقوبتهم وتفنى نارهم، وقد اقتبست فيما سبق الكثير من أقوالهما، إلا أنَّهما لم يُصرّحا بدخول أهل النار بعد انقضاء عقوبتهم الجنة، وآثرا الوقوف عند هذه النقطة تحديدا، فلهذه النقطة من الرهبة والهيبة ما يُزلزل القلب، فتشرد الفكرة، ويتلعثم اللسان، ويجف المداد، ويتوقف القلم، إجلالا لأمر الله، وانتظارا لحُكمه العادل في خلقه، فهو أولى من يحكم بين عباده، وهو اللطيف الخبير بهم، وما أسعد من كان الله الرحمن الرحيم هو الحاكم في أمره.

قال ابن القيّم رحمه الله:

فإن قيل: فإلى أين انتهى قدَمُكم في هذه المسألة العظيمة الشأن، التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة؟

(١) رواه البخاري: ١٠ / ٣٦٢ في الأدب، باب جعل الله الرحمة في مائة جزء، وفي الرقاق، باب الرجاء مع الخوف.

قيل: إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود: ١٠٧]، وإلى هنا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- فيها، حيث ذكر دخول أهل الجنّةِ الجنة، وأهل النارِ النار، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء، وقال: ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء. بل وإلى هاهنا انتهت أقدام الخلائق[١].

فإذا كان هؤلاء العظماء قد حطوا رحالهم عند هذه النقطة، فأنَّى لي أن أتجاوزها!! بل أنتهي حيث انتهوا، حذو القذة بالقذة، سائلا العفو منه سبحانه إن تجاوزت قدري، فما ذلك إلا حبا في دفع الشُّبَه عن دينه، مع كامل ثقتي بعدله، وحكمته سبحانه، ما علمت منها وما لم أعلم.

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم: ٣٨٧.

المحور الثالث

إشكال يأجوج ومأجوج وأثره على العدالة الإلهية

يئس الصحابة من النجاة في الآخرة بعد أن رأوا أنّ نسبة الناجين واحد من كل ألف، حَلّ الرسول ﷺ هذا الإشكال بتبيينه أنَّ الأغلبية الساحقة في بعث النار من يأجوج ومأجوج، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال النبيُّ ﷺ: يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبَّيك وسعديك والخيرُ في يديك، فيُنادَى بصوت: إنّ الله يأمركَ أن تُخْرِج من ذريتك بَعْثاً إلى النار. قال: يا رب، وما بَعثُ النار؟ قال: من كل ألف تسعُمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تَضعُ الحامل حملَها، ويشيبُ الوليدُ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [سورة الحج: ٢] فشقَّ ذلك على الناس حتى تغيَّرت وجوههم.

زاد بعضُ الرواة: قالوا: يا رسول الله، أيُّنا ذلك الرجل؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «مِن يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد - ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود»(١).

إلا أنَّ هذا الكلام وإن كان مريحا للبشر، بحيث إنَّهم يدخلون الجنة بكميات

---

(١) رواه البخاري: ٨ / ٣٣٥ في تفسير سورة الحج، باب قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢]، وفي الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، وفي الرقاق، باب قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. ومسلم رقم (٢٢٢) في الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من ألف تسعمائة وتسعة وتسعين.

كبيرة جدا، إلا أنَّه في نفس الوقت يُثير إشكالا جديدا، وهو: أليس يأجوج ومأجوج من خلق الله؟ لماذا يدخلون جهنم كلهم؟!! أين معالم رحمة الله بما يخص يأجوج ومأجوج؟

وأنا لا أزعم أنَّني أعرف الإجابة الشافية عن هذه الأسئلة، وليس بالضرورة أن نعرفها!! فنحن على ثقة بربنا وبعدله، وأنَّه أرحم الراحمين، فنعلم أنَّه رحيم جدا، وإن خفيت علينا معالم رحمته أحيانا، فما أوتينا من العلم إلا قليلا، وما علمناه عن ربنا يكفينا لنعلم عدله ورحمته فيما لم نعلمه.

إلا أنَّ هذا لا يمنع من محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة، ضمن حدود فهمنا للشريعة، من غير أن نتجاوز قدرنا وحدّنا الذي ينبغي أن نقف عنده، محاولة منا لإظهار ما يمكن إظهاره من رحمة الله وعدله، لنذبّ عن ديننا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

التعريف بيأجوج ومأجوج

١ ـ يأجوج ومأجوج في اللغة

قال الأخفش: مَن همَز يأجوج ومأجوج، ويجعل الألف من الأصل يقول: يأجوج: يفعول، ومأجوج: مفعول، كأنَّه من أجيج النار[١]. ويأجُوج ومأجُوج: قبيلتان مِن خَلْق اللهِ، وهما اسْمَان أعجميان، واشتقاقُ مثلهما مِنْ كلام العرب يَخْرُجُ مِن أجَّتِ النارُ، وَمِن الماءِ الأُجاج، وهو الشَّديدُ الملوحة[٢].

وقال أبو إسحاق: هما قبيلتان من خَلق الله، جاءت القراءةُ فيهما بهمزٍ وبِغير همز. وهما اسمان أعْجَميان[٣]. قال الزبيدي: وآجُوجُ ويَمْجُوجُ: لُغتانِ في يأْجوجَ ومأْجوجَ[٤].

٢ ـ يأجوج ومأجوج في الشريعة

تتفق المصادر الشرعية ومفسروها من العلماء على أنَّ يأجوج ومأجوج قبيلتان همجيتان، ليستا كنسل آدم -عليه السلام- المعهود، فالمواصفات التي وردت في الكتاب والسنة، وأقوال السلف والعلماء تكاد تنسجم وتتوافق على صفات خاصة بيأجوج ومأجوج، ليست كالمعهود مما عرفناه عن البشر!! فأوصافهم من حيث التكوين والطباع أقرب إلى التوحش والهمجية والشراسة والعنف منها إلى الإنسان المدني بطبعه، العاقل المدرك لعواقب الأمور، فهناك إجماع من كل المصادر والأقوال على أنَّهم أمّة هدم وفساد وشر مستطير، لا

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري الفارابي: (١/ ٢٩٨).

(٢) لسان العرب لابن منظور: (٢/ ٢٠٧).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري: (١١/ ١٥٩). وانظر: تاج العروس للزبيدي: (٥/ ٤٠٠).

(٤) تاج العروس للزبيدي: (٦/ ٢٠٢).

قبل لبشر بهم حتى الرسول عيسى -عليه السلام- المعاصر لهم!! وأن لا سبيل للتفاهم معهم والحوار، لذلك لم يفكر به ذو القرنين عندما سمع شكوى الأقوام من جيرانهم عنهم، وإنّما مباشرة أمر بردمٍ بينهم وبين الناس، وقد بارك سبحانه هذا الردم، وتم اعتماده وتقويته والمنعةً دونه في قدر الله سبحانه كما سنرى قريبا.

وقد جعلهم الله سبحانه وتعالى علامة من علامات الساعة الكبرى، إذ يأذن بزوال ردمِهم لينساحوا في الأرض كالسيل، فيعم شرهم كل حَدب وصوب: قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [سورة الكهف: ٩٤-٩٧].

وبيّن سبحانه أنَّ دَور يأجوج ومأجوج على مسرح الابتلاء في هذا الكوكب سيكون في آخر الزمان، علامة من علامات الساعة الكبرى، عندها سيأذن سبحانه بدكّ ردم ذي القرنين، قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[سورة الكهف: ٩٨]. ليؤدي يأجوج ومأجوج دورهم المعلوم في آخر حلقات ابتلاء بني البشر، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٦-٩٧].

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري - رضي الله عنه - قال: اطَّلَعَ رسولُ الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قلنا: نذكر الساعةَ قال: إنّها لن تقومَ

حتى تَرَوا قبلها عَشْرَ آيات، فذكر الدُّخانَ، والدجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطلوعَ الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خسوف: خسْف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخِر ذلك نار تطْرُد الناس إلى محْشَرهم[1].

وقد تعرض السلف والعلماء لنَسَب يأجوج ومأجوج، ولكثرة تعدادهم، كما عَرّفوا بالفساد المذكور في الآية الكريمة بأوصاف لا تعدو عن وصف يأجوج ومأجوج بالتوحش والهمجية والعدوانية، وعدم القابلية للخير، وتكلموا كذلك عن دينهم.

أ ـ نسب يأجوج ومأجوج وكثرتهم وأحوالهم

يظهر من مجموع الروايات وأقوال العلماء أنَّ يأجوج ومأجوج من ولد آدم عليه السلام، ويزيد تعدادهم على تعداد البشر بأضعاف كثيرة، وأنَّهم ليسوا على أشكال بني آدم المعهودة، فبعضهم أشبه بالحيوانات، وبعضهم شديد القِصر، وآخر شديد الطول، وأنَّ الواحد منهم لا يموت قبل أن يرى ألفا من نسله. والزواج عندهم بلا نصاب.

قال ابن حجر: قال قتادة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٦]: من كل أكمة، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من ولد يافث بن نوح. روى ابن مردويه والحاكم من حديث حذيفة مرفوعا: يأجوج أمة ومأجوج أمة، كل أمة أربعمائة ألف رجل، لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف رجل من صلبه، كلهم قد حمل السلاح، لا يمرون

---

(١) رواه مسلم: رقم (٢٩٠١) في الفتن، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال، وأبو داود رقم (٤٣١١) في الملاحم، باب أمارات الساعة، والترمذي رقم (٢١٨٤) في الفتن، باب ما جاء في الخسف.

على شيء إذا خرجوا إلا أكلوه، ويأكلون من مات منهم... والغرض منه هنا ذكر يأجوج ومأجوج، والإشارة إلى كثرتهم، وأنَّ هذه الأمة بالنسبة إليهم نحو عُشر عشر العشر، وأنَّهم من ذرية آدم ردا على من قال خلاف ذلك[1].

وقد مر ذكر كثرتهم في الآية، وأنَّهم من كل حدب ينسلون، وعَن عبدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما فذكر حَديثًا مرفوعا، قال: ثمَّ أنْشأ رسول الله ﷺ يحدّثنا: أنَّ يَأجُوجَ ومأجُوجَ مِن وَلَدِ آدَمَ، وأنَّهم لو أرسلوا على الناس لأفسدوا معايشهم، ولن يموت منهم أحد إلا ترك مِن ذرّيته ألفًا فَصاعدًا، وإنَّ مِنْ ورائهم ثلاث أمم: تأويل، وتاريس، ومنسك[2].

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (٦/ ٣٨٦). و في تحفة الأحوذي (٦/ ٣٥١): وأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن عبد الله بن سلام مثله وأخرج بن أبي حاتم من طريق عبد الله بن عمرو قال الجن والإنس عشرة أجزاء فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج وجزء سائر الناس.

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن: (٢/ ٥٩٥: ١٦٥٦)، عن محمَّد بن جعفر، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٩٠) من طريق عاصم بن علي، كلاهما عن شعبة. وقال الحاكم: قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وفي حاشية تحقيق الباحثين للمطالب العالية لابن حجر: هذا إسناد صحيح، رواته ثقات، ولا يضر اختلاط أبي إسحاق السبيعي؛ لأن الذين رووا عنه هذا الوجه هم من القدماء الذين سمعوا منه قبل اختلاطه مثل سفيان الثوري، وشعبة، وغيرهما، ولا يضر تدليسه أيضًا؛ لأنه صرح بالسماع بينه وبين وهب بن جابر، كما تقدم ذلك في حديث شعبة عنه، وقد تقدم ذكره في «الفتن» لنعيم بن حماد وفي «المستدرك» للحاكم، ثم إن شعبة إذا روى عنه فهي مقبولة ولو كانت بالعنعنة؛ لأنه كفانا تدليسه. الوجه الثاني: رواه المغيرة بن مسلم، عن أبي إسْحَاقَ، عَنْ وَهْبِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه مرفوعًا. أخرجه الطبراني كما في «النهاية في الفتن والملاحم» (ص ١٠٣)، من طريق أبي داود الطيالسي عن المغيرة بن مسلم، به، ورواه عبد بن حميد في التفسير، وابن المنذر وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور كما في كنز العمال (١٤/ ٣٤١)، ولفظه مثل لفظ حديث الباب. وفيه أبو إسحاق السبيعي وهو مختلط ومدلس، والراوي عنه المغيرة بن مسلم لم ينص أحد أنه سمع عنه قبل اختلاطه، ولم يصرّح أبو إسحاق فيه بالسماع بينه وبين وهب بن جابر الخيواني، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٦)، وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله ثقات». وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ١٩٦): =

قال ابن حجر: وجاء في صفتهم ما أخرجه ابن عدي وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط، وابن مردويه من حديث حذيفة رفعه قال: يأجوج أمة ومأجوج أمة، كل أمة أربعمائة ألف، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذَكَر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح، وهو من رواية يحيى بن سعيد العطار

= «هذا حديث غريب بل منكر ضعيف». وقال في «النهاية في الفتن والملاحم» (ص ١٠٣): وهذا حديث غريب، وقد يكون من كلام عبد الله بن عمرو، والله أعلم. ويؤيده ما تقدم من الوجه الأول، وقد رواه جماعة ثقات، ومنهم القدماء الذين رووا عنه قبل اختلاطه. الوجه الثالث: رواه معمر، عن أبي إسحاق السبيعي، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما موقوفًا عليه، أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/ ٨٩)، من طريق معمر، به. الوجه الرابع: رواه زيد بن أبي أنيسة عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم لصلبه ألفا من الذرية، وإن من ورائهم أممًا ثلاثة: منسك وتأويل، وتاريس، لا يعلم عددهم إلَّا الله». أخرجه ابن حبّان كما في الإحسان (١٥/ ٢٤٠: ٦٨٢٨)، من طريق زيد بن أبي أنيسة عنه، به. ويتبين من دراسة هذه الأوجه أن الوجه الأول منها هو الراجح، وذلك لأسباب التالية: ١- إن الوجه الأول يرويه جماعة ثقات، ومنهم القدماء الذين رووا عن أبي إسحاق قبل اختلاطه، مثل شعبة وسفيان الثوري، بخلاف الأوجه الأخرى فقد تفرّد في كل وجه منها راوٍ واحد، ولم ينص على أن هؤلاء رووا عن أبي إسحاق قبل اختلاطه. ٢ - إن أبا إسحاق مدلس من المرتبة الثالثة، وقد جاء التصريح بالسماع بينه وبين وهب بن جابر في الوجه الأول كما تقدم في رواية شعبة عنه، بخلاف الأوجه الأخرى فإنه رواها عن وهب بن جابر بالعنعنة، وعليه فإن الوجه الأول صحيح، والأوجه الأخرى ضعيفة. فالخلاصة: أن حديث الباب صحيح موقوفًا على عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عَنْهُ، وله حكم الرفع؛ لأنه من الأمور الغيبية التي لا يقال فيها بالرأي، والله أعلم. ولقوله: (إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم) شاهد من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة: يا آدم! يقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: اخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، قالوا: وأينا ذلك الواحد؟ قال: ابشروا، فإن منكم رجلًا ومن يأجوج ومأجوج ألف، ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة،... الحديث. أخرجه البخاري في صحيحه كما في الفتح (٦/ ٤٤٠: ٣٣٤٨)، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج.

عن محمد بن إسحاق عن الأعمش، والعطار ضعيف جدا، ومحمد بن إسحاق قال ابن عدي: ليس هو صاحب المغازي بل هو العكاشي قال: والحديث موضوع، وقال بن أبي حاتم: منكر. قلت: لكن لبعضه شاهد صحيح أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود رفعه: إنّ يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم لصلبه ألفا من الذرية. وللنسائي من رواية عمرو بن أوس عن أبيه رفعه: إنّ يأجوج ومأجوج يجامعون ما شاءوا، ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا... ووقع في فتاوى الشيخ محيي الدين يأجوج ومأجوج من أولاد آدم لا من حواء عند جماهير العلماء فيكونون إخواننا لأب. كذا قال. ولم نر هذا عن أحد من السلف إلا عن كعب الأحبار ويرده الحديث المرفوع أنَّهم من ذرية نوح، ونوح من ذرية حواء قطعا[1].

"وعن عطية بن حسان: إنّهم أمتان، في كل أمة أربعمائة ألف أمة ليس فيها أمة تشبه الأخرى، وذكر القرطبي مرفوعا: يأجوج أمة لها أربعمائة أمير، وكذلك مأجوج صنف منهم طوله مائة وعشرون ذراعا، ويروى: أنَّهم يأكلون جميع حشرات الأرض من الحيات والعقارب وكل ذي روح من الطير وغيره، وليس لله خلق ينمو نماءهم في العام الواحد يتداعون تداعي الحمام ويعوون عواء الكلاب، ومنهم من له قرن وذنب وأنياب بارزة يأكلون اللحم النيئ. وقال ابن عبد البر في (كتاب الأمم): هم أمة لا يقدر أحد على استقصاء ذكرهم لكثرتهم، وهم أربعون أمة مختلو الخلق والقدود، في كل أمة ملك

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (١٣/ ١٠٦). وانظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (١٥/ ٢٣٢). ومنحة الباري بشرح صحيح البخاري لأبي يحيى السنيكي: (٦/ ٤٢٦). و البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد الولوي: (٥/ ٥٦٧). وتفسير القرطبي: (٧/ ٢٣٣).

ولغة، ومنهم من مشيه وثب، وبعضهم يُغير على بعض، ومنهم من لا يتكلم إلا همهمة، ومنهم مشوهون، وفيهم شدة وبأس... وذكر أبو نعيم أنَّ صنفا منهم أربعة أذرع عرضا يأكلون مشائم نسائهم. وعن علي رضي الله تعالى عنه: صنف منهم في طول شبر له مخالب وأنياب السباع، وتداعي الحمام، وعواء الذئب، وشعور تقيهم الحر والبرد، وآذان عظام، أحدهما فروة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها، وفي (التذكرة): وصنف منهم كالأرز طولهم مائة وعشرون ذراعا، وصنف منهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، ويأكلون من مات منهم"[١].

وقال ابن مالك: ويأجوج ومأجوج: هما قبيلتان من أولاد يافث بن نوح، وهم تسع أعشار بني آدم؛ لأنَّه لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صُلْبه يحملون السلاح[٢]. وفي بعض الروايات: لهم مناقير ينقرون فيها السدّ: فعن كَعْب أنَّه قال: إنّ يأجوج ومأجوج ينقرون بمناقيرهم السد، حتى إذا كادوا أن يخرقوه قالوا: نرجع إليه غدا فنفرغ منه، قال: فيرجعون إليه وقد عاد كما كان، **فإذا بلغ الأمر** ألقي على بعض ألسنتهم أن يقولوا: نرجع إن شاء الله غدا فنفرغ منه، قال: فيرجعون إليه وهو كما تركوه فيخرقونه[٣].

وقال القرطبي: ذكر الغزنوي في كتابه المسمى بعيون المعاني: أنَّ النبي ﷺ قال: يأجوج أمة لها أربعمائة أمير، وكذلك مأجوج، لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده. صنف منهم كالأرز طولهم مائة وعشرون

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني: (١٥/ ٢٣٢-٢٣٣). وانظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٣٥١).

(٢) شرح المصابيح لابن الملك: (٥/ ٥٥٥). وذكر الواحدي عددهم هذا عن ابن عباس: التفسير الوسيط للواحدي: ٣/ ١٦٧.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني: (٦/ ٢٣). وانظر: فتح الباري لابن حجر: (١٣/ ١٠٩).

ذراعا، وصنف يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل ولا خنزير إلا أكلوه، ويأكلون من مات منهم. مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق، وبحيرة طبرية، فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس. وقال علي - رضي الله عنه -: وصنف منهم في طول شبر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعي الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئب، وشعور تقيهم الحر والبرد، وآذان عظام، إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها، يحفرون السد حتى كادوا ينقبونه، فيعيده الله كما كان، حتى يقولوا: ننقبه غدا - إن شاء الله - فينقبون ويخرجون(١).

وفي مجمع الزوائد عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ [سورة المزمل: ١٧] قَالَ: « ذلك يوم القيامة، وذلك يوم يقول الله - عز وجل - لآدم: قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار، فقال: مِن كم يا رب؟ قال: من ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وينجو واحد. فشق ذلك على المسلمين، وعرف ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم، ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أبصر ذلك في وجوههم: إنّ بني آدم كثير، ويأجوج ومأجوج من ولد آدم، وإنّه لا يموت منهم رجل حتى يرثه لصلبه ألف رجل، ففيهم وفي أشباههم جُنّة لكم»(٢).

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي: (٧/ ٢٠٧).

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي: (٧/ ٧٠). وقال الهيثمي: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَفِيهِ عُثْمَانُ بْنُ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيُّ وَهُوَ مَتْرُوكٌ وَضَعَّفَهُ الْجُمْهُورُ وَاسْتَحْسَنَ أَبُو حَاتِمٍ حَدِيثَهُ. وفي مجمع الزوائد أيضا: (٨/ ٦):عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ، [وَ] لَوْ أُرْسِلُوا لَأَفْسَدُوا عَلَى النَّاسِ مَعَايِشَهُمْ، وَلَنْ يَمُوتَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا تَرَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَلْفًا فَصَاعِدًا، وَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ ثَلَاثَ أُمَمٍ: تَاوِيلُ، وَتَارِيسُ، وَمَنْسَكُ». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ.

وقال ابن حجر: وأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن عبد الله بن سلام، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن عمرو قال: الجن والإنس عشرة أجزاء؛ فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج، وجزء سائر الناس[1]. وروى الطبري عن ابن عباس قال: كان أبو سعيد الخدري يقول: إنّ نبي الله ﷺ قال: لا يموت رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل[2]. وعن ابن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعون ما شاءوا، وشجر يلقحون ما شاءوا، فلا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا[3].

وهذه الروايات وإن لم تكن كلها صحيحة، إلا أنَّها غير متناقضة مع القرآن وما صح من السنة، بل متعاضدة، ونخلص من هذه الروايات إلى أنَّ يأجوج ومأجوج من نسل آدم عليه السلام، ولكنهم نسل مشوه، لا يشبهوننا شكلا، ولا مضمونا، فهم إلى الحيوانات أقرب، إذ يلاحظ عليهم ملاحظات كثيرة أهمها:

١-التوالد غير الطبيعي في الكثرة، بحيث فاقوا كل الحيوانات الناطقة وغير الناطقة، وتشابهوا مع بعض الحشرات.

٢-أشكالهم ليست سواء، كأنَّهم عالم مختلف عن عالمنا لهم أشكالهم ولغاتهم.

٣-الشر والفساد متأصل في تكوينهم، ولا أمل في خير من جهتهم.

٤-من الجانب النفسي عدوانيون بطريقة خيالية، أشرار همجيون.

٥-من الجانب العقلي هم أقرب إلى عقول الحيوانات المتوحشة.

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (١٣/ ١٠٧). و(٦/ ٣٨٦).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٥/ ٤٠٠).

(٣) السنن الكبرى للنسائي: (١٠/ ١٨٦).

ب – فساد يأجوج ومأجوج في الأرض

هناك إجماع من كافة المصادر: من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال السلف والعلماء وكتب التاريخ، على أنَّ يأجوج ومأجوج أمة همجية متوحشة عدوانية شرسة، لا تحمل غير الفساد والشّر لبني البشر. وأنَّهم يشكلون في آخر الزمان بلاء عظيما للبشرية، وشرا مستطيرا.

ففي حديث النواس بن سمعان – رضي الله عنه –، بعد أن قتل المسيح عيسى ابن مريم الدجال قال: قال رسول الله ﷺ: فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: إنّي قد أخرجت عباداً لي، لا يَدانِ لأحد بقتالهم، فَحرِّزْ عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حَدَب يَنْسِلون، فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طَبَرِيَّة، فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرَّةً ماء، ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه، حتى يكون رأسُ الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار، فيَرغبُ نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه، فيُرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى[1]، كموت نَفْس واحدة، ثم يهبط نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضِعَ شِبْر إلا ملأهُ زَهَمُهم[2] ونَتْنُهم، فيرغَبُ نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْتِ، فتحملهم فتطرحهم حيثما شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه بَيْتُ مَدَر ولا وَبَر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفة[3]. وفي رواية نحوه، وزاد بعد قوله: «لقد كان بهذه مرة ماء»: ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل

---

(١) فرسى: أَي قَتْلَى. غريب الحديث لابن قتيبة: (١/ ٢٨٢).

(٢) الزُّهْمَةُ بِالضَّمِّ: الرِّيحُ المُنْتِنَة، أرادَ أَنَّ الْأَرْضَ تُنْتِن مِنْ جيفهم. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: (٢/ ٣٢٣).

(٣) الزَّلَفَةُ بالتَّحريك، وجمعُها زُلَفٌ: مَصانِعُ الماء. أراد أَنَّ المطَر يُغْدِّرُ فِي الأرض فتَصِير كأنها مَصْنَعة مِنْ مصانِع الماء. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: (٢/ ٣٠٩).

الخمر - وهو جبل بيت المقدس - فيقولون: لقد قَتَلنا مَن في الأرض، هَلُمَّ فلنقتل مَن في السماء، فيرمون بِنُشَّابهم إلى السماء، فيردُّ الله عليهم نُشَّابَهم مخضوبة دَماً[1].

روى الطبري عن سعيد بن عبد العزيز: في قوله ﴿إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الكهف: ٩٤] قال: كانوا يأكلون الناس[2]. وقال يحيى بن سلام: يعني: قاتِلين النَّاسَ في الأرض[3]. وعن حبيب الأرجاني قال: كان فسادهم أنَّهم كانوا يأكلون الناس[4]. قال الواحدي: فسادهم بالنَّهب والبغي[5]. وقال القرطبي: قالت فرقة: إفسادهم هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، والله أعلم[6]. وقال أبو عبد الله الحميدي: وقيل: إنّ إفسادها كان أكلها للناس، وافتراسها للدواب والوحوش كما تفترس السباع[7].

يتضح مما سبق أنَّ الشر أصيل في نفسية يأجوج ومأجوج، ولا ملحظ لخير فيها، كما أنَّها فيها من الشراسة والعدوانية ما لا يكون عادة من صفات البشر.

ج - دِين يأجوج ومأجوج

الظاهر أنَّ يأجوج ومأجوج أمّتان غير مؤمنتين[8] للأسباب الآتية:

(١) رواه مسلم: رقم (٢٩٣٧) في الفتن، باب ذكر الدجال وصفته وما معه.

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان: (١٨/ ١٠٤).

(٣) تفسير يحيى بن سلام: (١/ ٢٠٤). وانظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (٣/ ٨١).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم: (٧/ ٢٣٨٨).

(٥) الوجيز للواحدي: ٦٧٢.

(٦) تفسير القرطبي: (١١/ ٥٦).

(٧) تحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمآل لعقيل بن عطية وأبو عبد الله الحميدي: (٢/ ٦٢٠).

(٨) نُطلق الآن على يأجوج ومأجوج كلمة: غير مؤمنين، أو كفار، وهذا يكون لو عددناهم من المكلفين، ولكن سيتضح رأيي في النهاية بأنهم غير مكلفين، وبالتالي لا يوصفون بإيمان أو كفر.

١- جعلهم الرسول ﷺ في عداد بعث النار الوارد في أول الكتاب، وكان الفرز في هذا البعث -كما أسلفت- على مَن ظاهره الكفر بالله، بغض النظر هل سيعذَّب في نهاية الأمر أم لا؟

٢- الفساد الذي يمارسونه ضد البشرية، واختفاء أي معالم للخير في نفوسهم لا يمكن أن يكون من نفس مؤمنة، أو نفس على الفطرة، بل هي نفس في أقصى درجات الشر والفساد والتشوّه النفسي، فهو الفساد الأكبر الذي لا يكون مع الإيمان.

٣- تحديهم لأهل السماء ومحاولة قتلهم؛ وهذا لا يفعله مؤمن بتاتا.

٤- كونهم في الصف المُعادي لرسول الله عيسى عليه السلام إبّان خروجهم في آخر الزمان.

٥- وإلى حد ما يمكن الاستدلال على عدم إيمانهم بحديث الرسول ﷺ عن خروج يأجوج ومأجوج: فعن زينب بنت جحش - رضي الله عنها -: أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليها فَزِعاً يقول: لا إله إلا الله، ويَلٌ للعرب من شَرّ قد اقترب، فُتِحَ اليوم من رَدْم يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه - وحَلَّقَ بأصْبَعِه: الإبهام والتي تليها. فقالت زينب بنتُ جَحْش: فقلت: يا رسول الله أنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ[1].

قال القرطبي: يأجوج ومأجوج خلق كفار وراء سد ذي القرنين[2]. وقال الطيبي: فقوله: «أبشروا فإنّ منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألف» تنبيه

---

(١) البخاري: ٦ / ٢٧٤ في أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، وفي الفتن، باب قول النبي ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب» [ص:٢٣٢]، وباب يأجوج ومأجوج. ومسلم رقم (٢٨٨٠) في الفتن، باب اقتراب الفتن.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي: (١/ ٤٧١). وانظر: تحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمآل لعقيل بن عطية وأبو عبد الله الحميدي: (٢/ ٦٢٥).

على أنَّ يأجوج ومأجوج داخلون في هذا الوعيد[1]. وقال محمد الأمين الهرري: و(يأجوج ومأجوج) خلق كفار وراء سد ذي القرنين[2].

وأعيد التنبيه هنا إلى أنَّ إطلاق لفظ (كافر أو غير مؤمن) هو -كما سبق- لمن ظهر منه الكفر، بغض النظر هل هو ممن جاءه الرسول وأقيمت عليه الحجة أم لا؟ وعليه فلا توجد علاقة تلازمية بين الكفر والتعذيب في جهنم، ما لم يثبت إقامة الحجة؛ فقد تعهد الله سبحانه بعدم تعذيب من لم تقم عليه حجة الرسالة، وقد سبق هذا.

تصوري عن يأجوج ومأجوج

أخبرنا سبحانه أنَّه خلق أشياء وأعدها لأغراض تأتي متأخرا جدا عن وقت خلقها، ولا نعلم الحكمة من ذلك، ومنها: الجنة، والنار، وأعور الدجال، ويأجوج ومأجوج... وقد يكون لها دور خارج عن دائرتنا، والله أعلم.. إلا أنَّنا نؤمن بها وأنَّ لها حكمة لا نعرفها بتمامها؛ لعلمنا وإيماننا أنَّ أعمال الله سبحانه قائمة على أكمل حكمة وأجلها.

إلا أنَّه ينبغي ألا نقيس كل هذا على حسب نظامنا ومعارفنا!! فمن كلفه الله بأمر ليقوم به لا يعني أن تلزمه بنفسه تبعات لعمله يُسأل عنها. فقد ينزل جبريل ليدمر أمما مجرمة بما فيها من أطفال ونساء وشجر وحجر و... ولا يمكن أن يوصف هذا الملك إلا بأنَّه يفعل ما يؤمر، وأنَّ مَن نزل بنعم الله من الملائكة إنّما يفعل كذلك ما يؤمر!! وإنّما اللوم على من كان مكلفا وتصرف مختارا بين الشر والخير، ومثل هذا لا يظهر على يأجوج ومأجوج.

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن للطيبي: (١١/ ٣٥٠٢).

(٢) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم لمحمد الهرري: (٥/ ١٦١). وانظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد الولوي: (٥/ ٥٦٧).

ثم إذا أردنا أن نتكلم عن دين قوم من الأقوام لا بد أن نتعرف على رسولهم ومدى تجاوبهم معه، إلا أنَّ هذه الأمور على بساطتها غير واضحة بالنسبة ليأجوج ومأجوج، وأحب هنا أن أسجل النقاط الآتية:

١-لم يصلنا أي دليل شرعي على أنَّ يأجوج ومأجوج تدينوا بدين ما في يوم ما!

٢-لم يصلنا أنَّ نبيا من الأنبياء أُرسل إليهم عبر التاريخ!.

٣-مع أنَّ الرسول محمد ﷺ بعث للعالمين، إلا أنَّه لم يصلنا أنَّ الرسول ﷺ علم بمكان سد ذي القرنين، وأنَّه تجاوزه إليهم، ولا أي خبر عن لقاء أو أي نوع من أنواع التواصل بينه وبينهم، ولو عن طريق صحابي أو أي مسلم بعد ذلك.

قال أبو عبد الله الحميدي: فإنّه إذا جعلت القاعدة أن لا تكفير إلا بعد قيام الحجة ببعث الرسل، فبأي شيء قامت الحجة على يأجوج ومأجوج، وهم قبل الإسلام لا يُعلم أنَّه جاءهم من الله تعالى نذير ولا رسول، وبعد مجيء الإسلام لا يُعلم أنَّه بلغتهم الدعوة لتعذّر وصولها إليهم... ويحتاج النبي المرسل للأمم إلى زمان يُبين فيه رسالته عن الله، ويتمكن فيه من إظهار معجزته، ويحتاج المرسل إليهم من الزمان إلى مثل ذلك حتى ينظروا في المعجزة التي تحدى بها رسولهم ليصدقوه في الرسالة، أو تقوم عليهم الحجة لتمكُّنهم من النظر. فقد دعا النبي عليه السلام أهل مكة إلى الله تعالى في عشر سنين أو أزيد، وهو في كل ذلك يتلو عليهم القرآن ويُسمعهم إياه... وهكذا جرت عادة الله تعالى بين الأنبياء الذين أرسلهم إلى الخلق، وبين الأمم الذين بعثهم إليهم في احتياج جميعهم إلى زمان تطول فيه المراودة بينهم، والنظر فيما جاءوا به، وذلك مذكور في أقاصيص الأنبياء في القرآن[1].

(١) تحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمآل: (٢/ ٦١٣وما بعدها).

بل يفهم من قول الرسول ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب» أنَّهم على ما كانوا عليه قبل آلاف السنين؛ لعلمه بنفسيتهم غير القابلة للتغيير. فبمجرد فتح فتحة في ردم يأجوج ومأجوج حذر الرسول ﷺ من فسادهم مباشرة، دون أي توقع لأن يكونوا قد آمنوا مثلا، أو أن يحاول هو دعوتهم، أو أن ينصحنا بأي شيء لأجلهم؛ وكأنَّ الأمر محسوم بأنَّهم خُلقوا للفساد فحسب.

٤- لم يُطلِق أي نص شرعي عليهم أو على بعضهم لفظ: (كفر)، أو كفار، أو ما في معناه.

٥- لم يُطلِق أي نص شرعي عليهم أو على بعضهم لفظ: (مؤمن أو مسلم)، أو ما في معناه.

٦- عادة الأقوام تنقسم إلى مؤمنين وكفار حسب التقسيم الديني، إلا يأجوج ومأجوج، إذ لم نسمع عن أي مؤمن فيهم، ولا سمعنا تقسيما دينيا حولهم، بل لا يُعرفون إلا بأسمائهم القبلية: قبيلة يأجوج، وقبيلة مأجوج.

٧- مع أنَّ ذا القرنين كان يمارس الدعوة إلى الله، إلا أنَّه عندما ذُكر له يأجوج ومأجوج لم يفكر في دعوتهم بتاتا، وسرعان ما بنى بينهم وبين جيرانهم سدّا، يمنع التواصل سواء بالخير أو الشر، إذ يمنع شرهم من الوصول إلينا، وخيرنا ودعوتنا من الوصول إليهم!! وهذا التصرف غريب في حقل الدعوة إلى الله وتبليغ الدين، وإقامة الحجة على الناس، وإصلاح حالهم فيما لو كانوا مكلفين محاسبين!!.

٨- والذين اشتكوا لذي القرنين عن يأجوج ومأجوج لم يصفوهم بكفر أو إيمان، وإنّما وصفوهم بالفساد.

٩- كل الآيات والأحاديث والروايات التي تحدثت عن خروجهم في آخر الزمان ذكرت شرهم الذي يُهدد البشرية بشكل عام، ولم تذكر أنَّ يأجوج

ومأجوج كانوا يستهدفون دينا بعينه!! أو كانوا يستهدفون المؤمنين ويوالون الكفار!! بل كان شرهم على بني البشر مهما كان دينهم ولونهم. ولذلك قال الرسول ﷺ: «يُفْتحُ يأ جوجُ ومأجُوجُ، يخْرُجُو ن على الناس» والحديث سيأتي في النقطة: ١١ القادمة. فقال الرسول: «على الناس» ولم يقل: على المؤمنين!.

١٠- لم تذكر كل المصادر إنّ يأجوج ومأجوج كانوا يطمعون بجمع ثروات كالنفط أو الذهب أو المال بأي شكل من الأشكال، أو أنَّهم كانوا يفكرون بناء حضارة ما، بل لم نعلم أنَّهم فكروا ببناء بيت أو نصب خيمة!!

١١ - لم يفكروا باقتحام المدن مع شهوتهم للقتل!! مما يشير إلى عقلية بسيطة غريبة غير متوقعة. فعَن أبي سعيد الخُدْري قال: سمعت رَسولَ اللهِ ﷺ يقول: يُفْتَحُ يَأجُوجُ ومأجُوجُ، يَخْرُجُونَ على النَّاس، كما قال اللهُ عَزَّ وجل: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٦]، فَيَغْشَونَ الأرض، وينحاز المسلمون عنهم إلى **مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ**، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إنّ بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه، حتى يتركوه يبسا، حتى إنّ مَن بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماء مرّة، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء، قال: ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مختضبة دما، للبلاء والفتنة، فبينا هم على ذلك، إذ بعث الله دودا في أعناقهم، كنَغَف(١) الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حسّا، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو. قال: فيتجرد رجل منهم لذلك محتسبا لنفسه، قد أظنها على أنّه مقتول، فينزل، فيجدهم موتى

(١) النَّغف: دود تكون فِي أنوف الإِبِل والغنم. الفائق في غريب الحديث للزمخشري: (٤/ ٨).

بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، فإنّ الله قد كفاكم عدوكم. فيخرجون من مدائنهم، وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر[1] عنه كأحسن ما تشكر عن شيء من النبات أصابته قط [2].

يلاحظ في الحديث أنَّ يأجوج ومأجوج يسيحون في مدن كثيرة، ويشربون أنهارا كثيرة، وليس منطقة عيسى عليه السلام فحسب، وتَحصّن المسلمين في مدائنهم لا يقصد منه سوى الخوف على المسلمين، وليس كون يأجوج ومأجوج لا يستهدفون الكفار، فقد صرحوا بأنَّهم قتلوا أهل الأرض، وبقي عليهم قتل أهل السماء.

١٢- قول يأجوج ومأجوج وهم يحفرون السد: (إن شاء الله) لا معنى له، فهو قد يدل أنَّ بعضهم سمع باسم الله سبحانه، كما أنَّ هذه الكلمة تدرج على ألسنة غير المسلمين كما هو معروف، وإنّما أراد الله سبحانه أن يجعل هذه الكلمة مفتاحا لنهاية هذا السد الذي ثبت آلاف السنين بقدرة الله ومشيئته، وها هو اليوم ينتهي بمشيئته. فعن كَعْب، أنَّه قال: إنَّ يَأجوج ومأجوج يَنْقُرُونَ بمَناقِيرهم السَّدَّ حتى إذا كادوا أنْ يَخْرِقوه قالوا: نرجع إليه غدًا فَنَفْرُغ منه، قال: فيَرجِعونَ إليه وقد عادَ كما كان، فإذا بلغ الأمْرُ ألقي على بعض ألسنتهم أنْ يقولوا: نَرْجِعُ إنْ شاءَ اللهُ غدًا فنفرغ منه قال: فيرجعون إليه وهو كما تركوه فيَخْرقونهُ[3].

ويتأكد هذا المعنى إذا ما انتبهنا إلى أنَّ قائدهم استثنى بالمشيئة بعد آلاف

---

(١) تشكر: أي تمتلئ. غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٤٠٠).

(٢) مسند أحمد: (١٨/ ٢٥٦). وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن. وصحيح ابن حبان: ١٥/ ٢٤٤.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني: (٦/ ٢٣). وانظر: فتح الباري لابن حجر: (١٣/ ١٠٩).

السنين لمرة واحدة، وأنَّ هذه اللفظة جرت على لسانهم؛ لأنَّ الله أراد دكّ هذا السد بمشيئته.

١٣- مواصفاتهم الخَلقية لا تدل على أنَّهم من النسل الطبيعي لآدم، فأشكالهم ليست على أشكال بني آدم، ولا توحي بقرابة بيننا وبينهم، أو وحدة أصل.

١٤- مواصفاتهم النفسية لا تدل على إمكان استنهاض الخير في نفوسهم، فكأنَّهم مخلوقات خلقت للشر فحسب، ويدل على هذا عدم محاولة ذي القرنين دعوتهم أو التفاهم معهم، وعدم معرفتنا لأي دعوة قبله أو بعده، حتى مِن رسولنا محمد ﷺ، ومخلوقات بهذه المواصفات يصعب تقبل فكرة أنَّها مكلفة مختارة بالشكل اللائق، وأنَّها تستحق العذاب السرمدي بناء على ذلك.

١٥- حتى رميهم بسهامهم إلى السماء لم يكن في ظاهره سوى حب للقتل والقتل فقط!! فقالوا: قتلنا أهل الأرض وأهل السماء. فهم ضد الحياة لغيرهم. فلا أحد يعلم لهم دينا يقاتلون لأجله، أو يدعون أحدا إليه. أو أنَّهم يطمعون بصديق أو جار أو قريب أو تعارف مع أحد.

١٦- ورمي سهامهم ورجوعها إلى الأرض ملطخة بالدماء، وقولهم: قتلنا أهل السماء، وإن كان يدل على كفرهم من جهة، إلا أنَّه يدل على ضعف عقولهم بشكل كبير، فسهامهم ليست صواريخ عابرة للقارات!! ومهما ارتفع السهم يُرى بالعين المجردة، ويُعلم بأنَّه لم يصطدم بشيء، فكان الأولى أن يقولوا: هذا سحر أو ما شابه. وبخاصة أنَّ جثث أهل السماء لم تسقط على الأرض!! وأناس بهذه العقول لا يمكن أن يكونوا بمستوى عقلي يسمح بتبليغهم وإقامة الحجة عليهم.

١٧- اختار يأجوج ومأجوج ثقب ردم ذي القرنين، ولم يتمكنوا من ذلك طوال هذه

المدة، فكل هذه القرون يخرقون فيه خرقا ثم يصبحون فلا يجدونه فيفعلون غيره، ثم لا يجدونه نحو مئات أو عشرات الألوف من المرات!!! مما يدل على ضعف عقولهم. فهم أشبه بالنمل الذي لا يعقل، ولا يكل ولا يمل.

١٨- قول الرسول ﷺ في حديث (بعث النار) للصحابة عندما قنطوا: «اعْمَلوا وأبْشِروا، فوالذي نفس محمد بيده، إنّكم لَمَع **خَلِيقَتَيْن**، ما كانتا مع شيء إلا كثّرتاه - يأجوج ومأجوج، ومن مات من بني آدم، ومن بني إبليس».

يتضح أنَّ الرسول ﷺ فصل يأجوج ومأجوج عمن مات من بني آدم!! مع أنَّه قال في الحديث إنّ بعث النار من ذرية آدم! وهذا الإشكال يبدو لي أنَّه يشير إلى أنَّهم إن كانوا من أولاد آدم فهم غير طبيعيين، فاسدون مفسدون خلقوا ليبتلي الله العباد بهم، ثم يحكم فيهم بعدله وحكمته. كما أنَّ كون الإنسان مكلفا لا يثبت بمجرد كونه من أولاد آدم، ما لم يثبت أنَّه قد أقيمت عليه الحجة، وأنَّه قد تحققت فيه الشروط مثل البلوغ والعقل والتخيير.

١٩- لم تنص آية أو حديث على تعذيب يأجوج ومأجوج في جهنم، نعم نص الحديث على أنَّهم في بعث النار، وبيّنا سابقا وبإسهاب أنَّ الوجود في بعث النار لا يعني دخول النار، بل ظهر أنَّ أكثر بعث النار مصيره ليس إلى النار!! وخاصة أنَّ النار لا يعذب فيها إلا معاند مكذب للرسل، أقيمت عليه حجة الرسالة. كما أنَّ دخول النار لا يلزم منه العذاب لمن دخلها ما لم ينصّ عليه نص صريح، فخزنة جهنم من الملائكة تدخلها لتعذيب الكفار، ولا شك أنَّهم لا يعذبون فيها، وقد أجاز ابن حجر وجود مخلوقات في جهنم ذوي أرواح، ولكن لا يعذبون كما في خزنة جهنم من الملائكة[١].

٢٠- لم يُذكروا في الجنة أو في النار، لا نقاشا ولا تعذيبا ولا ألما، مع أنَّ الله

(١) فتح الباري لابن حجر: (١٣/ ٤٣٧).

قص علينا الكثير من حوارات أهل النار من الإنس والجن، ولم يذكر لنا حرفا عن يأجوج ومأجوج في النار.

٢١- وصفوا بصفات يظهر أنَّهم جبلوا عليها، وكأنَّ الله كما خلق خلقا جبهلم على الطاعة فحسب وهم الملائكة، خلق خلقا آخر جبهلم على صفات معاكسة.

٢٢- ما يليق بربنا من الرحمة وصفات كماله تجعلنا نتريث في الخوض بتعذيبهم بلا علم، والظاهر أنَّ هذا مخالف لرحمة الله. فنشهد بما علمنا، والذي علمنا أنَّنا لم نعلم أنَّ أحدا بلّغهم دينا، ونصوص التبليغ العامّة للأمم سبق الكلام في أنَّها لم تعُم كل فرد في البشرية، مع ملاحظة أنَّ هؤلاء عُزلوا عن الناس بردم ذي القرنين.

وعليه فلا نستبعد أنَّ يكون يأجوج ومأجوج طفرة سلبية مشوهة من ولد آدم.. لما سبق من أنَّهم ليسوا مثلنا، أو أنَّهم خلق خلقوا لتكميل مسلسل الابتلاء للبشرية، لهم دور يقومون به، خلقوا لأجله، يؤدونه بجدارة واقتدار، والله أعلم بمصيرهم، ونقطع بأنَّ الله لا يعذب إلا من أرسل له رسولا فكذبه.

يمكن أن يقال: إنّ الله لم يطلعنا على أحوالهم ونسكت، ولكن يبقى ضرورة معرفة سبب وجودهم في بعث النار، مما يوحي بإمكان تعذيبهم!! وظاهر هذا غير مفهوم، ولا شك أنَّ المؤمن يُسَلم بعدل ربه، ولكن كيف يقنع غيره؟!

ولا يُستبعد أن يحاسبوا كما تحاسب الحيوانات أو غيرهم ممن لا يعلمه إلا الله؛ لأنَّه لم يثبت دخولهم جهنم؛ إذ لم نر نصا في ذلك.

ولا أميل إلى اعتبارهم من أهل الفترة، وأنَّ الله يمتحنهم يوم القيامة؛ لأنَّه كما يظهر من أخبارهم أنَّهم دون مستوى التكليف كما سبق أن ذكرت؛ لأنَّ الامتحان يفرز أهل الخير؛ والنصوص لم تفد أنَّ يأجوج ومأجوج من هذا

النوع من البشر الذي فيه خير وشر، والظاهر أنَّهم مفسدون لا خير فيهم، لذا لا أظن لهم مكانا في جنة الله لعدم الخير فيهم، ولا أراهم من أهل النار المعذبين لعدم قيام الحجة عليهم؛ ولِما يظهر من عدم أهليتهم لذلك، **ومن عقيدتنا أنَّنا لا نشهد لأحد (وهذا ينطبق على أي مجموعة كاملة معينة من الكفار فحكمها حكم الفرد) بجنة أو نار على وجه التعيين ما لم ينص عليه نص خاص فيه. وتبقى الأحكام على العموم.**

والمقصود بعدم الشهادة لأحد بجنة أو نار، عدم الشهادة له بنعيم الجنة، وعذاب النار؛ لأنَّ مجرد دخول النار لا يعني أن يكون معذبا فيها!! ففيها خزنة النار من الملائكة، وفيها الكثير من مخلوقات الله التي أخبرنا سبحانه أنَّها كانت تسبح بحمده، مثل الحجارة، وخلق كثير من مستلزمات النار، ومثل هذه الأشياء ليس بلازم أن يكون وجودها في النار بهدف تعذيبها، وإنّما لكونها من مستلزمات النار، وإدارة شؤونها وخدماتها، ولحكمة يعلمها الله، ولكن لا شك أنَّ وجودها لغير التعذيب الذي لا بد أن يثبت لصاحبه قبله كل ما ينبغي أن يثبت للمكلف من التبليغ الكامل والتخيير والعقل والقدرة وغيرها. والله أعلم وأحكم وأرحم.

كل ما هنالك أنَّهم كان لهم دور وانتهى، لتنفيذ الحلقات الأخيرة من مسلسل وجود الإنسان على هذا الكوكب.. الله أعلم بحالهم، ونفوض أمرهم إلى الله. ولا نقول شيئا بلا دليل. فالرسول قال في مسائل بسيطة: على مثلها فاشهد، وأشار إلى الشمس، وأعجب من أناس يُدخلون أكثر البشرية نار جهنم بما يظنونه أدلة، وهي أقرب إلى الشبهات والعموميات التي لا تصلح في حسم المسألة، ومخالِفة لما نتصوره عن رحمة رب العالمين، وجمال دينه.

سد ذي القرنين كان الأداة التي عزلت يأجوج ومأجوج ليوم القيامة وقد تحول مكانهم وسدّهم إلى لغز محير

حارت العقول بيأجوج ومأجوج، ومكانهم وسدهم، وفي زماننا كُشف الكثير من المجهول، ولا يزال سر يأجوج ومأجوج يحير العقول، ويشكك ضعاف العقل والدين بنصوص الآيات والأحاديث، إذ إنّ يأجوج ومأجوج كما تحدثنا عنهم كثرة يشكلون دولة أو دولا ذات تعداد كبير، وليسوا أفرادا يغيبون عن الأنظار في كهف، أو حفرة!! كما أنَّ باطن الأرض لا يصلح لحياة الآدميين، فبقي حالهم لغزا يعسر فهمه، وتوضيحه للمستفسرين. فإن كان يأجوج ومأجوج قد عجزوا عن القفز فوق سورهم أو اختراقه، فلماذا عجزنا نحن مع أنَّنا اخترقنا الأرض، وحلقنا في السماء وركبنا الكواكب عن رؤيتهم ومعرفتهم؟! هذا اللغز الذي سأحاول كشفه -تتمة للبحث- في هذه الأسطر القليلة حسب فهمي والله ولي التوفيق.

عن أبي هريرة، عن رسول اللهِ ﷺ قال: إنّ يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا **بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس**، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا، إن شاء الله، ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفا

في أقفائهم فيقتلهم بها. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إنّ دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم ودمائهم»(١). وبنحو هذا الحديث أحاديث أخرى بنفس المضمون.

من خلال استقرائي للقرآن الكريم والسنة المطهرة، وجدت أنَّ إرادة الله سبحانه تتدخل أحيانا فيما يبذل البشر من أسباب على أحوال شتى، بحيث تبعدها عن قوانين الطبيعة، وما ألفه الناس منها، فتخرج عن السيطرة البشرية وتتعلق بالإرادة الإلهية، فعندما تتدخل إرادة الله في أمر تحار عقول البشر، ويعجزون عن تجاوزه، بينما كانوا يظنون أنَّه في متناول أيديهم!!

ومن هذه الأسباب التي تدخلت فيها إرادة الله سبحانه:

- **أسباب يعكس سبحانه تأثيرها رأسا على عقب، مثل نار إبراهيم عليه السلام**

فعندما ألقى النمروذ رسول الله إبراهيم عليه السلام في النار، وهي سبب في الإحراق، تدخلت إرادة الله سبحانه لتعكس تأثير النار من حارقة مهلكة إلى باردة غير مؤذية. قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٨-٦٩].

- **أسباب يجمدها الله سبحانه إلى حين، مثل تسميم الرسول ﷺ**

ففي غزوة خيبر وضعت اليهودية سُمّا للرسول ﷺ في الشاة التي كان يأكل منها، فتدخلت إرادة الله وجمدت تأثير ذلك السم في جسم الرسول ﷺ لحين انتهاء دعوته، ثم أذن له بالتأثير، ولذلك من العلماء من يعدّ الرسول شهيدا. فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسولُ الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة، ما أزال أجِدُ ألَم الطعام الذي أكلتُ بخيبرَ، وهذا أوانُ

(١) مسند أحمد: (١٦/ ٣٦٩)، رقم: ١٠٦٣٢. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: أسناده صحيح على شرط الشيخين.

وجدتُ انقطاع أبْهَرِي من ذلك السّم[1].

• **أسباب يقويها سبحانه لأمر يريده**

مثل أمر الله سبحانه لمريم – عليها السلام- أن تهز بجذع النخلة ليتساقط عليها الرطب، فقال سبحانه: ﴿ فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٢٣-٢٥]. وهز جذع النخلة وليس غصنها[2]! ليس بالأمر السهل للرجال الأقوياء الأصحاء، فما بالك بامرأة في حال ولادة؟ هنا تتدخل إرادة الله لتقوية الأسباب التي ستبذلها مريم ليتساقط عليها الرطب جنيا. ومثل هذا عندما رمى الرسول ﷺ المشركين في غزوة بدر بقبضة من التراب فدخلت في عيون جيش المشركين. قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال: ١٧].

• **ويأجوج ومأجوج وسدهم من هذا القبيل**

وقصتهم فيها نوعان من الأسباب، وقد تدخلت الإرادة الإلهية بكليهما:

الأول :السبب الذي بذله ذو القرنين

وهو عزل يأجوج ومأجوج عن الناس بردم، ومن الطبيعي أنَّ هذا الردم يتأثر بعوامل الطبيعة، أو يجد مَن وراءه طريقة للتخلص منه، ولو بعد حين. إلا أنَّ الله تدخل بهذا السبب وقواه وصار إرادة كونية، وقدرا إلهيا يعجز البشر عن

(١) رواه البخاري تعليقاً: ٨ / ٩٩ في المغازي، باب مرض النبي ﷺ، قال الحافظ في (الفتح): وصله البزار والحاكم والإسماعيلي من طريق عنبسة بن خالد عن يونس بهذا الإسناد. و (الأبهر): عرق مستبطن الصلب، والقلب متصل به، فإذا انقطع مات صاحبه.

(٢) وغصن النخلة في اللغة هو: السّعف.

تحديه **وليس يأجوج ومأجوج فحسب!!** وهذا التدخل الإلهي بهذا المستوى واضح من القرآن الكريم، إذ يظهر فيه بجلاء أنَّ الله أوحى لذي القرنين بأنَّ سده قد تحول إلى قدر إلهي، وأنَّه سيصمد أما العالمين لآخر الزمان، حيث علامات الساعة الكبرى. قال تعالى عن لسان ذي القرنين: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا **جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ** دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [سورة الكهف: ٩٨]. لقد نصّت الآية الكريمة على أنَّ زوال السد، وخروج يأجوج ومأجوج، والتواصل بينهم وبين البشر، **لم يعد مرتبطا بالأسباب!! وإنّما بوعد الله** سبحانه، والله إذا أراد أمرا لم تعد الأسباب عاملة بخلاف إرادته، بل خادمة لذلك، فهو خالق الأسباب والمسببات، وقد أخبرنا سبحانه أنَّه يعطل هذه الأسباب حينا، ويضعفها حينا، ويجمدها حينا، ويقويها حينا لتكون في نهاية المطاف خادمة لإرادته.

فذو القرنين هنا يتكلم عن وعد الله سبحانه، وهو الوقت الذي جعله الله موعدا لهدم السد، وأكد هذا بقوله: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾. وأكد هذا سبحانه في مكان آخر فقال: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ** ﴿٩٦﴾ **وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٦-٩٧].

وأكدت السنة المطهرة هذا المعنى في حديث أبي هريرة السابق وفيه: **حَتَّى إذا بلغَتْ مُدَّتُهم، وأراد اللهُ أنْ يبعثهم على النَّاسِ**، حَفَرُوا، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارْجِعُوا فستحفرونه غدًا، إنْ شاء اللهُ، ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس.

الثاني :السبب الذي بذله يأجوج ومأجوج

إذ إنّ الرسول ﷺ قص علينا فيما مضى من الأحاديث أنَّ يأجوج ومأجوج بذلوا جهودا كبيرة في خرق السدّ، وأنَّهم أوشكوا على خرقه مرارا كثيرة جدا، إلا أنَّ إرادة الله سبحانه تدخلت هنا في إضعاف أسبابهم إلى درجة الإلغاء تقريبا، ففي الحديث الذي سبق آنفا: عن أبي هريرة، عن رسول اللهِ ﷺ قال: إنَّ يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارْجِعُوا فستحفرونه غدًا، فيَعُودون إليه كأشد ما كان.

فيبقى يأجوج ومأجوج في هذا العناء إلى أن يحين وعد الله الذي أخبرنا به ذو القرنين، وهو علامات يوم القيامة، فعندئذ يأذن الله لهم بحفر السد ليخرجوا على الناس ليعم بلاؤهم الخلق.

ومن خلال هذا أريد أن أخلص إلى نتيجة وهي: من العبث أن نبحث عن يأجوج ومأجوج، ومن العبث أن نبحث عن سدهم.. فقد تعلقت إرادة الله الكونية بهم، وجعلتهم سرا لا يُكشف إلا قرب قيام الساعة، وعليه **فالسعي للتعرف على يأجوج ومأجوج قبل موعدهم عملية أقرب إلى العبث وضياع الوقت لاصطدامها بإرادة إلهية قد وقتت لذلك وقتا، وبالتالي لن نكتشفهم ولو مررنا بطائراتنا فوقهم!! ولو سرنا بينهم!!** فقد أراد الله ألا نرى الجن وهاهم حولنا ولا نراهم ولا نتأثر بهم، ولا نستطيع نحن ولا هم خرق هذا الجدار القدري بيننا وبينهم إلا بإذن الله. ومع أنَّنا اكتشفنا الكاميرات والمجاهر ووو ولكن الله قال: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [سورة الأعراف: ٢٧]، وعليه فمحاولة تصويرهم والتعرف عليهم كأمّة من العبث. ولا أقصد أنَّ الله حول يأجوج ومأجوج إلى مخلوقات مخفية، وإنّما حال بيننا وبينهم بطريقة ما لا سبيل لاختراقها؛ كونها صارت قدرا وإرادة إلهية لوقت وموعد معلوم.

بل إنّ الله يحمي إرادته ومشيئته بأقل من ذلك بكثير، ومع ذلك يعجز الخلق عن تحديها، فها هو موسى عليه السلام عندما أراد الله أن يبعثه إلى فرعون وخاف موسى على نفسه؛ لأنَّه قتل منهم نفسا، وكان مطلوبا لفرعون، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [سورة القصص: ٣٣]. فأجابه سبحانه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة القصص: ٣٥]، واكتفى موسى بهذا الوعد من ربه، وسار مع أخيه إلى فرعون، مع أنَّ الله لم يرسل معهما فيما نرى جيوشا تحميه، وظهر فرعون مضطربا يناشد قومه أن يتركوه ليقتل موسى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [سورة غافر: ٢٦] وكأنَّهم كبلوه!! بينما كان موسى يتجول أمام حراب فرعون وجيشه بلا حماية ظاهرة! وكان فرعون يتمنى قتله، ولكن لماذا لم يفعل؟! هذه إرادة الله التي يعجز الخلق دون إدراكها أو تحديها، وهذا وعده الذي لا يتخلف.

بحمد الله وتوفيقه تم الكتاب

والله من وراء القصد

محمد أبو زيد حسين أبو زيد

أستاذ دكتور في التفسير وعلوم القرآن الكريم

٢٣/ ١٠/ ١٤٤٠هـ الموافق: ٢٦/ ٦/ ٢٠١٩م

فهرس المحتويات

المقدمة ٥
مدخل: ركائز عقدية بُني عليها هذا الكتاب ١١
الركيزة الأولى: المؤمنون خالدون في الجنة ١٣
والمقصود بالمؤمنين ١٣
الركيزة الثانية: الجنة لا يدخلها كافر ١٥
النقطة الأولى: معنى الكفر لغة واصطلاحا ١٦
أولا: المعنى اللغوي للكفر ١٦
ثانيا: معنى الكفر في المصطلح ١٨
النقطة الثانية: المقصود بالكافر الذي لا يدخل الجنة ٢٠
الركيزة الثالثة: الكفار خالدون في النار ٢٥
الركيزة الرابعة: أصحابُ الكبائر يَستحقّون النار ولا يُخَلّدون فيها إن دخلوها ٢٧
الركيزة الخامسة العظيمة: رحمةُ اللهِ غَلبت غضبه ٢٩
المحور الأول: حديث (بعث النار) وأثرُه على العدالة الإلهية ٣٧
حدِيْث بَعْثِ النار ٣٩
الفرز الأول للبشرية حسب الظاهر ٥١
أولا: توقيت بعث النار الوارد في الحديث الشريف ٥١
ثانيا: مُكوّنات بعث النار وبعث الجنة ٥٤
أ – مكونات بعث النار ٥٤
١ – ما ذنب أهل الفترة الذين ما جاءهم رسول ليكونوا في بعث النار؟ ٥٤
٢ – لماذا تم ذكر كل قبيلة يأجوج وقبيلة مأجوج في بعث النار ٥٦
٣–إذا كان الفرز الأول حسب ما يُظهر الإنسان من الدين، فلماذا نجد فيه المنافقين ٥٧

ب- مكونات بعث الجنة ٦٠
ثالثا: نسبة بعث الجنة إلى بعث النار في هذا الفرز (الأول).........................٦٠
١- الرأي الأول: أن نسبة ٩٩٩ تكون بعد انضمام يأجوج ومأجوج ٦٠
٢- الرأي الثاني: يرى أن الحكم للزائد ٦١
٣- الرأي الثالث: يرى أن العدد لا اعتبار له والمقصود كثرة عدد بعث النار ٦١
الرأي الراجح ٦٢
ملخص الفرز الأول للبشرية...٦٣
الفرز الثاني للبشرية: حسب حقيقة الدين، والتكليف ٦٤
١- الصدمة الأولى: عند تبليغ الرسول ﷺ هذا الحديث لصحابته ٦٥
٢- الصدمة الثانية: عند تطبيق هذا الحديث في عرَصات يوم القيامة ٦٥
كون أكثر الكوكب من غير المؤمنين مشيئة إلهية، وإرادة كونية لا تتخلف!! ٦٦
ولكن قد يقول قائل: أليس من الحكمة أن تكون الأغلبية للمؤمنين؟ ٦٩
أولا: تصفيات بعث الجنة (من ظاهره الإيمان) ٧٣
١- الأدلة من القرآن الكريم على كون المنافقين في بعث الجنة في المحشر ثم فرزهم لاحقا ٧٤
٢- الأدلة من السنة النبوية على كون المنافقين في بعث الجنة في المحشر ثم فرزهم لاحقا ٧٦
ثانيا: تصفيات بعث النار (حسب حقيقة الدين والتكليف) ٧٧
الحجة الرسالية، وكيفية إقامتها على البشرية..٨٠
بم تقوم حجة الرسالة؟ وكيف؟ ٨٤
كيفية قيام حجة الرسالة..٨٦
ولكن هل المقصود مجرد السماع عن الدين الصحيح؟..............................٨٧
أولا: لم يعم سبحانه البشرية بالرسل ٩٣
ثانيا: كثرة وطول الفترات بين الرسل ٩٦

ثالثا: العقبات حَدّت من انتشار الدين، ومن قدرة الأنبياء على إقامة الحجة على الناس ١٠٢
١- تشويه صورة الأنبياء ودينهم وأتباعهم ١٠٣
اتهام الرسل بالكذب على الله ١٠٤
اتهامهم الرسل بالسحر ١٠٦
استغلال الجانب السياسي الأمني ١٠٧
٢- اللجوء إلى العنف لإرهاب الناس وصدهم عن الدعوة ١٠٧
٣- الغزو الفكري ١٠٩
٤- الكبر والعصبية ١١٢
وللأهمية يحسن أن أخص دعوة الرسول محمد ﷺ ببعض المعوقات غير ما سبق ومنها:
١- إهمال التبشير بالدين الإسلامي ١١٣
٢- ندرة الفاهمين للغة الحُجة الرسالية في الكوكب (العربية) ١١٦
٣- الفارق الكبير بين التراث الشرعي والواقع المعاصر ١١٨
٤- التخلف الذي تعاني منه البلدان الإسلامية ١٢٠
٥- التطرف والإرهاب ١٢٣
٦-الإعلام ووسائل التواصل ١٢٥
ملخص الفرز الثاني للبشرية ١٣٣
الفرز الثالث للبشرية: فرز الناجِين عن المُعذَّبِين ١٣٤
القسم الأول: فرز المؤمنين ١٣٦
تمهيد ١٣٦
أولا: مؤمنون فائزون: يدخلون الجنة دخولا أوليا بلا سابق عذاب ١٣٧
ثانيا: مؤمنون مستحقون للنار، وهؤلاء قسمان ١٣٨
١.مؤمنون يستحقون النار مَعفوٌ عنهم ١٣٨

٢.مؤمنون يدخلون جهنم لفترة من الزمن ١٣٩
القسم الثاني: فرز غير المؤمنين ممن لم تقم عليهم حجة الرسالة(جُهّال)........ ١٤١
أولا: مشركو أهل الفترة معذبون ١٤٢
ثانيا: مشركو أهل الفترة ناجون ١٤٤
ثالثا: مشركو أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة ١٤٥
الترجيح........................ ١٤٧
أكثرية أهل الفترة ومن في حكمهم مصيرهم إلى الجنة، للأسباب الآتية:
السبب الأول: انتهاء الحكمة من وجود هذا النوع من الكفار غير المعاندين ١٥١
السبب الثاني: الآيات التي تحدثت عن كثرة الكفار لم تصفهم بأنهم معذبين ... ١٥٤
السبب الثالث: كثرة الأطفال بين أهل الفترة وهؤلاء ناجون ١٥٨
السبب الرابع: يوجد في أهل الفترة موحدون وهؤلاء إلى الجنة ١٦٧
السبب الخامس: توقع نجاة أصحاب الأخلاق من أهل الفترة ١٧٢
شبهة وجواب على الكلام السابق ١٧٥
١- ينتفع الكافر بعمله الصالح في الآخرة بتخفيف العذاب ١٧٥
٢- لا ينتفع الكافر بعمله الصالح في الآخرة أبدا........................ ١٧٧
٣- يخفف بأعمال الكافر الصالحة من عذابه على أعماله السيئة ١٧٧
الترجيح........................ ١٧٩
السبب السادس: صفات أهل النار تفيد أنهم قلة ١٩١
أولا: صفاتهم في القرآن الكريم ١٩٢
ثانيا: صفاتهم في السنة المطهرة ١٩٣
السبب السابع: إحباط مشروع إبليس وفشل تحديه، وانتصار المشروع الإلهي .. ١٩٤
السبب الثامن: لأن رحمة الله سبقت غضبه ١٩٨
ملخص الفرز الثالث للبشرية ١٩٩

الفرز الرابع والأخير للبشرية: استقرار أهل الجنة في الجنة، واستقرار أهل النار في النار.. ٢٠٠
خلاصة المحور الأول: بعث النار ٢٠٤
المحور الثاني: أبدية الكفار في النار وأثره على العدالة الإلهية.......................... ٢٠٧
القسم الأول: أبدية النار وأثره على العدالة الإلهية ٢٠٩
القول الأول: القائلون بأبدية عذاب جهنم لأهلها ٢٠٩
القول الثاني: القائلون ببقاء جهنم، وفناء نارها وانتهاء عذابها ٢١١
أدلة القائلين بفناء نار جهنم وانتهاء التعذيب، وبقاء جهنم بغير نار............ ٢١٥
الترجيح.. ٢٢٢
القسم الثاني: مصير الكفار بعد النار وأثره على العدالة الإلهية.......................... ٢٣٢
فأقول إذا خرج المعذبون بعد فناء نارهم ما مصيرهم؟ ٢٣٢
هل يبدلهم الله مكانا آخر يليق بكفرهم؟ ٢٣٣
مثال عن مكة المكرمة... ٢٤١
معنى الإيمان اضطراري لا يُقبل.. ٢٤٤
إخلاف الوعيد مكرمة ٢٤٥
وهناك من يقول: إن الله أوعد الكفار بالعذاب الدائم ووعده حق ٢٤٥
التلطف بأهل الجنة من مبررات انتهاء تعذيب الكفار ٢٤٩
علم الأنساب لا ينساه الناس في الآخرة ٢٥١
رحمة الله غلبت غضبه... ٢٥٥
المحور الثالث: إشكال يأجوج ومأجوج وأثرُه على العدالة الإلهية ٢٥٨
التعريف بيأجوج ومأجوج ٢٦٠
أ – نسب يأجوج ومأجوج وكثرتهم وأحوالهم ٢٦٢
ب– فساد يأجوج ومأجوج في الأرض ٢٦٩
ج – دِين يأجوج ومأجوج ٢٧٠

تصوري عن يأجوج ومأجوج ٢٧٢

سد ذي القرنين كان الأداة التي احتفظت بيأجوج ومأجوج ليوم القيامة............ ٢٨١

• أسباب يعكس سبحانه تأثيرها رأسا على عقب: نار إبراهيم عليه السلام ٢٨٢

• أسباب يجمدها الله سبحانه إلى حين: تسميم الرسول محمد ﷺ............ ٢٨٢

• أسباب يقويها سبحانه لأمر يريده ٢٨٣

• ويأجوج ومأجوج وسدهم من هذا القبيل.. ٢٨٣

الأول: السبب الذي بذله ذو القرنين ٢٨٣

الثاني: السبب الذي بذله يأجوج ومأجوج ٢٨٥

فهرس المحتويات... ٢٨٧

تم بحمد الله